عقائد السنة و عقائد الشيعة

التقارب و التباعد

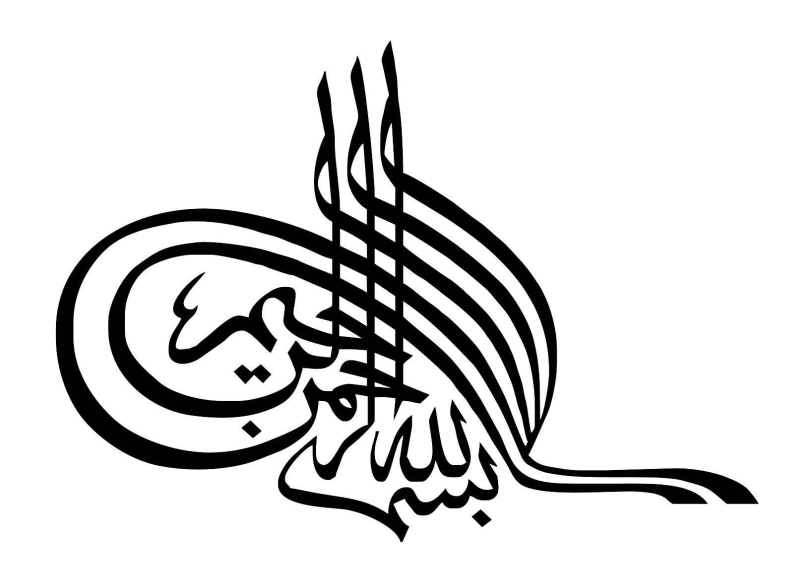
الغدير للدراسات و النشر
حارة حريك – بناية البنك اللبناني السويسري
هاتف ٠٣/٦٤٤٦٦٢ – ٠١/٥٥٨٣١٥ – ٠١/٢٧٣٦٠٤
ص . ب ٢٤/٥٠ – بيروت – لبنان
E-mail: algadeer@inco.com.Ib

عقائد السنة و عقائد الشيعة

التقارب و التباعد

صالح الورداني

الغدير
بيروت ـ لبنان


بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة المركز

يواجه المسلمون، في هذا الزمن، أعداء أقوياء يهددون وجودهم الفاعل نفسه. وهؤلاء الأعداء كثر، ويتمثلون بخاصة في الغرب الإستعماري وطليعته المتقدمة: الصهيونية التي غرسوها في قلب بلاد المسلمين: فلسطين، وما انفكوا يتعهدونها بالمال والسلاح ومختلف صنوف الرعاية لتبقى متفوقة ومهيمنة.

في مواجهة هذا الخطر الداهم، علاوة على مواجهة مشكلات النمو والتقدم، يحتاج المسلمون إلى الوحدة القائمة على أسس راسخة لا يمكن للرياح السياسية المتقلبة أن تعصف بها.

لا بل نذهب إلى أبعد من ذلك، فنرى أن الحاجة ماسة إلى وحدة لا يستطيع تقلب الرياح السياسية أن ينال من ثباتها، وهذه الوحدة ليست قصية المنال، وإنما هي قريبته، إن عرف المسلمون السبل إليها، وسعوا بصدق المؤمنين وعزمهم إلى تحقيقها.

والخطوة الأولى تبدأ بمعرفة سبب التفرقة بين المسلمين...

يتمثل هذا السبب، كما يري مؤلف هذا الكتاب، قي ما أدخل على العقيدة من آراء الناس لأسباب عديدة، أبرزها الأسباب السياسية، وصار، عند بعضهم، جزءا منها يلزم الإقرار به.

يدرك المؤلف هذه الأمور جميعها، ويحدد ما يريد الوصول إليه، وهو التفريق بين العقيدة الإسلامية وبين العقيدة الوضعية وتحديد ماهية الأولى وأصولها وتميزها من الثانية.. وبيان عدم جواز أمرين: أولهما الخلط بين العقيدتين، وثانيهما اعتبار بعضهم المساس بالجزء الوضعي مساسا بالجزء الإلهي.

يقتضي تحقيق هذا الهدف تقديم معرفة بالعقيدة من منظور أهل السنة ومن منظور الشيعة، وإجراء دراسة مقارنة تبين الأصول الثابتة التي تمثل أسس الوحدة الراسخة.

وبغية إنجاز هذا الهدف يمهد المؤلف، في كتابه هذا، بتعريف العقيدة، وبنشأة السنة والشيعة، ثم يبحث في أربع قضايا أساسية هي: التوحيد والنبوة والإمامة والرجال، ويتبين رؤية كل من أهل السنة والشيعة إلى كل قضية من هذه القضايا. وبعد أن يتقصى البحث، يجري دراسة مقارنة، ثم يبلور ما يخلص إليه من نتائج.

نرجو أن يسهم هذا الكتاب في تحقيق ما نصبو إليه من وحدة إسلامية قادرة فاعلة، والله سبحانه وتعالى ولي التوفيق.

مركز الغدير للدراسات الإسلامية

المقدمة

كانت ولا زالت العقيدة هي جوهر الصراع الفكري على مر التاريخ الإسلامي غير أن ما يجب التوقف فيه هو تحديد ماهية العقيدة وفصلها أو التفرقة بينها وبين ما أدخل عليها وعلق بها وصار جزءا منها يلزم الإقرار به و اعتقاده كما يلزم الاعتقاد بالأصل.

وفي رايي أن السبب المباشر للخلاف الذي وقع بين المسلمين وأدي إلي ظهور الفرق و التيارات المختلفة يكمن في تلك الأمور التي علقت بالعقيدة و اعتبرت بمرور الزمن جزء منها .

إذن ما هي العقيدة..؟ وما الذي علق بها..؟

إن تحديد ماهية العقيدة سوف يحدد تلقائيا ما علق بها. فإذا كان الإيمان هو المصطلح المرادف للعقيدة أو هو التعريف اللغوي الأدق لهذه الكلمة، فقد تبين لنا أن المسألة تتعلق بالأصول، أي أن الاعتقاد يرتبط بالأصول فعلى هذه الأصول يجب أن يثبت العقل ولا يحيد وإلا كان مرتدا. أما ما دون ذلك فهو محل أخذ ورد واتفاق واختلاف وقبول ورفض.

فإذا كان الأمر كذلك فمن يأتي الاختلاف..؟

والجواب: إن الاختلاف يأتي عندما يكون هناك انحراف عن الأصول. أو عند تغليب الفروع على الأصول. أو عند تغليب أقوال الرجال على النصوص وهذا هو جوهر القضية ومحور الصراع وأساس الخلاف.. الفروع وأقوال الرجال..

ولو تجرد المسلمون في خلافاتهم واحتكموا إلى النصوص لحسم الخلاف لكنهم غلبوا الفروع وأقوال الرجال وتناسوا النصوص وهي الأصل فكانت النتيجة هي التباعد وزيادة النفور والشقاق..

وقضية الصراع بين السنة والشيعة هي المثل الساطع على هذا الأمر نتبينه بوضوح عندما نعلم ماهية الأسلحة التي تشهرها السنة في وجه الشيعة وماهية التهم التي تلقى عليها من قبلها..

إن التهمة الأساسية التي توجهها السنة للشيعة على مر الزمان هي فساد العقيدة. فالسنة يعتبرون أنفسهم الفرقة الناجية وما دونهم من الفرق والاتجاهات هلكى لفساد معتقداتهم وفي مقدمتهم الشيعة..

فعلى أي أساس بنت السنة موقفها هذا..؟

إن الإجابة على هذا السؤال تقتضي منا أن نعرف العقيدة في منظور السنة، كما يقتضي منا أن نعرف العقيدة عند الطرف الآخر المتهم وهو الشيعة.. وهذا هو مدار البحث في هذا الكتاب، التعريف بالعقيدة لدى الطرفين ثم الخروج بنتيجة مطلوبة هي مدى قرب عقيدة أي من الطرفين من المفهوم الحقيقي للعقيدة..

وهذه الدراسة المقارنة محاولة لحسم هذا الخلاف بين الطرفين وتحقيق الاستقرار الفكري في الوسط الإسلامي. ذلك الاستقرار الذي ينشده الجميع والذي يعد أولى الخطوات نحو انطلاقة إسلامية ثابتة واعية في وسط عالم سقطت فيه كل الايديولوجيات البشرية ولم يبق في مواجهة الإسلام إلا الصهيونية اليهودية تكشر عن أنيابها وتجهز جيوشها بمشاركة الغرب الصليبي وبعونه ومدده..

وعلى الله قصد السبيل

ومنه التوفيق والسداد

والحمد لله أولا وأخيرا

صالح الورداني

ص. ب. ١٦٣ / ١١٧٩٤

رمسيس

القاهرة

تمهيد

١ ـ العقيدة، محاولة تعريف

العقيدة أنواع، هناك العقيدة السياسية وهناك العقيدة الاجتماعية وهناك العقيدة الدينية..

وما يعنينا تعريفه هنا هو العقيدة الدينية فهي العقيدة التي تقف على رأس هذه الأنواع من العقائد، وهي العقيدة التي كتب لها الديمومة والبقاء من دون بقية العقائد الأخرى.

وإذا كانت العقيدة تنبثق من عمل عقلي اختياري، للرغبة والوجدان دورهما فيه فهي من ثم تعد عقيدة مكتسبة. والانسان مطبوع على أن يعتقد ومهيأ لقبول معتقد ما..

لكن السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: لماذا يختار الإنسان معتقدا دون آخر..؟

البعض يرى الأمر يكمن في الوجدان..

والبعض الآخر يرى الأمر يكمن في العقل..

بينما يرى آخرون أن الأمر يكمن في الإرادة.. [١] .

وقد تكون هذه العوامل الثلاثة مجتمعة لها دورها وتأثيرها في عملية اختيار العقيدة وهي عوامل تختلف من فرد لفرد ومن فئة لفئة..

إلا أن لكل عقيدة خصائصها ومميزاتها التي تجعل منها ذات جاذبية خاصة لمعتنقيها وتدعم موقفهم في الثبات عليها..

---

[١] المختصر في العقيدة والأخلاق للدكتور محمد عبد الرحمن بيصار. ط. القاهرة.

ولا أن ننسى هنا العامل الوراثي والاجتماعي فكلاهما له دوره في شيوع بعض العقائد وتمكنها في نفوس آخرين..

وهنا يطرح السؤال التالي: ما هي الخصائص والمميزات التي تتصف بها عقيدة ما أو التي يجب أن تحتويها عقيدة ما ليمكن وصفها بأنها عقيدة دينية لا سياسية ولا اجتماعية..؟

والاجابة تكمن في أمرين:

الأول: موضوع الاعتقاد وهو الشئ المصدق به أو المعتقد به..

الثاني: حقيقة الإذعان لهذا المعتقد أو ذاك.

أي أن الفاصل ين العقيدة الدينية وغيرها يكمن في الموضوع وهو الصلة بين المتدين وبين الشئ المقدس موضوع الاعتقاد كما يكمن في اختصاصها بالغيب. فالموضوع هو الله. والغيب هو كل ما يتعلق به.. [1] .

وإذا كانت قضية الإيمان بالله هي الركن الأول في العقيدة الدينية فإن الركن الثاني هو الإيمان بالرسول الذي عرفنا بالله وأبلغنا رسالته. فمن البديهيات المعروفة أن العقيدة إنما تصلنا عن طريق الرسل الذين تتركز مهمتهم في إبلاغ العقيدة الإلهية بنصها كما أنزلت عليه. فالرسول لا يملك حق التعبير عن هذه العقيدة إنما يملك حق تفسيرها. والنص الذي يبلغنا هو القرآن بالنسبة لرسولنا صلى الله عليه وآله والتفسير هو السنة..

فإذا ورد حديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله يفسر لنا أمرا من أمور العقيدة قبلناه على أساس أنه تفسير لا على أساس أنه عقيدة لأن الرسول لا يضيف شيئا من عنده إنما يبين للناس ما أنزل إليه..

أما إذا ورد كلام على لسان الرسول يناقض القرآن أو يضيف مفهوما جديدا في الاعتقاد رفضناه على الفور واعتبرناه من الموضوعات على لسان

[1] المرجع السابق..

الرسول لأن الرسول لا يناقض القرآن ولا يضيف عليه ﴿**ما على الرسول إلا البلاغ**﴾..

وهنا تبرز لنا قضية خلافية بارزة بين السنة والشيعة حيث أن السنة تنظر إلى الرسول نظرة والشيعة تنظر له نظرة أخرى. وقد انبنت على هذين الموقفين المختلفين نظرتان مختلفتان إلى الحديث خاصة ما يتعلق منه بالعقيدة حيث ترى الشيعة أن الأحاديث لا مجال لها في الأمور السمعية إنما الحسم فيها للقرآن وحده بينما ترى السنة أن السمعيات يمكن تناولها من الأحاديث على ما سوف نبين فيما بعد، حتى ولو كانت هذه الأحاديث تتناقض مع القرآن.. [1]

والمتأمل في القرآن سوف يكتشف أن لغة القرآن خصت العقيدة باسم (الإيمان) وخصت الشريعة باسم (العمل الصالح) أو (الاستقامة)..

والإيمان لغة هو لتصديق واصطلاحا هو الاعتقاد بكل ما ثبت بالضرورة وقد رأى العلماء أن الإيمان مركب من فروع هي التصديق بالجنان والإقرار باللسان والعمل بالأركان..

وما يطلب الإسلام من المسلم التصديق به كأساس لإيمانه وكمال عقيدته تجمعه كلمة الشهادتين..

ولكن ما هو التصديق..؟ والاجابة التصديق بالله أي معرفة الله (الإلهيات).

والتصديق بالرسول أي معرفة الرسل والملائكة والكتب (النبوات).

والتصديق بالبعث والحساب (السمعيات)..

وهذا هو التصديق الذي يلتزم به جميع المسلمين سنة وشيعة وغيرهما.

هذا هو التصديق الذي يشكل أركان العقيدة الإسلامية..

---

[1] يعتبر أهل السنة الحديث الذي ثبتت صحته عندهم يجب الأخذ به واعتماده حتى ولو كان هذا الحديث يتناقض مع القرآن في هذه الحالة توفيقه معه ما دامت فثبتت صحته بطرقهم..

هذا هو التصديق الذي يفصل بين الكفر والإيمان والحق والباطل والهداية والضلال..

هذا هو التصديق الذي يقوم على النصوص القطعية التي حملها جميع الرسل إلى الشر في كل زمان ومكان..

والسؤال الذي يفرض نفسه هنا هو: إذا كانت الشيعة تشارك السنة في هذا التصديق وتتبنى نفس الاعتقاد الذي تعتقده. فلماذا تتهم بالزيغ والضلال من قبلها..؟

إن الإجابة عن هذا السؤال تكشف منا قضية خطيرة وشائكة وهي تحديد ما علق بالعقيدة الإسلامية على مر العصور حتى اعتبر جزءا منها وأصلا من أصولها وأصبح هو المقياس والفيصل بين الحق والضلال في غيبة النصوص القطعية التي هي الأداة الوحيدة لتمييز الحق من الباطل والهداية من الضلال..

فلو كانت طائفة السنة تصدر أحكاما على الآخرين على أساس النصوص وحدها لبانت الحقيقة وحسم الخلاف. لكن الحقيقة المرة هي أن أحكامها ومواقفها من الشيعة تقوم في أساسها على أقوال الرجال وما خلفته السياسة فبعد أن أضيفت الأحاديث وأقوال الرجال إلى مصادر العقيدة الإسلامية تميعت الأمور وتميعت العقيدة وأصبحت مطية في أيدي القوى الحاكمة تتلاعب بها لتحقيق مصالحها وتقوية نفوذها من أجل إخضاع الجماهير وإسكات الأصوات المعارضة..

ومن انتشرت في المجتمع الإسلامي على مر التاريخ كلمة (زندقة) وأصبح يرمى بها يمينا ويسارا على كل صاحب أو توجه أو معتقد مخالف للإتجاه السائد (عقيدة أهل السنة) وأصبحت هذه الكلمة تضفي مشروعية على أعمال القتل والعزل وتبرر الإطاحة الرقاب.

والتاريخ الإسلامي ملئ بكثير من الأمثلة على ذلك فقد ذبح كثير من الخارجين على الحكام باسم الزندقة واتهمت الحركات الشعبية والانتفاضات

الثورية بالزندقة حتى تعزل عن الجماهير وتعزل الجماهير عنها وتشكك فيها مما يسهل على الحكام تصفيتها والقضاء عليها.. [1] .

وسوف نقدم البرهان على ما نقول من خلال نصوص العقيدة الدخيلة علي أصل العقيدة و من خلال أحداث التاريخ..

إن الإيمان أو التصديق هو التعبير الحقيقي عن العقيدة وهو بأركانه كان يمثل عقيدة الإسلام الصحيحة التي كان عليها المجتمع الإسلامي قبل عصر الترجمات وظهور علم الكلام [2] .

والمشكلة أن القوم لا يريدون العودة لنبع الإسلام الصافي ليتناولوا منه عقيدتهم ويريدون أن يفرضوا على الأمة عقيدة تحمل آثار السياسة وعلم الكلام وأقوال الرجال..

ويريدون أن يجعلوا من هذه العقيدة المشوهة مقياس الحق والباطل والنجاة والهلاك، فمن اعتنقها كان من الناجين ومن خالفها كان من الهالكين..

---

[1] أنظر حركة المختار الثقفي المسماة بحركة التوابين ضد قتلة الحسين عليه السلام والتي شوه صاحبها المختار من قبل السنة وعلى رأسهم ابن تيمية الذي اتهمه بالزندقة / أنظر فتاوى ابن تيمية باب البغاة ح ٢٧..

وانظر حركة زيد بن على ضد هشام بن عبد الملك وكيف شوهت من قبل المؤرخين بتصوير زيد كمنشق على الشيعة وخرج على هشام بسبب منعه العطاء عنه / انظر كتب التاريخ.

وانظر قصة مصرع الجعد بن درهم والحلاج وابن الفارض في كتب التاريخ. وانظر البداية والنهاية لابن كثير، ح ١٤ / ٣١٠. وانظر لنا الكلمة والسيف..

[2] كانت الأمة تتلقى عقيدتها من القرآن مباشرة باستسلام مطلق دون الخوض في الآيات المتشابهات ومعرفة مرادها وما ترمي إليه حتى جاء عصر الترجمات في مط القرن الثالث تقريبا وانفتحت الأمة على تراث اليونان خاصة الفلسفي منه. منذ ذلك الوقت بدأ ظهور علم الكلام. وبدأت العقيدة الإسلامية تأخذ طورا آخر أكثر تعقيدا خاصة فيما يتعلق بالتوحيد. ثم جاءت السياسة وتركت بصمتها عليها فجعلت خط الخلفاء ومنهجهم جزءا من الاعتقاد. كما جعلت الصحابة كلهم عدولا لا يجوز المساس بهم والقدح فيهم وجعلت كل ما وقع من خلاف بينهم وتجاوزات وانحرافات منهم قضايا اجتهادية سوف يثابون عليها وعلى المسلم ألا يخوض في مثل هذه الأمور (انظر كتاب العواصم من القواصم)..

وإذا كان القوم يتبنون عقيدة أهل السنة والجماعة ويعتبرونها عقيدة الفرقة الناجية. فهل لهم أن يخبرونا متى ظهرت هذه العقيدة..؟ [1]

وما هو مصير المسلمين الذين ماتوا قبل ظهورها..؟

لقد اخترعت السياسة الكثير من الأحاديث على لسان الرسول ﷺ والتي تؤكد أن عقيدة أهل السنة هي العقيدة الصحيحة وأن الرسول قد أوصى بها وفي مقدمة هذه الأحاديث حديث تفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، واحدة في الجنة والباقي في النار. وقد فسروا الفرقة الناجية بقولهم هي أهل السنة والجماعة. وقال آخرون هم أهل الحديث.. فهل كان هناك أهل سنة وأهل حديث في زمن الرسول..؟ [2]

وحديث عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي، وعلى أساس هذا الحديث تم إدخال الخلفاء الأربعة في صلب العقيدة وأصبح الإيمان بهم على الترتيب أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي من أسس العقيدة ومن يخالف ذلك فهو ضال مبتدع [3].

---

[1] ظهرت عقيدة أهل السنة في العصر العباسي كرد فعل لحركة الترجمات اليونانية والخوض في الآيات المتشابهة من قبل بعض الفرق والاتجاهات..

[2] هذا الحديث رواه أبو داوود والترمذي وأحمد ولا ذكر له في الصحيحين عند القوم.. راجع كتاب الاعتصام للشاطبي. ويقول الشيخ عبد القادر الجيلاني: أما الفرقة الناجية فهي أهل السنة والجماعة وأهل السنة لا اسم لهم إلا اسم واحد وهو أصحاب الحديث.. ويقول جميل زينو: الفرقة الناجية تعتبر التوحيد وهو إفراد الله بالعبادة والدعاء والاستعانة والاستغاثة وقت الشدة والرخاء والذبح والنذر والتوكل وغير ذلك من أنواع العبادة هو الأساس الذي تبنى عليه الدولة الإسلامية الصحيحة.. ويقول ابن باز: هم السلفيون وكل من مشى على طريق السلف الصالح الرسول وصحابته وكل من سار على نهجهم. انظر منهاج الفرقة الناجية لجميل زينو – ط. السعودية. وهو كتاب يوزع مجانا وحقوق الطبع غير محفوظة..

[3] هذا الحديث رواه الترمذي وتأمل قول صالح بن أحمد بن حنبل: سئل أبي وأنا شاهد عمن يقدم عليا على عثمان. يبدع؟ فقال: هذا أهل أن يبدع. أصحاب الرسول قدموا عثمان وقال عبد الله بن أحمد ابن حنبل: قلت لأبي: من الرافضي؟ قال: الذي يشتم رجلا من أصحاب الرسول أو يتعرض لهم. ما أراه على الإسلام. راجع تاريخ الذهبي ترجمة ابن حنبل. وتأمل قوله ما أراه على الإسلام: فكأن من يمس الصحابة بكلمة يخرج من الإسلام فالصحابة أصبحوا ركنا من أركانه عند ابن حنبل..

إن من السذاجة تصور أن العقيدة الإسلامية لم تمتد إليها أيدي الرجال ولم يصبها أي تشويه أو تحريف إنما حال العقيدة الإسلامية كحال سابقتها من العقائد وهي سنة الأقوام مع الأديان..

وإن المتأمل لقول الرسول ﷺ : لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع.. يدرك هذه العقيدة..

ويمكن للمسلم أن يتأمل كيف يمكن أن تسمى العقيدة الإلهية بأسماء الرجال فتارة يسمونها العقيدة الطحاوية نسبة إلى مؤلفها الطحاوي وتارة يسمونها بالعقيدة الواسطية وهي منسوبة لابن تيمية. وتارة يسمونها بالعقيدة النسفية نسبة لمؤلفها النسفي. [1]

والحق أن هذه الكتب لا تمثل العقيدة الإسلامية في شئ وإنما هي عقيدة محشوة بأقوال الرجال وأثر النصوص فيها قليل.

ويبدو هذا الأمر بوضوح إذا ما تابعنا حركة الاتجاهات العقائدية في دائرة مذهب أهل السنة. فهناك عدة اتجاهات متطاحنة فيما بينها تتصارع حول قضايا كلامية مثل ما يتعلق بالذات والصفات..

وإذا كان القوم صادقين في التزامهم بسنة الخلفاء الراشدين الأربعة فهم في الحقيقة كاذبون لإهمالهم سنة الإمام علي وتركيزهم على سنة الخلفاء الثلاثة فقط.

وهم معذورون في هذا لأن سنة الإمام علي تتناقض مع سنة الثلاثة كما تتناقض أيضا مع الخط السياسي الذي ساد بعد ذلك بزعامة بني أمية وبني العباس، ذلك الخط الذي عمل على محو سنة الإمام علي وتشويه خطه – خط آل البيت – وعزله عن الواقع والجماهير.. وقد بارك أهل السنة هذا الوضع وأكدوا عليه في عقيدتهم بإدخال بني أمية وبني العباس ضمن الأئمة الذين بشر بهم الرسول وضمن الفرقة الناجية..

راجع شرح حديث الأئمة الاثنا عشر في العقيدة الطحاوية ومقدمة كتاب تاريخ الخلفاء للسيوطي.

وراجع أيضا سيرة خلفاء بني أمية وبني العباس في الكتاب المذكور لترى إن كانوا يستحقون لقب أئمة ويكونون من أفراد الفرقة الناجية..

وهناك أحاديث أخرى كثيرة من اختراع السياسة مثل حديث إذا ذكر أصحابي فأمسكوا.. الله.. الله في أصحابي.. انظر لنا: أحاديث نبوية اخترعتها السياسة.

[1] وهناك العقيدة المسماة (بالفقه الأكبر) لأبي حنيفة. وهناك العقيدة الحموية المنسوبة لابن تيمية أيضا.

فهناك اتجاه الحنابلة..

وهناك اتجاه المالكية..

وهناك اتجاه الشافعية..

وهناك اتجاه الأحناف..

وهناك اتجاه الأشعرية..

وهناك اتجاه ابن تيمية المخالف للسلف والخلف حول الأسماء والصفات وغيرها..

وكل اتجاه من هذه الاتجاهات له أطروحته حول العقيدة بالإضافة إلى اتجاه المتصوفة لذي يحمل رؤية مختلفة عن رؤى الآخرين.. وهذا الخلاف إن دل على شئ فإنما يدل على أن محور الخلاف ليس العقيدة وإنما هو أقوال الرجال التي تم حشو العقيدة بها.

إن ما نريد أن نصل إليه هنا هو التفريق بين العقيدة الإسلامية وبين العقيدة الوضعية فلا يجوز الخلط بين الأمرين واعتبار المساس بالجزء الوضعي مساسا بالجزء الإلهي..

وهذا التفريق يقتضي القيام بعملية تشريح لكتب العقائد وفصل الوضعي عن الإلهي منها مستهدين في هذه العملية بالنصوص القطعية من القرآن..

والأصل الأول من أصول العقيدة هو التوحيد (لا إله إلا الله)..

أما الوضعي فهو ما لحق بهذا الأصل من أقوال وتفسيرات خرجت به عن مفهومه الحقيقي وأدت إلى تعقيده.

الوضعي هو تقسيم التوحيد إلى ثلاثة أقسام: توحيد الأسماء والصفات وتوحيد الإلهية أو العبادة ثم توحيد الربوبية. [1]

[1] انظر العقيدة الواسطية والتوحيد لمحمد بن عبد الوهاب ومقالات الاسلاميين للأشعري وانظر لنا فقه الهزيمة. دراسة في أصول الفكر السلفي. فصل العقيدة، وفيه مناقشة واسعة لكتب العقائد..

فمثل هذا التقسيم لا أصل له وليس من الضرورات في الاعتقاد فهو تقسيم فلسفي بحت لا يجوز شغل الناس به [1] .

وهل يعقل أن يقال إن من يموت دون أن يعرف هذه التقسيمات ويعيها يموت على غير التوحيد..؟

وهل من الواجب شرعا أن يعرف المسلم أن الله في السماء مستو على عرشه وأنه ينزل إلى الدنيا كل ليلة. أن القرآن كلام الله غير مخلوق وأن الله له صفات فعلية وصفات ذاتية وغير ذلك من متاهات القول..؟ [2]

إن مثل هذه الأمور الفلسفية التي تكتظ بها كتب العقائد إنما هي موروثات لها ظروفها وزمانها ولا حاجة بأن يشغل بها مسلمو اليوم.

والوضعي هو ربط قضية التوسل والوسيلة والتبرك بآل البيت بالشرك واعتبار هذه الأعمال مناقضة للتوحيد.. فهذا الكلام لم تقم الأدلة على صحته ولم تقل به سوى طائفة شاذة في وسط أهل السنة.. [3] .

---

[1] انشغل معظم المسلمين مع الأسف بهذه الأمور واعتبروها من لب التوحيد حتى الحركات الإسلامية تبنت هذه ا لقضايا وانشغلت بها وتصارعت من أجلها وكل ذلك بتأثير الخط الوهابي السعودي الذي اخترق معظم التيارات الإسلامية العاملة في الحقل الإسلامي..

[2] أهل السنة يعتبرون من لا يفسر آيات الصفات ويقر بأن الله له يد ولكن ليست كيدنا وأنه له وجه ولكن ليس كوجهنا وأنه مستو على العرش فوق لا كفوقية المخلوق على المخلوق وأنه يضحك ويفرح.. وكذا.. يعتبرونهم معطلة. أي يعطلون الصفات عن معناها. تأمل..

ويذكر أن تلك المتاهات حول ذات الله وصفاته سبحانه إنما نابعة من أحاديث اعتمدها أهل السنة في تفسير الآيات المتعلقة بهذه القضية وهي في مجملها أحاديث آحاد لا تفيد إلا الظن والواجب في باب الاعتقاد وهو اليقين. وهذا قول لا يرضي أهل السنة المعاصرين إذ يعتبرون من يتشدق بأن الأحاديث التي يستند عليها في باب العقائد هي أحاديث آحاد. يعتبرونه من أهل البدع والأهواء..

[3] هناك الكثير من النصوص القرآنية والنبوية التي يستند إليها أصحاب هذا الاتجاه المعادي لقضية التوسل وهي نصوص ظنية يستنتج منها هذا الموقف، وعلى الجانب الآخر هناك الكثير من النصوص والقضية محل جدل وخلاف في دائرة أهل السنة وليست محسومة. فالصوفية ومن ناصرها من الفقهاء يؤمنون بالتوسل ولا يوجد ما يشير إلى رفضها من قبل المذاهب الأربعة كما أن قضية الأضرحة والقبور لم تكن مطروحة في عصر الصحابة والتابعين وحتى تابعي التابعين.

والواضح أن الذين أثاروا هذه القضية وربطوها بالتوحيد هم فئة شاذة في الوسط السني تمثلت في خط ابن تيمية الذي قام ببعثه وتجديده في عصرنا محمد عبد الوهاب..

والأصل الثاني من أصول العقيدة النبوة (محمد رسول الله)..

أما الوضعي فهو ما ألحقوه بشخصية الرسول من تعريفات مثل أن العصمة في جانب التبليغ فقط أما بقية مواقفه وممارساته فلا تخضع للعصمة وأنه ينسى ويجتهد ويخطئ ويسحر وينشغل بالنساء ويخضع لرأي عمر في جانب التشريع وأن القرآن كان يتنزل على مواقف عمر وآرائه..[1] .

ومثل هذه المقولات إنما فيها مساس بشخص الرسول ﷺ وإظهاره بمظهر النبي العاجز المتناقض وهي من الممكن أن تفتح باب التشكيك في رسالته وهي في الأصل نابعة من أحاديث وروايات اخترعتها السياسة بهدف تشويه صورة الرسول ومساواته ببقية الناس حتى يسهل على الحكام تبرير أفعالهم وممارساتهم وانحرافاتهم على حساب الرسول ﷺ ..

أما الأصل الثالث من أصول العقيدة والمتعلق بالمعاد أي البعث والحساب والجنة والنار فقد علقت به كثير من الروايات المنسوبة للرسول والتي يعد بعضها من الخرافات وبعضها بمثابة صكوك غفران للجميع دخول الجنة والنجاة من النتر دون أي تبعات[2] .

---

[1] يرى أهل السنة أن العصمة الخاصة بالرسول هي في جانب التبليغ فقط وفيما دون ذلك فالرسول فالرسول غير معصوم، وبدا وكأن الرسول بذلك له شخصيتان:

شخصية معصومة وشخصية غير معصومة. ولذلك جوزوا عليه الخطأ والنسيان والسحر كما ورد في البخاري. وجواز لعمر توجيه الرسول وتذكيره بالأحكام ليتنزل القرآن تأييد العمر لا للرسول كما في آيات الحجاب حين طلب عمر من الرسول أن يحجب نساءه فنزلت آيات الحجاب. راجع البخاري. وراجع لنا فقه الهزيمة فصل شخصية الرسول. وانظر لنا دفاع عن الرسول.

[2] من هذه الأحاديث المنسوبة للرسول صلى الله عليه وآله: من قال لا إله إلا الله دخل الجنة.. أنا زعيم ببيت في الجنة لمن ترك المراء ولو كان محقا.. من بنى مسجدا بنى الله له بيتا في الجنة.. وغيرها من الأحاديث التي تصف الجنة وحور العين دون أن تبين كيفية دخولها. بل تفتح للناس أبوابها دون قيد أو شرط ودون تكلف أو مشقة أو بذل في سبيل الله. ومثل هذه الأحاديث قد دفعت المسلمين إلى التواكل وإهمال التكاليف الأساسية في الإسلام.

واستثمرت من قبل الحكام في تخدير الجماهير واستضعافها.

وكان الهدف من اختراع هذه النصوص هو تمييع صورة الإسلام في نفوس الجماهير وتخديرها ودفعها للزهد في الدنيا كي يرتع فيها الحكام..

ولا تزال هذه الأحاديث تؤدي دورها في تخدير الجماهير وتضليلها حتى اليوم خاصة تلك أحاديث التي تتعلق بطاعة الحكام منها.. [1] .

ولم تقف عقيدة أهل السنة عند حد هذه الأصول الثلاثة أي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر بل أضافت الإيمان بالقدر خيره وشره مع أنه يدخل ضمنا مع الإيمان بالله وأضافت فوق ذلك عدة أمور جعلتها من صلب العقيدة وحوتها كتب العقائد وهي جميعها ثابتة الإجماع عندهم وهذه الأمور هي:

الاعتقاد بعدالة جميع الصحابة.. [2] .

انظر الطريق إلى الجنة من سلسلة " السلفيون يتحدثون " تأليف أبو بكر الجزائري وهو واحد من رموز الخط الوهابي السعودي. وانظر كم الكتب التي تتحدث عن الجنة ونعيمها التي أغرق بها سوق الكتاب المعاصر..

ويحدد الجزائري الطريق إلى الجنة بقوله: إن الطريق أيها السائرون بين أربع كلمات: اثنتان سالبتان واثنتان موجبتان. إن السالبتين هما الشرك والمعاصي والموجبتين هما الإيمان والعمل الصالح.

ومن هذه الكلمات الأربع يتكون الطريق القاصد إلى الجنة. وبالطبع المقصود بالشرك والمعاصي التي تحرم المسلمين من دخول الجنة هنا هو التوسل بآل البيت وزيارة المراقد المقامات المطهرة.

أي أن الجنة لن يدخلها مسلم لا ينتمي للمذهب الوهابي رأس الطائفة الناجية في هذا الزمان..

وأود بمناسبة ذكر الفرقة الناجية من أهل السنة أن يخبرونا هل معنى أنهم الفرقة الناجية أنهم لن يدخلوا النار. أم سوف يدخلونها ولن يخلدوا فيها.. وإذا كانت هناك روايات تؤكد الشفاعة يوم القيامة. فهل الذين سوف يشفع لهم من أهل السنة أم من الفرق الأخرى..؟

وإن كانوا من الفرق الأخرى أفلا يعني هذا أن النجاة من النار سوف تشمل المخالفين لهم..؟

وعليهم أن يخبرونا أيضا هل هؤلاء الحكام الذين تبنوا عقيدة أهل السنة وناصروها من الناجين رغم مفاسدهم وجرائمهم وانتهاكاتهم لحرمات الإسلام؟

إن موقف أهل السنة من يزيد والحجاج يجيب على هذا السؤال.

[1] أنظر فصل الإمامة عند أهل السنة من هذا الكتاب..

[2] يصر أهل السنة على عدالة جميع الصحابة وهذا الإصرار تفوح منه رائحة السياسة ففضلا عن كون هذا المعتقد يخالف القرآن الذي ينص على أن من بين الصحابة منافقين وعصاة. وعلى الرغم من أن تعريف الصحابة عندهم تعريف هش ومطاط يتيح الفرصة لكل من هب ودب ليكون صحابيا

* الاعتقاد بنقصان الإيمان وزيادته..[1] .

* الاعتقاد بعدم كفر أهل القبلة بمطلق المعاصي والكبائر..[2] .

* الاعتقاد بأن خير الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي..[3] .

* الاعتقاد بحب آل البيت..[4] .

يحوز على مرتبة العدالة وذلك بمجرد أن يرى الرسول أو يسلم عليه أو حتى يولد في عصره وحسب القاعدة: من ثبتت رؤيته ثبتت عدالته.. ويصر ابن تيمية على إضفاء صفة العدالة على جميع الصحابة دون حتى أن يفرق بين من شاهد بدرا ومن رأى الرسول ساعة من الزمان. يقول في العقيدة الواسطية: ومن أصول أهل السنة والجماعة سلامة قلوبهم وألسنتهم لأصحاب رسول الله (ص) ويتبرؤون من طريقة الروافض الذين يبغضون الصحابة ويسبونهم. وبالطبع المقصود بالروافض هنا الشيعة.

[1] وهذه القاعدة إنما هي رد فعل فرقة السنة في مواجهة أقوال الفرق الأخرى في مسألة الإيمان..

[2] نفس هذه المسألة عليها حالة المسألة التي سبقتها وقد ابتدعت للرد على فرقة الخوارج التي كانت تكفر بالمعاصي..

[3] هذه من القواعد التي ابتدعتها السياسة ويعتبرونها متواترة نقلا وعلى لسان الإمام علي.. يقول ابن تيمية في عقيدته مسألة عثمان وعلي – أي أيهما يقدم على الآخر – ليست من الأصول التي يضلل المخالف فيها عند جمهور أهل السنة – تأمل هذا التنازل في الاعتقاد – لكن التي يضلل فيها مسألة الخلافة. وذلك أنهم يؤمنون أن الخليفة بعد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أبو بكر وعمر ثم عثمان ثم علي. ومن طعن في خلافة أحد من هؤلاء فهو أضل من حمار أهله. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا من الذي يملك حق التضليل وعلى أي أساس؟ والاجابة هم أهل السنة وعلى أساس السياسة يضلل المخالف لهم والحمد الله أن المخالف لم يخالف الإسلام وإنما خالف فرقة أهل السنة الذين يتحدثون على الدوام وكما هو واضح من كتب العقائد – على أنهم الإسلام والإسلام هم..

[4] وهذه المسألة وضعت خصيصا في عقائد أهل السنة لضرب الشيعة التي تعلن حبها لآل البيت وتواليهم وتتبرأ من أعدائهم – وتفويت الفرصة عليهم.. ولو لم يتستر أهل السنة بحب آل البيت لتعرت عقيدتهم ونبذتها الجماهير. والفرق بين السنة والشيعة في هذه المسألة هو أن أهل السنة يحبون آل البيت ولا يعرفونهم وبالطبع لا يتبعو نهم بينما الشيعة يعرفونهم ويتبعونهم ويتخذونهم قدوة لهم. ويقول ابن تيمية: يحبون – أهل السنة – أهل بيت الرسول (ص) ويتولونهم ويحفظون فيهم وصية رسول الله حيث قال يوم غدير خم (أذكركم الله في أهل بيتي).. والطريف هنا أن ابن تيمية يعترف بوصية الرسول للأمة في حجة الوداع بضرورة اتباع أهل بيته وموالاتهم وهو ما تعتقده الشيعة. لكن السؤال الذي يوجه لابن تيمية هنا هو: هل التزمت الأمة بهذه الوصية بعد وفاة الرسول حتى يستطيع الادعاء بأن أهل السنة يحبون أهل البيت ويوالونهم وأين فقه أهل البيت وعلومهم وأحاديثهم عندهم..؟ انظر العقيدة الواسطية..

* الاعتقاد بكرامات الأولياء..[1] .

* الاعتقاد بطهارة أزواج النبي وموالاتهم..[2] .

* الاعتقاد بطاعة الأمراء أبرارا وفجارا والحج والجهاد والصلاة معهم..[3] .

* الاعتقاد بحرمة الخوض فيما شجر بين الصحابة..[4] .

---

[1] هذا اعتراف من أهل السنة ومن ابن تيمية بمسألة الكرامات التي تنادي بها وتعتقدها الشيعة والصوفية وتتهمان بالزندقة بسببها، يقول ابن تيمية: ومن أصول أهل السنة التصديق بكرامات الأولياء وما يجري الله على أيديهم من خوارق العادات. إلا أن المضحك في هذا الأمر أن شارح العقيدة الواسطية استدرك على ابن تيمية قائلا: إن الكرامة إنما تكون لأولياء الله بحق. وليس للطرق الصوفية المبتدعة الذين وصفهم بقوله هؤلاء أولياء الشيطان. ويبدو أن أهل السنة أرادوا أن يفرقوا على خصومهم الفرصة بالاعتراف بمسألة الكرامات التي لها شواهد كثيرة في الكتاب والسنة والواقع. وحتى لا يتهموا بسطحية الاعتقاد..

[2] يقول أهل السنة: إن أفضل أزواج النبي خديجة وعائشة. ولولا الشك والملامة لقالوا عائشة وحدها لكنهم ربطوا عائشة بخديجة حتى يبتلع المسلم الطعم. والثابت أنه لا توجد رواية صحيحة عن النبي تساوي عائشة بخديجة وترفعها فوق زوجات النبي الأخريات لكنها السياسة التي رفعت عائشة لأنها من خصوم علي كما رفعت ابن عمر وأبو هريرة على أبي ذر وعمار وسلمان أتباع الإمام علي..

[3] هذه قضية من الأجدر أن تترك بدون تعليق فهي واضحة وضوح الشمس وهي تفسر لنا بما لا يدع مجالا للشك موقف أهل السنة المتحالف والمتعايش على الدوام مع الحكام الأمر الذي يدل على أن عقيدة أهل السنة عقيدة حكومية. وقضية طاعة الحكام والحج والصلاة والجهاد معهم رغم فجورهم يقول بها ابن تيمية الذي يصورونه بالفقيه الثائر ضد السلطة. راجع العقيدة الواسطية وراجع أيضا الفتاوى الكبرى له أيضا حيث هاجم الحسين لخروجه وأثنى على يزيد بن معاوية وأنكر الروايات التي تطعن فيه.. (الفتاوى ح ٢٧ باب البغاة..

[4] يعتقد أهل السنة بتكميم الألسنة والأفواه والإعراض عن حركة التاريخ وعدم الخوض في أحداثه التي تتعلق بالصحابة لأن ذلك سوف يفتح باب الفتنة في زعمهم والفتنة المقصود بها الخوض في الصحابة واتخاذ موقف من بعضهم أو الميل إلى جانب أحدهم والانحراف عن الآخر فهده أمور تعد من القواصم كما يعبر عنها صاحب كتاب العواصم من القواصم الذي كتبه خصيصا لهذا الغرض السامي. وكما يعبر ابن تيمية في عقيدته حيث يقول:
ويمسكون عما شجر بين الصحابة – أي أهل السنة – ويقولون إن هذه الآثار المروية في مساويهم منها ما هو كاذب ومنها ما قد زيد فيه ونقص وغير عن وجهه والصحيح منه هم فيه معذورون إما مجتهدون مصيبون وأما مجتهدون مخطئون وهم مع ذلك لا يعتقدون أن كل واحد من الصحابة

إن الباحث في عقائد السنة وعقائد الشيعة سوف يجد أن البعد شاسع بين الطرفين وأن مسألة الخلاف بينهما ليست سطحية كما قد يتصور البعض وإنما هي عميقة وعميقة جدا أيضا..

وهذا القول لا يرضي دعاة الوحدة والتقريب من الطرفين لكنها الحقيقة التي يجب أن يدركها الجميع: المسلمون.

الباحثون

دعاة الوحدة الإسلامية

فالباحثون يجب عليهم أن يدركوا أن الحقائق العلمية يجب أن تعرض كما هي بتجرد دون مواربة ولا تحيز.

ودعاة الوحدة يجب عليهم أن يعلموا أن الوحدة لا تقوم إلا على أساس قاعدة فكرية ثابتة ولا تهزها رياح السياسة..

معصوم عن كبائر الإثم وصغائره. بل يجوز عليهم الذنوب في الجملة ولهم من السوابق والفضل ما يوجب مغفرة ما يصدر عنهم إن صدر، حتى أنهم يغفر لهم من السيئات ما لا يغفر لمن بعدهم لأن لهم من الحسنات التي تمحو السيئات ما ليس لمن بعدهم.. ثم إذا كان قد صدر من أحدهم ذنب فيكون: قد تاب منه..

أو أتى بحسنات تمحوه..

أو غفر له بفضل سابقته..

أو بشفاعة الرسول صلى الله عليه وآله..

أو ابتلى ببلاء في الدنيا كفر به عنه..

فإذا كان هذا في الذنوب المحققة فكيف الأمور التي كانوا فيها مجتهدين إن أصابوا فلهم أجران وإن أخطأوا فلهم أجر واحد والخطأ مغفور..

إن أقل إعمال للعقل في هذا الكلام سوف يصل بصاحبه إلى القناعة بعصمة جميع الصحابة كبيرهم وصغيرهم على السواء وهم ألوف مؤلفة.. وإذا كان الأمر كذلك فلماذا يحكمون بضلال الشيعة لأنها تقول بعصمة اثني عشر إماما فقط وليس ألوفا من الخلق فيهم الحابل والنابل وفيهم من تدل الشواهد على فسقه وفجوره؟ إذا كان أهل السنة يعتبرون من تسبب في مصرع آلاف المسلمين في وقعة الجمل أو في وقعة صفين مجتهدا مأجورا فلماذا لا يعتبرون الذي يخالفونهم هذا الاعتقاد مجتهدين؟ لماذا يتسامحون مع مريقي الدماء ولا يتسامحون مع مخالفيهم في الفكر..؟ والجواب لأن هؤلاء صحابة والصحابة معصومون يفعلون ما يشاؤون ومغفور لهم مقدما. إنني لا أجد تعبيرا أشخص به هذه الحالة سوى قولي إنها عبادة الرجال. انظر الباب الأخير من الكتاب..

وتجارب الوحدة السابقة يجب أن توضع نصب أعينهم وهي تجارب على ما تشير الوقائع فاشلة والسبب أن هناك سوء تفاهم لدى الطرفين كل بالآخر..

ولقد كانت القاعدة الإسلامية في مصر متحالفة تماما مع الثورة الإسلامية في بدايتها وتعتبر الإمام الخميني قائدها ولكن بمجرد أن فجر أعداء الإسلام نقاط الخلاف وكشفوا مواقف الشيعة من الصحابة سرعان ما تبدد هذا التحالف وتلاشى التأييد وانقلب الموقف من موالاة إلى معاداة.. [1] .

والمسلمون من حقهم أن يطلعوا على الحقائق بأسانيدها حتى تتضح الرؤية أمامهم ويملكوا القدرة على اتخاذ القرار المناسب..

نعم إن الشيعة تشترك مع السنة في الأصول كما ذكرنا لكن السنة لا تكتفي بذلك بل تريد من الشيعة أن تتنازل عن موقفها من الإمامة واعتبارها أصلا ينبني عليه شتى الموقف الأخرى التي تتبناها تجاه الصحابة وتجاه أهل البيت.

السنة نريد من الشيعة أن تعترف بالخلفاء الثلاثة وتقر بكل ما جاء في عقيدتها من أقوال واجتهادات ابتدعتها السياسة وإلا فهي ضالة مبتدعة..

والشيعة من جانبها تريد من السنة أن تحترم اجتهاداتها وتعذرها في مواقفها كما عذرت معاوية ويزيد وبررت جنايتهما وجرائمهما في حق الإسلام والمسلمين.. [2] .

لماذا تشدد السنة في قضية الصحابة وتعتبرها فيصلا بين الحق والباطل هل الصحابة ركن من أركان الإسلام. أم هي عبادة الرجال؟

أم أن عقيدة أهل السنة يرتبط وجودها ومستقبلها بالرجال..؟

---

[1] راجع لنا حقيقة هذا الموقف بتوسع في كتابنا: الحركة الإسلامية في مصر.

وكتابنا الشيعة في مصر ط. القاهرة.

[2] راجع كتب التاريخ وخاصة كتاب البداية والنهاية لابن كثير وانظر كيف يدافع القوم عن معاوية وولده. وتأمل دفاع ابن كثير عن يزيد بعد موقعة الحرة عام ٦٢ م والتي استباح فيها جيش يزيد مدينة الرسول. وانظر دفاع ابن تيمية عنه في الفتاوى الكبرى وكذلك ابن خلدون في مقدمته.

أن أصل الامامة الذي تعتقده الشيعة يضع الطرف الاخر السني في موقف حرج شرعا لكثرة النصوص التي تعضده والتي لا يتسلح الطرف السني في مواجهتها بنصوص مثلها وأنما يتسلح بالتأويل والتبرير.. [1] .

وليس من المعقول أن يتم التنازل عن قضية تعضدها النصوص ويتم تبني قضية اخترعتها السياسة وخلقتها مخيلة الرجال من أجل تحقيق التقارب والوحدة.

فإن تحقيق الوحدة والتقارب لا يكون أبدا على حساب النصوص..

من هنا تصبح مسألة الخلاف بين السنة والشيعة مسألة شائكة جدا وليس هناك من وسيلة وسيلة لحسمها سوى عذر كل طرف للآخر..

إلا أن التاريخ يحدثنا أن السنة لم تعذر الشيعة ورفضت على الدوام التعايش معها وقادت حملات الهجوم والطعن والتشويه والتشكيك في مواجهتها بينما التزمت الشيعة أمامها موقف الدفاع.. [2] .

---

[1] التأويل والتبرير سلاح أهل السنة الدائم في مواجهة الخصوم الذين يشهرون في وجوههم النصوص. فهم قد برروا أفعال عائشة وعثمان ومعاوية وابن العاص والمغيرة بن شعبة واعتبروهم مجتهدين مثابين. ومن جهة أخرى قاموا بتأويل النصوص الواردة في آل البيت والتي أثبتت لهم خصوصية ومكانة تقتضي من المسلمين أن يتبعوهم ويوالوهم ويقروا لهم بالإمامة.. ومن هذه النصوص قوله تعالى: (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا..) الأحزاب. وقول الرسول صلى الله عليه وآله: (تركت فيكم ما أن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبدا كتاب الله وعترتي أهل بيتي..) رواه مسلم..

ويمكن مراجعة النصوص بتوسع في كتاب المراجعات للسيد عبد الحسين شرف الدين وكتاب خصائص الإمام علي للنسائي. وكتاب فضائل الإمام علي للشيخ محمد جواد مغنية وكتابنا موسوعة آل البيت..

وبالنسبة لقضية التأويل التبرير راجع كتاب العواصم من القواصم وتأمل كيف أنهم يريدون تحويل آرائهم لمعتقدات. وانظر لنا كتاب أهل السنة شعب الله المختار..

[2] لم تتح للشيعة فرصة البروز الرسمي كما أتيحت للسنة. فقد كان أهل السنة محل رضا الحكام وقبولهم. ولم تستمتع الشيعة بنعمة الأمن كما استمتعوا. فقد كانت تواجه على الدوام بالحديد والنار وتواجه كل صور البطش والكيد والتنكيل من قبل الحكام الذين كان يحرضهم أهل السنة تارة ويحرضون هم أهل السنة تارة أخرى. والتراث السني مكتظ بعشرات الكتب التي تهاجم

وحتى موقف الدفاع يشجب من قبل السنة ويحمل على أنه تقية. فإذا اتهمت السنة الشيعة أن لديها قرآنا سريا وأنها لا تعترف بالقرآن الذي بين أيدي المسلمين. ونفت الشيعة هذا الاتهام قالوا إنها تفعل ذلك على سبيل التقية فالثابت لدى أهل السنة أن الشيعة يظهرون الإسلام ويبطنون الزندقة.

وطائفة مثل هذه تقوم عقائدها وأفكارها على أساس الشك في أفكار وعقائد الآخرين واعتقاد سوء النية مقدم عندها كيف لها أن تتحد مع الآخرين وتتفاعل معهم..؟

أن المقارنة التي سوف نبدأ عرضها هنا سوف تكشف الكثير من الحقائق حول معتقدات السنة والشيعة. ومن خلال هذه الحقائق سوف تتبين لنا إمكانية اللقاء بين الطرفين..

وعلينا أن نحدد بداية مجموع القضايا التي سوف يتم المقارنة بينها وهي تنحصر في الآتي:

- التوحيد..
- النبوة..
- الإمامة..
- الرجال..
- آل البيت..

الشيعة وتطعن في عقائدهم والتي هي محل تداول بين المسلمين اليوم كما أن التراث الشيعي يكتظ بعشرات الكتب التي تدافع عن الشيعة والتي اعتبرها السنة تهاجمهم..

ومن كتب السنة التي تهاجم الشيعة: كتب الفرق والصواعق المحرقة لابن حجر الهيثمي. وكتب العقائد وكتاب منهاج السنة لابن تيمية الذي يرد فيه على كتاب منهاج الكرامة للعلامة الحلي أحد فقهاء الشيعة المعاصرين له..

ومن كتب الشيعة التي تدافع: كتاب نهج الحق وكشف الصدق للعلامة الحلي. وكتاب الايضاح لابن شاذان – ط. إيران..

ومن الكتب المعاصرة: هوية التشيع للشيخ الوائلي وأصل الشيعة وأصولها والمراجعات وشبهات حول الشيعة وفي ظلال التشيع وروح التشيع.. ط. بيروت..

٢- تاريخ السنة والشيعة

السنة حاضرة والشيعة غائبة..

هذه الجملة تلخص لنا حركة التاريخ الخاص بالسنة والشيعة..

السنة كانت دائمة الحضور وقد منحت الفرصة كاملة للبروز والانتشار..

والشيعة كانت دائمة الغياب بفعل الحصار والبطش والارهاب..

لأن السنة كانت على وئام مع الحكام وتدين لهم بالسمع والطاعة برهم وفاجرهم فقد منحت حرية الدعوة وشرعية التواجد..

ولأن الشيعة تحمل راية أهل البيت الذين يخشاهم الحكام وتدين بالطاعة والولاء لائمتهم الأطهار لم تنل رضا الحكام وأخرجت من دائرة الإسلام فغابت عن الأنام..

ولأن السنة كانت ظاهرة فقد أصبحت معروفة..

ولأن الشيعة كانت غائبة قفد أصبحت مجهولة..

ولكون الشيعة خصم للسنة غائب عن الأنظار فقد كثرت من حوله الشائعات ولفت له شتى الاتهامات التي تحولت بمرور الزمن إلى حقائق بنيت على أساسها مواقف ودانت بها مذاهب وصاحب الحق غائب..

هكذا يجسم لنا التاريخ قضية السنة والشيعة وكيف تحولت إلى لعبة سياسية في أيدي حكام بني أمية وبني العباس وسائر الحكام..

وسوف تستمر السنة أداة الحكام على مر الزمان في مواجهة الشيعة وبدونها لن يجدوا الشرعية التي تبرر استمرارهم في الحكم..

والسنة بدورها سوف تظل تتحصن بالحكام وتستمد منهم القدرة والدعم على مواجهة الشيعة والاستمرار في الصدارة..

السنة تحتاج إلى الحكام. والحكام يحتاجون إلى السنة، تحالف مصيري دائم.

والضحية هي الشيعة..

من هنا يبدأ تاريخ السنة والشيعة، وهنا ينتهي..

كيف نشأت فرقة أهل السنة؟:

كان المسلمون في العصر الأول لا يخوضون في الآيات المتشابهة ويعتنقدون بها كما هي من دون تساؤلات أو استفسارات عن المراد منها أو ما ترمي إليه، وقد امتد هذا العصر حتى مطلع القرن الثالث من الهجرة..

وحتى هذه الفترة لا نستطيع القول إنه كانت هناك عقيدة مدونة..

إلا أن الأمر اختلف بعد عصر الترجمات وانفتاح الأمة على تراث اليونان. عند ذلك بدأ الصدام الفكري بين المسلمين حول الآيات المتشابهات. وهناك قطاع من الفقهاء توقف عن الخوض في هذه الآيات مثل مالك.. [١] .

ولقد جنت هذه الترجمات على الأمة وعلى عقيدتها وعلى عقول المسلمين حيث كان الغالبية من المترجمين من اليهود والنصارى وشابت هذه الترجمات الأخطاء والتناقضات والتحريفات.

في ظل هذا الجو نشأ ما سمي علم الكلام وهو علم خاص بالعقيدة وقد نشأ كرد فعل لخوض الفلاسفة والمتكلمين في الآيات المتشابهات.. إلا أنه لم يحظ بتأييد أهل العلم من المذاهب الأربعة وغيرهم..

وإذا كانت هناك ثلاثة اتجاهات في الساحة الإسلامية هي اتجاه الشيعة واتجاه الخوارج ثم الاتجاه الرسمي الحكومي قبا عصر الترجمات وظهور علم الكلام – فقد ظهر على الساحة بعد عصر الترجمات عشرات الاتجاهات المتناحرة فيما بينها وفي مقدمتها المشبهة والمعطلة..

---

[١] انظر فصل التوحيد عند أهل السنة، وانظر كتب الفرق..

ويبدو أن هذه الاتجاهات التي استثمرت المنطق والفلسفة في إجراء عملية تحرر في طريقة التفكير الإسلامي قد استفزت الحكام الذين خشوا من أن تأخذ هذه الاتجاهات امتدادها في الوسط الجماهيري.. [1] .

وهنا برزت الحاجة إلى ظهور اتجاه جديد يواجه هذه الاتجاهات ويحد من انتشارها ويعزل الجماهير عنها. فكان أن ظهر اتجاه أهل السنة في البداية على يد أحمد بن حنبل والحنابلة من بعده ثم تطور بعد ذلك على يد الأشعري الذي انشق عن المعتزلة بعد أن قضى أربعين عاما يدعو لاتجاههم... [2] .

ثم ظهر في نقس الفترة اتجاه الماتريدي ليشكل مع الأشعري جناحا أهل السنة في العصر العباسي الملئ بالصراعات الفكرية والعقائدية وليصبح هذا الاتجاه هو الاتجاه السائد، اتجاه الأغلبية من المسلمين. بينما أصبحت الاتجاهات الأخرى محصورة في زاوية مظلمة من زوايا المجتمع يتبعها الأقلية من الناس..

ولعل مثل هذه الطفرة أو القفزة الفكرية لأهل السنة فوق الاتجاهات الأخرى تفرض سؤالا هاما هو كيف لاتجاه ناشئ جديد أن يسود وينتشر على حساب اتجاهات ذات وجود وعمق تاريخي مثل الشيعة والمعتزلة وفي فترة قياسية..

---

[1] كان كثيرا ما يلجأ الحكام لعلماء السنة طلبا للفتوى وإصدار الردود على مثل هذه الاتجاهات خاصة اتجاه آل البيت. انظر العواصم من القواصم لأبي بكر العربي وهو كتاب كتب خصيصا بتوجيه الحكام لمنع الخوض في خلافات الصحابة وانحرافاتهم وانظر تاريخ الخلفاء للسيوطي وانظر كتب الأشعري وردود ابن تيمية على خصومه وتحريضه الحكام على الخالفين لأهل السنة وتحريض الحكام له على المخالفين. راجع الفتاوى الكبرى له. وانظر كتب التاريخ، وانظر الحروب الفكرية التي كانت سائدة بين أهل السنة وخصومهم وكيف استثمرها الحكام، وكيف دعم الحكام التيار الأشعري.

وانظر الحرب العقائدية بين الدولة العباسية السنية والدولة الفاطمية الشيعية وكيف استثمر العباسيون فقهاء السنة في هذه الحرب. راجع لنا: الشيعة في مصر وانظر دور المتوكل العباسي في دعم أهل السنة والبطش بالمخالفين. وانظر لنا أهل السنة شعب الله المختار.

[2] انظر تاريخ الفرق عند أهل السنة. وانظر دراسات في العقيدة الإسلامية لمحمد جعفر شمس الدين..

إن الإجابة على هذا السؤال تكمن في عدة عوامل:

أولا: اندماج هذا الاتجاه في إطار المذاهب الأربعة المنتشرة بين المسلمين وتحركه من خلالها وتحت لافتتها.. [1].

ثانيا: دعم الحكام لهدا الاتجاه وتيسير السبل أمامه.. [2].

ثالثا: ضرب الاتجاهات الأخرى وإجهاضها.. [3].

ورغم قوة ونفوذ أصحاب المذاهب الأربعة الذين أعلنوا خلافهم مع الأشعري إلا أنهم لم يحولوا دون انتشار هذا الاتجاه ولم يعرقلوا مسيرته مما يثير علامات حول هذا الموقف..

أما عن طبيعة الخلاف بين فقهاء المذاهب الأربعة وبين الأشعري فهذا ما سوف نستعرضه عند الحديث عن التوحيد عند أهل السنة..

ويبدو أن اتجاه الماتريدي قد حاز رضى وقبول فقهاء عصره أكثر من اتجاه الأشعري لكونه أكثر اقترابا من النقل وأبعد عن العقل بينما اتجاه الأشعري يقوم على العقل والنقل وتارة يغلب العقل على النقل وتارة يغلب النقل على العقل، والظاهر من تتبع حركة نشأة فرقة السنة أنها لم تظهر على هيئة كيان واحد وفي فترة زمنية محددة كما هو حال الشيعة والمعتزلة والخوارج. إنما ظهرت تارة على يد أحمد بن حنبل في القرن الثالث. وتارة على يد الأشعري والماتريدي في القرن الرابع. وتارة على يد ابن تيمية في القرن الثامن..

التيار الأول تيار ابن حنبل كان يتوقف عن الخوض في هذه المسائل وقد نبذ علم الكلام.

---

[1] تبنى كثير من الفقهاء مذهب الأشعري كالغزالي والجويني والباقلاني والرازي والبغدادي.

[2] أنظر كتب الفرق ودراسات في العقيدة الإسلامية، وكتب التاريخ

[3] أنظر المراجع السابقة، وانظر لنا الكلمة والسيف.

والتيار الثاني تيار الأشعري خاض في الأسماء والصفات واستفز الأطراف الأخرى.

أما تيار ابن تيمية فقد حاول التحرر من الأطر السابقة فوقع في التشبيه والتجسيم.

ثم ظهر بعد ذلك التيار الصوفي وتبنى نهجا مخالفا لهذه التيارات..

وهذه التيارات الأربعة المختلفة فيما بينها تحمل شعار أهل السنة وتزكي كتب الفقه والعقائد الصادرة عن هذه التيارات مفهوم الفرق بينها.. [١] .

ويحاول البغدادي الخروج من هذا التناقض محاولا شرح عقيدة أهل السنة معددا أصنافهم بقوله:

أولا: من أحاطوا العلم بأبواب التوحيد والنبوة وأحكام الوعد والوعيد والثواب والعقاب وشروط الاجتهاد والإمامة والزعامة وسلكوا في هذا النوع من العلم طرق الصفاتية من المتكلمين الذين تبرأوا من التشبيه والتعطيل ومن بدع الرافضة والخوارج وسائر أهل الأهواء الضالة..

ثانيا: أئمة الفقه من أهل الرأي والحديث الذين تبرأوا من القدر والاعتزال.

وأثبتوا رؤية الله بالأبصار من غير تشبيه ولا تعطيل وسائر العقائد في الخلفاء وطاعة الأمراء والمسح على الخفين وتحريم المتعة ووقوع الطلاق الثلاث..

ثالثا: الذين أحاطوا عما بطرق الأخبار والسنن المأثورة عن النبي صلى الله عليه وآله وميزوا بين الصحيح والسقيم منها وعرفوا أسباب الجرح والتعديل ولم يخلطوا علمهم ذلك بشئ من بدع أهل الأهواء الضالة..

رابعا: الذين أحاطوا علما بأكثر أبواب الأدب والنحو والتصريف ولم يخلطوا علمهم بشئ من يدع القدرية أو الرافضة أو الخوارج..

---

[١] أنظر فصل التوحيد..

خامسا: الذين أحاطوا علما بوجوه قراءات القرآن ووجوه تفسير آياته وتأويلها وفق مذهب أهل السنة دون تأويلات أهل الأهواء الضالة..

سادسا: الزهاد والصوفية ودينهم التوحيد ونفي التشبيه ومذهبهم التفويض إلى الله تعالى والتوكل عليه والإعراض عن الاعتراض عليه..

سابعا: المرابطون في ثغور المسلمين يحمون الوطن الإسلامي ويظهرون في ثغورهم مذهب أهل السنة والجماعة.. [١] .

ويبدو من طرح البغدادي أنه زاد الموضوع تعقيدا وأسهم في تشتيت أهل السنة وتأكيد الفرقة بينهم. كما يبدو التخبط في طرحه من إدخال الأدب والنحو والصرف في العقائد ومحاولة الربط بينهما.. ولست أدري ما هي صلة النحو والصرف والأدب بالقدرية والخوارج والرافضة..؟ هل يريد القول أنه لا يجوز أخذ هذه العلوم الثلاثة من المنتمين لهذه الفرق..؟ ثم ما هو سبب الربط بين المرابطين في الثغور وبين مذهب أهل السنة والجماعة.. هل يريد القول أنه لا يجوز جهاد الذين لا يلتزمون بمذهب أهل السنة؟ أم أن المرابطين يمثلون اتجاها من اتجاهات أهل السنة..؟

ثم إذا كان البغدادي يقول لنا إن هذه الاتجاهات جميعها هي أهل السنة والجماعة فكيف تم جمع هذه الاتجاهات في إطار واحد على الرغم من تباينها..؟

إن البغدادي لم يجب على هذا السؤال. كما لم يجبنا لماذا ظهر الأشعري على هذه الاتجاهات جميعا وأصبحت له السيادة في دائرة أهل السنة..؟

والاجابة على السؤال الثاني هي نفس الإجابة على السؤال التالي: لماذا ظهر تيار ابن تيمية دون تيارات السنة في العصر الحديث واخترق الحركات الإسلامية وبدا وكأن المسلمين في كل مكان ينطقون بلسانه.. [٢] ؟

---

[١] الفرق بين الفرق، ط. القاهرة.

[٢] دور الحكام في عقيدة الأشعري واضح في كتب التاريخ. كما هو واضح دعم حكام آل سعود اليوم لعقيدة ابن تيمية..

متى ظهرت الشيعة..؟

بدأ التشيع في أول بداياته في عهد الرسول صلى الله عليه وآله وكانت هناك مجموعة من الصحابة تشايع الإمام علي من أشهرهم أبو ذر الغفاري وسلمان الفارسي والمقداد بن الأسود الكندي وعمار بن ياسر وجابر بن عبد الله وحذيفة بن اليمان وبلال بن أبي رباح وغيرهم.. [1] .

وليس صحيحا أن حركة التشيع بدأت بعد وقعة صفين فإذا لم يكن للشيعة وجود قبل صفين فمن الذي كان يقاتل في صف علي وقد كان معه عدد كبير من الصحابة؟

والذين يطرحون مثل هذا التصور إنما يريدون أن يبرهنوا على أن التشيع نشأ بدوافع سياسية وليست دينية وهذا قول تدحضه النصوص الكثيرة التي وردت من الإمام علي خاصة وفي آل البيت بشكل عام..

وكان الحكام يستخدمون عقيدة الأشعري في ضرب اتجاه المعتزلة، وقد أصبح اتجاه الأشعري هو الاتجاه السائد في العالم الإسلامي بفضل دعم العباسيين فرغم هجوم الحنابلة على الأشعرية حيث اعتبروا استخدامهم للحجج العقلية بدعة منكرة ورغم المعارضة الشديدة من قبل الماتريدية والمعتزلة والشيعة، انتشر المذهب الأشعري وساد.. وقد نصر السلاجقة الأشاعرة حيث تلقوا العون الرسمي من الوزير نظام الملك وفي مقابل ذلك تحالف الأشاعرة مع السلاجقة ضد الفاطميين..
كما نصر الأيوبيون الأشاعرة على سائر الاتجاهات الأخرى بعد إسقاطهم الدولة الفاطمية في مصر.
انظر الشيعة في مصر.. وأهل السنة شعب الله المختار.

[1] أنظر سيرة هؤلاء من طبقات ابن سعد وكتب التاريخ وسوف يتبين لك تميزهم عن بقية الصحابة وعلاقتهم الخاصة بالرسول صلى الله عليه وآله وبالإمام علي.
وقد روى جابر بن عبد الله عن مسند أحمد: كنا نعرف المنافقين على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله بصلاة العتمة – أي صلاة العشاء والفجر وكان المنافقون يتخلفون عنها – وبغض علي. وروى مسلم من كتاب فضل الأنصار عن علي قوله: عهد إلي النبي صلى الله عليه وآله الأمر: إذهب يا علي لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق هذا وغيره يؤكد أن هناك من كان يشايع الإمام علي ويحبه وهناك من كان يخالفه ويبغضه من الذين حول الرسول. وكون حب علي من الإيمان وبغضه من النفاق يعني أنه مقياس الحق ومشايعته والارتباط به ضرورة شرعية. انظر تاريخ الشيعة الإمامية وأسلافهم من الشيعة للدكتور فياض. وهوية التشيع للوائلي ومتى وجدت الشيعة وفي ظلال التشيع وغيرها من المراجع التي تؤكد ولادة الشيعة على يد النبي صلى الله عليه وآله.

ومن هذه النصوص قول الرسول صلى الله عليه وآله: إني تارك فيكم الثقلين، كتاب الله وعترتي أهل بيتي وقوله لعلي: أنت مني بمنزلة هارون من موسى. وقوله: لأعطين الراية لرجل يحب الله ورسوله وأعطاها لعلي وقوله أنا مدينة العلم وعلي بابها. وغير ذلك من النصوص التي تكتظ بها كتب السنن والتي تشير وتؤكد أن للإمام علي مكانة دينية وخاصية قيادية توجب على المسلمين التشيع له.. [1] .

وهناك من يدعي أن ظهور الشيعة كان على يد جعفر الصادق حيث تنسب له الشيعة وتتسمى باسمه حتى اليوم..

وهذا ادعاء فيه مغالطة وقلة وعي بتاريخ الشيعة وحركتها إذ أن الشيعة كانت قائمة ولها وجودها قبل جعفر الصادق الذي تسلم إمامة الشيعة عن أبيه الباقر الذي تسلمها عن أبيه علي بن الحسين الذي تسلمها من الحسين فهي سلسلة من الأئمة تنتهي بالإمام علي وتدل على أن حركة التشيع كانت قائمة طوال عهود الأئمة الذين سبقوا عفر الصادق.. [2] .

وسبب هذا الالتباس في الفهم يكمن في حقيقة تاريخية وهي أن الإمام جعفر الصادق استثمر المناخ السياسي الانفتاحي في عصره وبرز بعلوم آل البيت على ساحة العلن وفتح مدرسة آل البيت لجميع المسلمين وفد مر عليها الكثير من فقهاء السنة مثل مالك والشافعي وأبو حنيفة. وبدأت حركة تدوين علوم الشيعة نشطة وتجوب الآفاق مما أوحى للبعض وكأن مذهب الشيعة قد تم تقنينه وإعداده في هذه الفترة.. [3] .

---

[1] أنظر البخاري ومسلم كتاب الفضائل باب فضل الإمام علي وكتب السنن الأخرى وانظر مستدرك الحاكم باب فضل علي والترمذي وأبو داوود.

[2] أنظر سيرة الإمام علي وولده الحسن عليه السلام وموقفهما من معاوية. وانظر ثورة الإمام الحسين عليه السلام ضد يزيد بن معاوية. وانظر سيرة الإمام محمد الباقر ودوره العلمي ونشره لحديث رسول الله صلى الله عليه وآله ليتبين لك أن حركة التشيع تسبق جعفر الصادق عليه السلام.

[3] أنظر سيرة الإمام جعفر الصادق عليه السلام من كتب التاريخ. وانظر جعفر الصادق للشيخ أبو زهرة. والمستشار عبد الحليم الجندي ط. القاهرة.

يقول الشيخ كاشف الغطاء: إن أول من وضع بذرة التشيع في حقل الإسلام هو نفس صاحب الرسالة الإسلامية ولم يزل غارسها يتعاهدها بالسقي والعناية حتى نمت وازدهرت في حياته ثم أثمرت بعد وفاته..[١] .

ويقول الشيخ المظفر: لا غرو لو قلنا إن الدعوة إلى التشيع ابتدأت من اليوم الذي هتف فيه المنقذ الأعظم ﷺ صارخا بكلمة لا إله إلا الله في شعاب مكة وجبالها إلى أن يقول: فكانت الدعوة إلى التشيع لأبي الحسن (الإمام علي) من صاحب الرسالة تمشي منه جنبا لجنب مع الدعوة للشهادتين..[٢] .

وقد ادعى كتاب الفرق من السلف أن أول من أظهر التشيع هو عبد الله بن سبأ ولا يزال خصوم الشيعة من المعاصرين يرددون هذا القول وهذا قول مردود فعلى قرض التسليم بوجود ابن سبأ فإن الشيعة يتبرأون منه ومن أعماله وأقواله وهذا واضح في كتبهم أما وأن الثابت أن أين سبأ هذا شخصية وهمية اخترعت لضرب الشيعة والطعن في معتقداتها..[٣] .

أما الذين يقولون بأن الشيعة نشأت لعد اجتماع السقيفة عندما تحالفت فئة من الصحابة مع علي ورفضت بيعة أبي بكر فهم يريدون بهذا القول أن يفرغوا التشيع من محتواه ويظهروه وكأنه نشأ كرد فعل لاغتصاب الخلافة..

إذا كان من تحالف مع علي من الصحابة في تلك الفترة فهل هذا الموقف اتخذ من فراغ أم أن له جذوره التي تسبق فترة السقيفة..؟

والذين يقولون بفارسية التشيع وأن أصوله فارسية يلتقون مع الذين يقولون أن أصوله يهودية فهؤلاء وهؤلاء يريدون أن يجتثوا شجرة التشيع من الجذور وأن ينسفوها نسفا.. وليست هذه الآراء إلا مغرضة لا تقوم على برهان صحيح..

---

[١] أصل الشيعة وأصولها.

[٢] عقائد الإمامية.

[٣] أنظر عبد الله بن سبأ وأساطير أخرى لمرتضى العسكري. وانظر هوية التشيع..

والأولى أن يتهم أهل السنة بهذا الاتهام حيث أن المصادر الرئيسية التي يعتمدون عليها من تأليف الفرس..

وعلى رأس هذه المصادر البخاري الذي ينتمي لمدينة بخارى ومسلم النيسابوري. والنسائي الذي ينتمي إلى مدينة نسا وأبو داوود والترمذي وابن ماجة فكل هؤلاء كانوا ينتمون لبلاد فارس حسب التقسيم الجغرافي آنذاك..

وهم الذين دونوا السنة وأحاديث الرسول ﷺ التي يعتمد عليها أهل السنة في بناء عقيدتهم وتأسيس أحكامهم..

وإذا كان أبو حنيفة النعمان فارسيا وهو صاحب المذهب المشهور فهل يمكن القول إن مذهب الأحناف أصوله فارسية..؟ [1] .

[1] يستمد الشيعة دينهم وفقههم من آل البيت وأبناء الرسول ﷺ الذين هم أشراف قريش. فأي الفريقين أحق بتهمة الفارسية؟

الفصل الأول

التوحيد

تمهيد

لن نناقش هنا قضية الإيمان بالله ووجوده لدى أهل السنة والشيعة فهي قضية مفروغ منها وليست محل خلاف بين الطرفين أو غيرهما من طوائف المسلمين.

إنما مرتكز البحث هنا هو موقف أهل السنة والشيعة من مسألة الوحدانية وتصورهما حولها استنادا للمراجع المعتمدة لدى كل من الاتجاهين..

وسوف نعرض لرؤية أهل السنة من خلال ثلاثة اتجاهات:

- اتجاه السلف..
- اتجاه الخلف..
- اتجاه ابن تيمية..

والسلف هم من كانوا قبل الخمسمائة. وقيل القرون الثلاثة الأولى.

الصحابة والتابعون وتابعوا التابعون. وهؤلاء ينقل عنهم أهل السنة أن لهم رؤية في الأسماء والصفات هي التي تمثل العقيدة الصحيحة الواجب الالتزام بها واتباعها..

أما الخلف فهم من كانوا بعد الخمسمائة وقيل بعد القرون الثلاثة، وهم اثنين خاضوا في الأسماء والصفات وأولوها بما ينفي التشبيه والتجسيم. فإذا ورد في القرآن والسنة. ما يشعر بإثبات الجهة أو الجسمية أو الصورة أو الجوارح عملوا على تأويل ذلك لوجوب تنزيهه تعالى عما دل عليه ما ذكر بحسب ظاهره..

أما اتجاه ابن تيمية فهو اتجاه شذ عن السلف والخلف وإن كان قد ألصق نفسه بالسلف ودعى سيره على نهجهم. وهو الاتجاه الذي تبنته الحركة الوهابية وقامت ببعثه بعد أن لفظه فقهاء السنة وحاكموه وكفروه على ما سوف نبين..

وكل الأطروحات الوهابية القديمة والمعاصرة إنما تعكس فكر ابن تيمية ومعتقداته ومن ثم فإن الحديث عن عقيدة ابن تيمية يعتبر حديثا عن عقيدة الوهابيين كذلك الحديث عن عقيدة الوهابيين يعد حديثا عن عقيدة ابن تيمية..

وقد ركزنا في هذا الباب على عقيدة ابن تيمية ووضعها عند أهل السنة. لما لهذه العقيدة ولصاحبها من دور وتأثير على مسلمي اليوم الرين تشبعوا بهذه العقيدة تحت ضغط المد الوهابي السعودي الذي اخترق التجمعات الإسلامية في كل مكان..

وبالنسبة للشيعة فإن قضية التوحيد عندهم تنبع من مصدر واحد وهو الأئمة وعلى رأسهم إلمام علي عليه السلام. فمن ثم لا يوجد في دائرة الشيعة ذلك الخلاف والتناحر حول المسائل العقائدية المتعلقة بأسماء الله وصفاته ومكانه واستوائه سبحانه..

التوحيد عند أهل السنة

التوحيد عند السلف:

يقول القرطبي:.. كان السلف الأول لا يقولون بني الجهة ولا ينطقون بذلك. لا نطقوا هم والكافة بإثباتها لله تعالى كما نطق كتابه وأخبرت رسله. ولم ينكر أحد من السلف الصالح أنه استوى على عرشه حقيقة. وخص العرش بذلك لأنه أعظم مخلوقاته. وإنما جهلوا كيفية الاستواء فإنه لا تعلم حقيقته. قال مالك: الاستواء معلوم - يعني اللغة - والكيف مجهول. والسؤال عنه بدعة. وكذا قالت أم سلمة.. [1] .

ويقول الغزالي: إعلم أن الحق الصريح الذي لا مراء فيه عند أهل البصائر هو مذهب السلف. أعني الصحابة والتابعين. وها أنا أورد بيانه وبيان برهانه. فأقول: حقيقة مذهب السلف وهو الحق عندنا أن كل من بلغه حديث من الأحاديث من عوام الخلق يجب عليه سبعة أمور: التقديس والتصديق ثم الاعتراف بالعجز ثم السكوت ثم الامساك ثم الكف ثم التسليم لأهل المعرفة.. أما التقديس فأعني به تقديس الرب سبحانه وتعالى عن الجسمية وتوابعها..

وأما التصديق فهو اليمان بما قاله صلى الله عليه وآله وأن ما ذكره حق وهو فيما قال صادق وأنه على الوجه الذي قاله وأراده..

وأما الاعتراف بالعجز فهو أن يقر بأن مراده ليست على قدر طاقته وأن ذلك ليس من شأنه وحرفته..

وأما السكوت فإنه لا يسأل عن معناه ولا يخوض فيه ويعلم أن سؤاله عنه بدعة وأنه في خوضه فيه مخاطر بدينه. أنه يوشك أن يكفر لو خاض فيه من حيث لا يشعر..

---

[1] الجامع لأحكام القرآن..

وأما الامساك فأن لا يتصرف في تلك الألفاظ بالتصريف والتبديل بلغة أخرى والزيادة والنقصان منه والجمع والتفريق بل لا ينطق إلا بذلك اللفظ وعلى ذلك الوجه من الايراد والإعراب والتصريف..

وأما الكف فأن يكف باطنه عن البحث عنه والتفكر فيه..

وأما التسليم لأهله فأن لا يعتقد أن ذلك إن خفي على رسول الله صلى الله عليه وآله أو على الأنبياء أو على الصديقين والأولياء..

فهذه سبع وظائف اعتقد كافة السلف وجوبها على العوام لا ينبغي أن يظن بالسلف الخلاف في شئ منها.. [١] .

وسئل الشافعي عن الاستواء فقال: آمنت بلا تشبيه وصدقت بلا تمثيل..

واتهمت نفسي في الإدراك. أمسكت عن الخوض فيه كل الامساك.. [٢] .

وقال أبو حنيفة: من قال لا أعرف الله في السماء هو أم في الأرض هو، فقد كفر لأن هذا يوهم أن لله مكانا ومن توهم أن لله مكانا فهو مشبه.. [٣] .

ويقول ابن خلدون:.. ثم وردت في القرآن آي أخرى قليلة توهم التشبيه مرة في الذات وأخرى في الصفات.

أما السلف فغلبوا أدلة التنزيه لكثرتها ووضوح دلالتها وعلموا استحالة التشبيه وقضوا بأن الآيات من كلام الله فآمنوا بها ولم يتعرضوا لمعناها ببحث ولا تأويل..

لجواز أن تكون ابتلاء فيجب الوقف والاذعان له.. [٤] .

---

[١] إلجام العوام عن علم الكلام. الرسالة الربعة من رسائل الغزالي المطبوعة تحت عنوان القصور العوالي من رسائل الإمام الغزالي ط. القاهرة.

[٢] حل الرموز أو زيد خلاصة التصوف للعز بن عبد السلام.

[٣] المرجع السابق وسئل ابن حنبل عن الاستواء، فقال: استوى كما أخبر لا كما يخطر للبشر..

[٤] مقدمة ابن خلدون..

ويقول الفخر الرازي: حاصل هذا المذهب أن هذه المتشابهات يجب القطع بها بأن مراد الله تعالى منها شئ غير ظواهرها.. ثم يجب تفويض معناها إلى الله تعالى ولا يجوز الخوض في تعسيرها.. [1] .

ويقول التفتزاني في معرض كلامه عن تنزيه الله عز وجل عن مشابهته للحوادث: إن ذلك وهم محض وحكم على غير المحسوس بأحكام المحسوس والأدلة القطعية قائمة على التنزيهات. فيجب أن يفوض علم النصوص إلى الله تعالى على ما هو دأب السلف إيثارا للطريق الأسلم. أو تؤول بتأويلات صحيحة على ما اختاره المتأخرون دفعا لمطاعن الجاهلين وجذبا لطبع القاصرين سلوكا للسبيل الأحكم.. [2] .

وسئل يحيى بن معاذ الرازي: أخبرنا هن الله تعالى..؟

قال: إله واحد..

فقيل كيف هو..؟

قال: إله قادر..

قيل: أين هو..؟

قال: بالمرصاد..

قيل: لم نسألك عن هذا..

قال: ما كان هذا صفة المخلوقين. فإما صفة الخالق فالذي أخبرته عنه.. [3] .

ويقول ابن قائد الجندي: مذهب سلف الأمة وأئمتها أنهم يصفون الله تعالى بما وصف به نفسه. وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل. فيثبتون له ما أثبته لنفسه من الأسماء والصفات

---

[1] أساس التقديس..

[2] شرح العقائد للنسفي.

[3] حل الرموز..

وينزهونه عما نزه نفسه من مماثلة المخلوقات إثباتا بلا تمثيل وتنزيها بلا تعطيل قال تعالى: ﴿**ليس كمثله شئ وهو السميع البصير**﴾ " الشورى / ١١ " [١] .

وقال بعضهم: المعطل يعبد عدما. والمشبه يعبد صنما. والموحد يعبد إلها واحدا صمدا.. [٢] .

وحديث الجارية المشهور عند أهل السنة التي سألها الرسول صلى الله عليه وآله: أين الله؟ قالت في السماء.. يستدل به أهل السنة على أن الله في السماء. لكنهم يستدركون أن هذا لا يعني أن الله في جوف السماء وأن السماوات تحصره وتحويه. فإن هذا لم يقله أحد من سلف الأمة وأئمتها. بل هم متفقون أن الله فوق سمواته على عرشه بائن عن خلقه. ليس في مخلوقاته شئ من ذاته ولا في ذاته شئ من مخلوقاته. وقد قال مالك: إن الله في السماء وعلمه في كل مكان.. [٣] .

ويتفق أصحاب المذاهب الأربعة وغيرهم أن الله لم يزل متكلما كيف شاء وإذا شاء بلا كيف يأمر بما شاء ويحكم.. [٤] .

وينقل عن الشافعي قوله: آمنت بما جاء عن الله على مراد الله. وبما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وآله على مراد رسول الله.. [٥] .

ويقول البيهقي: أما وحدانيته في ذاته سبحانه فمعناها أن ذاته العلية لا تتركب من أشياء مادية ولا عقلية ولا من أصول غير مادية فلا تحوم حول حماها المقادير والمساحات والأشكال ونحوها وقد برهنه القرآن ببيان أن له سبحانه الغنى الأكمل ووجوب الوجود لتركب في الذات واتصافها بالمقدار ولوازمه يستلزمان الحاجة إلى الغير والافتقار إلى السوي وينافيان وجوب الوجود

---

[١] نجاة الخلف في عقائد السلف. ط. القاهرة..

[٢] المرجع السابق.

[٣] المرجع السابق.

[٤] المرجع السابق.

[٥] أنظر الفتوى الحموية والرسالة المدينة لابن تيمية والشافعي لمحمد أبي زهرة..

ويقتضيان الاتصاف بالامكان، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا فهو واجب الوجود وهو الأول والآخر وهو الغني الحميد.. [1] .

بين السلف والخلف:

سوف نورد هنا عددا من النصوص القرآنية والنبوية ونبين موقف السلف والخلف منها فمما الجهة قوله تعالى: ﴿**يخافون ربهم من فوقهم**﴾..

السلف يقولون فوقية لا نعلمها..

والخلف يقولون المراد بالفوقية التعالي في العظمة..

وقوله تعالى: ﴿**الرحمن على العرش استوى**﴾..

السلف يقولون استواء لا نعلمه..

والخلف يقولون المراد به الاستيلاء والملك..

ومما يوهم الجسمية قوله تعالى: ﴿**وجاء ربك**﴾..

وقول الرسول ﷺ: ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا.. [2] .

السلف يقولون مجئ ونزول لا نعلمه..

والخلف يقولون المراد من الآية: وجاء عذاب ربك أو وجاء أمر ربك الشامل للعذاب والمراد ومن الحديث ينزل ملك ربنا فيقول عن ربنا..

ومما يوهم الصورة قول الرسول صلى الله عليه وآله:.. إن الله خلق آدم على صورته.. [3] .

السلف يقولون صورة لا نعلمها..

والخلف يقولون المراد بالصورة الصفة من سمع ويصر وعلم وحياة..

ومما يوهم الجوارح قوله تعالى: ﴿**ويبقى وجه ربك..**﴾ "الرحمن / ٥٥".

---

[1] أنظر الأسماء والصفات للبيهقي..

[2] أنظر شرح البيجوري على الجوهرة المسمى تحفة المريد على جوهرة التوحيد..

[3] المرجع السابق.

وقوله: ﴿**يد الله فوق أيديهم**﴾..

وقول الرسول صلى الله عليه وآله: إن قلوب بني آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن..).

فالسلف يقولون لله وجه ويد وإصبع لا نعلمها..

والخلف يقولون المراد من الوجه الذات ومن اليد القدرة والمراد من قوله بين إصبعين من أصابع الرحمن بين صفتين من صفاته وهاتان الصفتان القدرة والادارة..

ومما يوهم الرؤية لله تعالى قوله: ﴿**وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة**﴾.

وقول الرسول صلى الله عليه وآله: إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر).. [1] .

فالسلف مجمعون على رؤية الله يوم القيامة..

والخلف يقولون: إن النظر في الآية هو الانتظار..

واتجاه الخلف أو أصحاب التأويل شن عليهم ابن تيمية هجوما شديدا واضطر في مواجهتهم إلى إنكار المجاز في القرآن واعتبر اللغة حقيقة فقط مدعيا أن تقسيم اللغة إلى حقيقة ومجاز، بدعة على ما سوف نبين عند استعراض اتجاه ابن تيمية.. ويبدو أن هذا الموقف من قبل ابن تيمية محاولة منه لتفويت الفرصة على خصومه من أهل التأويل الذين يبنون موقفهم من آيات الأسماء والصفات على أساس المجاز كما هو واضح من خلال المقارنات السابقة..

ومن جانب آخر شن خصوم ابن تيمية عليه هجوما شديدا واتهموه بفساد العقيدة وتحريمه بعض المباح ومخالفته للأئمة الأربعة والتحدث بلسان السلف ونسبة الجهة والتجسيم والتشبيه لهم.. [2] .

---

[1] المرجع السابق.

[2] أنظر ابن تيمية سلفيا ط. القاهرة عام ٧٠. والدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر ج ١ ص ١٤٧. أنه نودي في دمشق اعتقد ابن تيمية حل دمه وماله. وانظر أيضا الفتاوى الحديثية لابن حجر الهيتمي ص ٨٦ وفيها تصريح الفقهاء أن ابن تيمية عند خذله الله وأضله وأعماه وأصمه وأذله. وبذلك صرح الأئمة الذين بينوا فساد أحواله وكذب أقواله وانظر براءة الأشعريين من عقائد المخالفين فصل عقيدة ابن تيمية التي خالف بها جماعة المسلمين. وانظر لنا محاكمة ابن تيمية..

والأشاعرة وهم يمثلون أبرز الاتجاهات في دائرة أهل السنة فيما يختص بقضايا التوحيد لهم رؤية في الأسماء والصفات تختلف في بعض جوانبها عن رؤية السلف كما أن ابن تيمية هاجمها وطعن في الأشعري.. [١].

وكذلك الأمر بالنسبة للماتريدي وهو من الاتجاهات البارزة أيضا في دائرة أهل السنة ويتبنى اتجاها وسطا بين الأشاعرة والمعتزلة والبعض يرى أن الخلاف بينه وبين الأشعري خلاف لفظي.. [٢].

وقيل أن الأشعري تارة يميل إلى العقل وتارة يميل إلى النقل، أما الماتريدي فيجري في جميع أحواله على نهج واحد يعتمد على العقل والنقل لا يغلب أحدهما على الآخر.. وقد أطلق لقب " أهل السنة " على جماعة الأشاعرة والماتريدية، ثم دخل بعد ذلك ضمن هذا التعريف أصحاب المذاهب الأربعة والأوزاعي والثوري وأهل الرأي والإجماع والقياس وغيرهم..

أما ابن تيمية ومن سار على نهجه فقد اختلف مع هذه الاتجاهات جميعا في كثير من القضايا التي تتعلق بالتوحيد والمعاملات..

أهل السنة والفرق الأخرى:

إن علامة الاستفهام التي تثيرها كتب الفرق أن هذا الكتب تضع فرقة أهل السنة في موضع القيمومة على الفرق الأخرى..

وتتعمد هذه الكتب إظهار أهل السنة بمظهر أهل الحق والفرقة الناجية التي خولت صلاحيات تعطيها الحق في محاكمة الفرق الأخرى وإصدار الحكم عليها..

[١] أنظر العقيدة الواسطية الفتوى الحموية لابن تيمية وكتب الفرق التي تعرض لعقيدة الأشعري والابانة في أصول الديانة ومقالات الاسلاميين للأشعري..

[٢] أنظر كتب الفرق وعلم الكلام..

ومع كون أهل السنة يعدون خصوما لهذه الفرق وينطبق عليهم ما ينطبق على الآخرين. إلا أنهم لا يتحلون بصفة تميزهم عن الآخرين وتمنحهم القيمومة عليهم..

ويبدو أن تحالف أهل السنة مع القوة الحاكمة على مر التاريخ. ذلك التحالف الذي منحهم الشرعية والاستقرار على ساحة الواقع واستقطاب القطاع الأكبر من جماهير المسلمين قد جعلهم يغترون بأنفسهم ويتعالون على الفرق الأخرى..

إن أهل السنة ينظرون لمخالفيهم نظرة استعلاء وهذه النظرة نابعة من اعتقادهم أنهم جماعة الحق وأنهم الفرقة الناجية. وبالطبع مثل هذا الاعتقاد لا بد أن يقودهم إلى الاستهانة بالآخرين والشك في عقائدهم..

وهذا يفسر لنا منطق المحاكمة وليس المناقشة الذي يحكم أي حوار يدور بين أهل السنة والشيعة..

ومن خلال تجاري الطويلة في الوسط الإسلامي وشتى الحوارات التي أجريتها مع مختلف التيارات خرجت بقناعة أن جميع تيارات أهل السنة لا تحاور بهدف متجرد أو تناقش منطق الباحث عن الحق. وإنما يحكم النقاش دائما منطق الخصومة والتعالي. فهم يناقشون بهدف إخضاع الطرف الآخر أو إصدار حكم فيه..

وكنت كثيرا ما أشترط بداية قبل الدخول في أي حوار أو نقاش مع طرف سني أن يتم التخلي عن منطق " صاحب حق يناقش صاحب باطل " فإن هذا الحوار لن يجدي بهذه الصورة ولن يؤدي إلا إلى زيادة التباعد والخصومة.

فالحكم ببطلان رؤية المناقش بداية يعني الأمر محسوم من قبل المناقش.

وهو في هذه الحالة لن يكون إلا صورة من صور المحاكمة الفكرية..[١] .

وهذا المنطق الذي ساد الوسط الإسلامي السني في مواجهة الشيعة إنما يعود سببه إلى هيمنة الفكر الوهابي المتعصب النابع من خط ابن تيمية الذي يكن عداءا شديدا للشيعة وللمخالفين له بوجه عام..

---

[١] أنظر لنا الشيعة والسنة حوارات ومناقشات..

وخط ابن تيمية القديم أو الخط الوهابي الحديث إنما ينبع تعصبه من كونه يعتقد أنه يمثل عقيدة السلف ويتحدث بلسانهم. وليس هذا الأمر في حقيقته إلا مجرد ادعاء لا يمثل الحقيقة في شئ على ما سوف نبين عند استعراض موقف ابن تيمية والوهابيين من قضية التوحيد..

إن طبيعة التساؤلات التي كانت توجه إلي بمجرد التعرف على هويتي الفكرية إنما تكشف مدى تعمق منطق المحاكمة لدى الطرف السني..

فأول سؤال كان يوجه إلي هو: لماذا تسبون الصحابة..؟

وما هو موقفكم من أبي بكر وعمر..؟

ولماذا تبيحون زواج المتعة..؟

وهل لديكم قرآن سري..؟

ولماذا تفضلون الأئمة على الأنبياء..؟

فإذا كان جواب هذه التساؤلات بالنفي مع الإقرار بعدم وجود قرآن سري وعدم تفضيل الأئمة على الأنبياء والاعتراف بخلافة أبي بكر وعمر حكم بصحة عقيدتنا. وإذا كان الجواب بغير ذلك حكم بفسادها..

أي أن مقياس صحة الاعتقاد أو فساده عند أهل السنة إنما يقوم على أساس الموقف من الرجال خاصة أبي بكر وعمر. فهؤلاء الرجال العدول المقدسون عندهم المساس بهم يعتبر مساسا بالدين.. [1] .

ومن الواضح أن مثل هذه القضايا التي تطرحها هذه التساؤلات المتعلقة بالرجال لا تتعلق بصلب العقيدة ولا ينبني على أساسها كفر وإيمان، لكنها عند أهل السنة بلغت هذا الحد وأصبحت من صلب العقيدة.. [2] .

ومنطق أهل السنة في حوارهم مع الآخرين إنما يذكرنا بأسلوب محاكم التفتيش ولعل هذا المنطق أحد الأسباب الرئيسية التي أدت إلى فشل الحركة

---

[1] أنظر باب الرجال من هذا الكتاب..

[2] أنظر باب الإمامة من هذا الكتاب..

الإسلامية وعزلها عن الجماهير. لكون هذه الحركة تتبنى هذا المنطق وهي متشبعة بالفكر الوهابي وتمارسه عمليا على الملأ مما شكك الجماهير في مدى تبنيها لحرية الفكر واحترام الرأي الآخر بل دفعها إلى الخوف من تطبيق إسلامي على هذه الصورة..

وهذا المنطق أيضا هو الذي فتح الباب أمام خصوم الحركة الإسلامية وعلى رأسهم العلمانيون للطعن في الصرح الذي تتبناه والتشكيك فيه..

التوحيد والسياسة:

هل تدخلت السياسة في صياغة عقيدة التوحيد ودعمها عند أهل السنة..؟

إن استقراء أحداث التاريخ ومواقف الحكام من أهل السنة تشير إلى صحة هذا الادعاء.. فعندما كانت فرقة الخوارج تقف في مواجهة الأمويين وتقول بكفر مرتكب الكبيرة. وجد الأمويون في اتجاه المرجئة مخرجا لهم في مواجهة هذا الاتجاه الذي سبب لهم حرجا كبيرا لاعتكافهم على المعاصي كبيرها وصغيرها. كما وجدوا في اتجاه الفقهاء السائد الحصانة التي يريدونها لأنهم لا يكفرون مرتكب الكبيرة..

والمتأمل في قصة الجهم بن صفوان الذي تنسب إليه فرقة الجبرية يجد أنه تناول فكرة الجبر من الجعد بن درهم. والجعد بن درهم أخذها من اليهود كما يروى..

ومن المعروف أن الجعد بن درهم على صلة وثيقة بالقصر الأموي وقد تسلم مهمة حساسة داخلة فيه وهي تربية الخلفاء الأمويين..

ورغم ذلك كانت النتيجة هي إعدام الجهم لا الجعد.. [1] .

ويبدو من خلال حركة الجبرية هذه أنها كانت تتركز في الشام أكثر من أي مكان آخر مما يشير إلى أن الأمويين كانوا يستثمرونها لصالحهم حتى تبرر الناس

---

[1] كان الجعد بن درهم مربيا لآخر خلفاء بني أمية مروان بن محمد. ويروى أن الجعد أعدم بعد ذلك انظر لنا الكلمة والسيف وفقه الهزيمة فصل العقيدة..

أفعالهم ومنكراتهم من جهة وحتى تواجه بها الفرق الأخرى التي تنابذهم كالقدرية بزعامة غيلان الدمشقي ومعبد الجهني.. [1] .

ويظهر هذا الأمر أيضا في تبني بعض حكام بني العباس والسلاجقة من بعدهم خط الأشعري وتبني البعض الآخر خط الخلف. كما تبنى المأمون والمعتصم والواثق منهج المعتزلة واصطدموا بأهل السنة وبطشوا بهم مما أدى إلى خلق رد فعل لدى الخلفاء الذين خلفوهم فاحتضنوا أهل السنة ودعموهم. وقد تبنى بعض حكام المماليك خط ابن تيمية وعلى رأسهم محمد بن قلاوون وصديق ابن تيمية.. [2] .

وفي الحقبة النفطية المعاصرة تبنى حكام السعودية خط الوهابية الذي تفرخ من مدرسة ابن تيمية ويعتبر امتدادا لها. ودعموه وعملوا على نشره في كل مكان من بقاع العالم الإسلامي حتى أصبح يمثل اعتقاد الحركات الإسلامية. في مصر وأفغانستان واليمن والخليج وأوروبا وكل بقعة يتواجد بها المسلمون..

وعلى الرغم من حجم الخلاف بين مدرسة ابن تيمية والمدارس الأخرى السنية التي تمثل الإجماع في مواجهتها فإن طرح ابن تيمية الشاذ هو الذي ساد على حساب الاتجاهات الأخرى والسبب كما هو واضح هودعم حكام آل سعود..[3] .

من هنا نشأ التعصب والجمود الذي صبغ الحركة الإسلامية المعاصرة.

كما نشأ التطرف والتكفير في مواجهة المخالفين.. ووقعت الحركة الإسلامية المعاصرة في مأزق فكري جعلها تتخبط في حركتها وتصورها وشغلها بالفروع أو بتعبير آخر شغلها بالمسلمين بدلا من أن يشغلها بأعداء الإسلام مما جعلها فريسة سهلة ولقمة سائغة للقوى الحاكمة المتربصة.

---

[1] أنظر كتب الفرق والعقائد ودراسات في العقيدة الإسلامية لمحمد جعفر شمس الدين.

[2] اضطهد بني بويه الأشاعرة ثم نصرهم السلاجقة بعد ذلك ليتحالفوا معهم في مواجهة الفاطميين الشيعة في مصر وكان صلاح الدين شافعيا وفرض المذهب الأشعري المصريين كذلك فعل الظاهر بيبرس. وكتب ابن تيمية كتاب الجواب الباهر لزوار المقابر للسلطان محمد بن قلاوون المملوكي وأثنى عليه في مقدمة الكتاب ومدحه كثيرا..

[3] طبعت الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٣٧ مجلدا) على نفقة خادم الحرمين وتوزع مجانا والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: ما هي مصلحة آل سعود في نشر خط ابن تيمية وأفكاره..؟

وهـذه نتيجـة طبيعيـة لتبنـي خـط ابـن تيميـة الـذي يرفـع شـعار التوحيـد الخالص ويزندق مخالفيه ويـصطرع مـع العامـة تـارة ومـع العلمـاء تـارة ومـع الفرق تارة أخرى وفي النهاية هو في خدمة الحكام..

وهكذا تحولت صورة التوحيد الذي طرحه ابن تيمية إلى الصورة المثلى المعبرة عن الإسلام ولم يعد هنـاك وجـود للطـرح الآخـر إلا علـى صـفحات الكتب. وبـدا الأمـر للـشباب المـسلم الناشـئ وبـسطاء المـسلمين أن هـذا هـو الإسلام وأن ابن تيمية هو شيخ الإسلام الذي نهـض لنـصرة التوحيـد والـذي ترفع الحركات الإسـلامية رايتـه فـي مواجهـة المـسلمين قبـل أن ترفعهـا فـي مواجهة أعداء المسلمين.

ترفعها في مواجهة الصوفية.

وترفعها في مواجهة الشيعة..

وترفعها أيضا في مواجهة السنة الذين يخالفونها..

فكل هؤلاء مشركون لأنهم لا يقرون عقيدة ابن تيمية ويخـالفون أصـول التوحيد الذي جاء به شيخ الإسلام والذي أعلـن هـو وتابعـه ابـن عبـد الوهـاب أن نواقض الإسلام عشرة من لا يعرفها وقع في الشرك الأكبـر وكـان فـي عـداد الهالكين وأول هذه النواقض الشرك في عبادة الله والذبح لغير الله. والثاني من جعل بينه وبين الله وسائط يدعوهم ويسألهم الشفاعة كفر إجماعا. والإجماع المقصود هنا هو إجماع الوهابية بالطبع، والثاني والثالث مـن لـم يكفـر المـشركين أو يشك فـي كفـرهم أو صـحح مـذهبهم كفـر. والمقـصود بالمـشركين هنـا المسلمون الذين يخالفون الوهابية. الرابع من اعتقد أن غير هدي النبي ﷺ أكمل من هديه أو أن حكم غيره أحسن من حكمه فهو كافر. الخامس مـن أبغـض شيئا مما جاء به الرسول ولو عمل به كفر. السادس من استهزأ بشئ مـن ديـن الرسول أو ثوابه أو عقابه كفر السابع من فعل السحر أو رضي به كفر. الثـامن من ظاهر المشركين وأعانهم على المسلمين كفر. التاسع من اعتقد أن بعـض الناس يسعه الخروج عن شريعة محمد كما وسع الخضر الخروج على شريعة

موسى فهو كافر. العاشر من أعرض عن دين الله لا يتعلمه ولا يعمل به فقد كفر.. ولا فرق في جميع هذه النواقض بين الهازل والجاد والخائف والمكره.. [1] .

هذه هي أحدث صور التوحيد التي تفرخت عن أهل السنة وهي كما تبدو صورة قاتمة مخيفة تبرر استحلال دماء المخالفين من أهل القبلة وجهادهم وهو ما يشهد به تاريخ الحركة الوهابية فهي لم تشهر سيفا ولم تطلق طلقة بندقية في مواجهة الكفار الحقيقيين وإنما كانت سيوفها وبنادقها مسلطة دائما على المسلمين.. [2] .

وختاما نعرض أمام القارئ فتوى من فتاوى أولاد عبد الوهاب توجب تخريب بيوت المسلمين وإشعال الفتن بينهم وذبح بعضهم بعضا باسم التوحيد..

تقول الفتوى: إن الرجل لا يكون مسلما إلا إذا عرف التوحيد ودان به وعمل بموجبه.. فمن قال لا أعادي المشركين أو عاداهم ولم يكفرهم. أو قال لا أتعرض أهل لا إله إلا الله ولو فعلوا الشرك والكفر وعادوا دين الله. أو قال لا أتعرض القباب فهذا لا يعد مسلما بل هو ممن قال الله فيهم ﴿**ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا * أولئك هم الكافرون حقا وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا..**﴾ [3] .

---

[1] مجموعة التوحيد الرسالة الأولى ص ٣٣ ط. دار الفكر – القاهرة وكذلك ذكر ابن باز هذه النواقض في كتابه العقيدة الصحيحة ونواقض الإسلام طبع على نفقة فاعل خير ويوزع مجانا..
وتأمل هذه النواقض العشرة وسوف يتبين لك أنها موجهة للمخالفين للوهابية من الصوفية والشيعة..

[2] تاريخ الوهابية حافل بالمذابح لأهل القبلة على مستوى الجزيرة العربية وخارجها والمذابح التي ارتكبوها في النجف وكربلاء حيث أحرقوا المساجد ونهبوها وقتلوا الأطفال والنساء أثناء غاراتهم على بلاد (الشرك) هذه المذابح مشهورة ومعروفة للجميع وقد سلط الله عليهم حاكم مصر محمد علي الذي غزا الجزيرة العربية وشتت جموعهم ومزقهم شر ممزق لكنه لم يستطع القضاء على دعوتهم.. انظر لنا فقهاء النفط وابن باز فقيه آل سعود.

[3] مجموعة التوحيد رسالة بيان النجاة والفكاك من موالاة المرتدين وأهل الاشراك..

ويلاحظ هنا أن الشرك هو التوسل وزيارة القبور ودين الله المقصود به مذهب الوهابية. أما المشركون فهم المسلمون..

ويقول الشهرستاني: إن السلف من أصحاب الحديث لما رأوا توغل المعتزلة في علم الله ومخالفة السنة التي عهدوها من الأئمة الراشدين ونصرهم جماعة من بني أمية على قولهم بالقدر وجماعة من خلفاء بني العباس على قولهم بنفي الصفات وخلق القرآن تحيروا في تقرير مذهب أهل السنة والجماعة في متشابهات آيات الكتاب وأخبار النبي صلى الله عليه وآله. وداود بن علي الأصفهاني وجماعة من السلف جروا على منهاج السلف المتقدمين عليهم من أصحاب الحديث مثل مالك بن أنس ومقاتل بن سليمان وسلكوا طريق السلامة، فقالوا نؤمن بما ورد به الكتاب والسنة ولا تنعرض للتأويل بعد أن نعلم قطعا أن الله عز وجل لا يشبه شيئا من المخلوقات. وأن كل ما تمثل في الوهم فإنه خالقه ومقدره وكانوا يحترزون عن التشبيه إلى غاية أن قالوا من حرك يده عند قراءته خلقت بيدي أو أشار بإصبعه عند روايته قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن. وجب قطع يده وقلع إصبعه. وقالوا إنما توقفنا في تفسير الآية وتأويلها لأمرين.

أحدهما: المنع الوارد في التنزيل في قوله تعالى: ﴿**فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله..**﴾ فنحن نحترز من الزيغ..

والثاني: إن التأويل أمر مظنون بالاتفاق والقول في صفات الباري بالظن غير جائز فلربما أولنا الآية على غير مراده فوقعنا في الزيغ بل نقول كما قال الراسخون في العلم كل من عند ربنا آمنا بظاهره وصدقنا بباطنه ووكلنا علمه إلى الله تعالى ولسنا مكلفين بمعرفة ذلك إذ ليس من شرائط الإيمان وأركانه.. [1] .

التوحيد عند ابن تيمية:

يقسم ابن تيمية التوحيد إلى ثلاثة أقسام:

الأول: توحيد الأسماء والصفات..

---

[1] الملل والنحل، ج ١..

الثاني: توحيد الربوبية..

الثالث: توحيد الألوهية..[1].

والأول يعني إثبات ما أثبته لنفسه في كتابه وسنة رسوله من الأسماء والصفات على الوجه اللائق به من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل..

وقد ضل في هذا الأمر طائفتان:

إحداهما المعطلة الذين أنكروا الأسماء والصفات أو بعضها زاعمين أن إثباتها لله يستلزم التشبيه..

والطائفة الثانية: المشبهة الذين أثبتوا الأسماء والصفات مع تشبيه الله تعالى بخلقه زاعمين أن هذا مقتضى دلالة النصوص لأن الله تعالى يخاطب العباد بما يفهمون.. [2].

أما القسم الثاني: فيعني أن الله هو الرب المتفرد بالخلق والرزق والتدبير..

والثالث: يعني الاعتراف بأن الله ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين وإفراده وحده بالعبادة كلها وإخلاص الدين لله وحده وهو يتضمن القسمين الأولين.. [3].

ويثبت ابن تيمية لله العلو: علو الله تعالى من صفاته الذاتية وينقسم إلى قسمين:

علو ذات..

وعلو صفات..

فأما علو الذات فمعناه أن الله بذاته فوق جميع خلقه.

وأما علو الصفات فمعناه أنه ما من صفة كمال إلا ولله تعالى أعلاها وأكملها سواء أكانت من صفات المجد والقهر أم من صفات الجمال والقدر..

---

[1] التوحيد لابن عبد الوهاب والعقيدة الواسطية والعقيدة الصحيحة لابن باز..

[2] رسائل في العقيدة لمحمد بن عثيمين الرسالة الثانية: فيح رب البرية بتلخيص الحموية..

[3] العقيدة الواسطية..

فتارة يذكر العلو والفوقية والاستواء على العرش وكونه في السماء مثل قوله تعالى: ﴿**وهو العلي العظيم**﴾.

وقوله: ﴿**سبح اسم ربك الأعلى**﴾.

وقوله: ﴿**يخافون ربهم من فوقهم**﴾.

وقوله: ﴿**الرحمن على العرش استوى**﴾.

وقوله: ﴿**أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض**﴾.

وقول الرسول صلى الله عليه وآله: " والعرش فوق ذلك والله فوق العرش "..

وقوله صلى الله عليه وآله: " ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء "..

وتارة بصعود الأشياء وعروجها ورفعها إليه..

مثل قوله تعالى: ﴿**إليه يصعد الكلم الطيب**﴾.

وقوله: ﴿**تعرج الملائكة والروح إليه**﴾.

قوله: ﴿**بل رفعه الله إليه**﴾.

وقول الرسول صلى الله عليه وآله: " لا يصعد إلى الله إلا الطيب ".

وقوله: " يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل "..

وتارة بنزول الأشياء منه..

ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿**تنزيل من رب العالمين**﴾.

وقوله: ﴿**قل نزله روح القدس من ربك**﴾.

وقوله صلى الله عليه وآله: " ينزل ربنا إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر.. [1]

ويذهب ابن تيمية أن لله وجها حقيقيا يليق به موصوفا بالجلال والإكرام وقد دل ثبوته لله الكتاب والسنة..

فمن أدلة الكتاب قوله تعالى: ﴿**ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام**﴾.

---

[1] رسائل في العقيدة الرسالة الثانية..

ومن أدلة السنة قول الرسول صلى الله عليه وآله: " وأسألك لذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك..

فوجه الله تعالى من صفاته الذاتية الثابتة له حقيقة على الوجه اللائق به ولا يصح تحريف معناه إلى الثواب.. [1] .

ويذهب ابن تيمية أن لله تعالى يدين اثنتين مبسوطتين بالعطاء والنعم..

وهما من صفاته الذاتية الثابتة له حقيقة على الوجه اللائق به..

وقد دل على ثبوتها لكتاب والسنة..

فمن أدلة الكتاب قوله تعالى: ﴿**ما منعك أن تسجد لما خلت بيدي**﴾.

ومن أدلة السنة قول الرسول ﷺ: " يد الله ملأى سماء الليل والنهار أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض فإنهم لم يغض ما في يمينه..

وينقل ابن تيمية على لسان أهل السنة أنهم أجمعوا على أنهما يدان حقيقيتان لا تشبهان أيدي المخلوقين ولا يصح تحريف معناهما إلى القوة أو النعمة أو نحو ذلك.. [2] .

وينقل ابن تيمية على لسان أهل السنة أن لله عينين اثنتين ينظر بهما حقيقة على الوجه اللائق به وهما من الصفات الذاتية الثابتة بالكتاب والسنة.

فمن أدلة الكتاب قوله تعالى: ﴿**تجري بأعيننا**﴾.

ومن أدلة السنة قول الرسول ﷺ: " إن ربكم ليس بأعور.. ".

فهما عينان حقيقيتان لا تشبهان أعين المخلوقات ولا يصح تحريف معناهما إلى العلم أو الرؤية.. [3] .

---

[1] المرجع السابق.

[2] المرجع السابق.

[3] المرجع السابق.

كما ينقل على لسان أهل السنة قولهم إن الله تعالى يتكلم وأن كلامه صفة حقيقية ثابتة له على الوجه اللائق وهو سبحانه يتكلم بحرف وصوت كيف يشاء متى شاء فكلامه صفة ذات باعتبار جنسه وصفة فعل باعتبار آحاده..

ومن أدلة ذلك من الكتاب قوله تعالى: ﴿**ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه**﴾.

وقوله تعالى: ﴿**إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي**﴾.

وقوله: ﴿**وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا**﴾.

ففي الآية الأولى إثبات أن الكلام يتعلق بمشيئته وإن آحاده حادثة..

وفي الآية الثانية دليل على أنه بحرف فإن مقول القول فيها حروف..

وفي الآية الثالثة دليل على أنه بصوت إذ لا يعقل النداء والمناجاة إلا بصوت..

ومن أدلة السنة قول الرسول ﷺ: " يقول الله تعالى: يا آدم فيقول لبيك وسعديك فينادي بصوت إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثا إلى النار.. ".

وكلامه سبحانه هو اللفظ والمعنى جميعا ليس هو اللفظ وحده أو المعنى وحده..[1].

وعلى لسان أهل السنة يقول ابن تيمية: إن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود تكلم به حقيقة وألقاه إلى جبريل فنزل به على قلب محمد ﷺ.

وأدلة ذلك من الكتاب قوله تعالى: ﴿**وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله..**﴾.

ومن أدلة السنة قوله ﷺ: ألا رجل يحملني إلى قومه لأبلغ كلام ربي فإن قريشا قد منعوني أن أبلغ كلام ربي عز وجل..[2].

---

[1] المرجع السابق.

[2] المرجع السابق.

وينقل ابن تيمية انقسام أهل القبلة في آيات الصفات وأحاديثها إلى ست طوائف..

طائفتان قالوا: تجري على ظاهرها..

وطائفتان قالوا: تجري على خلاف ظاهرها..

وطائفتان قالوا بالتوقف..

أما الطائفتان الذين قالوا تجري على ظاهرها فهما:

- طائفة المشبهة الذين جعلوها من جنس صفات المخلوقين ومذهبهم باطل أنكره السلف..

- طائفة السلف الذين أجروها على ظاهرها اللائق بالله عز وجل ومذهبهم هو الصواب.

أما الطائفتان الذين قالوا تجري على خلاف ظاهرها:

- أهل التأويل من الجهمية وغيرهم الذين أولوا نصوص الصفات إلى معان عينوها كتأويل اليد بالنعمة والاستواء بالاستيلاء ونحو ذلك..

- أهل التجهيل المفوضة الذين قالوا: الله أعلم بما أراد بنصوص الصفات لكننا نعلم أنه لم يرد إثبات صفة خارجية له تعالى وهذا القول متناقض.

أما الطائفتان الذين توقفوا:

- طائفة جوزوا أن يكون المراد بنصوص الصفات إثبات صفة تليق بالله وأن لا يكون المراد من ذلك وهؤلاء كثير من الفقهاء وغيرهم..

- طائفة أعرضوا بقلوبهم وألسنتهم عن هذا كله ولم يزيدوا على قراءة القرآن والحديث.. [1].

---

[1] المرجع السابق.

ويدافع ابن تيمية عن الاتهامات التي وجهت لأهل السنة والألقاب التي وضعها أصحاب الاتجاهات عليهم بقوله: فكانت كل طائفة من هذه الطوائف تلقب أهل السنة بما برأهم الله من ألقاب التشنيع والسخرية.. إما لجهلهم بالحق حيث ظنوا ما هم عليه وبطلان ما عليه أهل السنة..

وإما لسوء القصد حيث أرادوا بذلك التنفير عن أهل السنة والتعصب لآرائهم مع علمهم بفسادها..

فالجهمية ومن تبعهم من المعطلة سموا أهل السنة (مشبهة) زعما منهم أن إثبات الصفات يستلزم التشبيه..

والروافض سموا أهل السنة (نواصب)..

والقدرية النفاة قالوا: أهل السنة (مجبرة) لأن إثبات القدر جبر عند هؤلاء النفاة..

والمرجئة المانعون من الاستثناء في الإيمان يسمون أهل السنة (شكاكا) لأن الإيمان عندهم إقرار القلب والاستثناء شك فيه عند هؤلاء المرجئة..

وأهل الكلام والمنطق يسمون أهل السنة (حشوية) ويسمونهم (غثاء).. [1] .

ولقد تبنى رؤية ابن تيمية هذه وطرحه في مسائل العقيدة وعكف على شرحه وتبسيطه ونشره في الآفاق بدعم آل سعود..

وهكذا أغرق الواقع الإسلامي بعشرات الكتب الوهابية التي تعكس عقيدة ابن تيمية وتعمل على حشو أذهان المسلمين بقضايا النذر والتبرك والتوسل والسحر والرقى والتمائم والذبح لغير الله وزيارة القبور وأضرحة المساجد وما شابه ذلك من الأمور التي أدت إلى زرع العداوة والبغضاء بين المسلمين ودفعت بالشباب المسلم الناشئ إلى تركيز جهوده على المسلمين والصدام معهم بدلا من الصدام مع أعداء الإسلام والمسلمين فقد صورت له الوهابية أن هذا هو

[1] المرجع السابق.

الإسلام وأن هذا هو طريق الفرقة الناجية ومن شذ عن هذا الطريق وجبت معاداته وقتاله إن أمكن والحقيقة أن اتجاه ابن تيمية وتابعه محمد بن عبد الوهاب لا يمثلان سوى اتجاه شاذ في دائرة أهل السنة..

وقد أفرد ابن تيمية فصلا في " الفتوى الحموية " في بيان صحة مذهب السلف وبطلان القول بتفضيل مذهب الخلف في العلم والحكمة على مذهب السلف ووصف القائلين: طريق السلف أسلم وطريقة الخلف أعلم وأحكم، وصفهم بالغباء..

يقول صاحب فرقان القرآن: وقد اتفقت عقول المحققين من الأولين والآخرين والسلف والخلف على أن ما اتصف بصغر أو كبر فهو حادث ممكن، وكذلك اتفقت على أن الصورة والاتصاف بالأجزاء من سمات الحدوث ولم نر أحدا اجترأ على إنكار ذلك وبالغ فيه سوى ابن تيمية وهو قول إن دل على شئ فليس يدل إلا على إصابة صاحبه بهوى خرج به عن المعقول والمنقول..

واستمع إلى ما نقله الحافظ البيهقي عن الإمام أحمد الذي ينسب إليه هذا الرجل (ابن تيمية) ومن على شاكلته كل شنيعة، في الكتاب الذي ألفه في مناقب الإمام أحمد عن الإمام أبي الفضل التميمي رئيس الحنابلة ببغداد وابن رئيسها " أنكر أحمد على من قال بالجسم ". وقال: إن الأسماء مأخوذة من الشريعة واللغة وأهل اللغة وضعوا هذا الاسم على ذي طول وعرض وسمك وتركيب وصورة وتأليف والله سبحانه خارج عن ذلك كله.. فلم يجز أن يسمى جسما لخروجه عن معنى الجسميةولم يجئ في الشريعة ذلك فبطل..[1]
ونقل الحافظ بن الجوزي عن الإمام أحمد نحو ذلك في كتابه " دفع شبه التشبيه " وأنت خبير بأن نفي الجسمية نفي للجهة والمكان فإنهما لازمان لها لذاتها لزوما مساويا. وإذا ثبت اللازم المساوي ثبت ملزومه لا يشك في ذلك من يعرف معنى اللازم المساوي. فهو بمنزلة الحدوث للامكان والانقسام[2] .

---

[1] فرقان القرآن، ط. القاهرة.

[2] دفع شبه التشبيه. ط. القاهرة.

التوحيد عند الشيعة

*** التوحيد عند الإمام علي عليه السلام :**

يمثل طرح الإمام علي عليه السلام حول قضية التوحيد الأصل الذي تعتمد عليه الشيعة في تحديد رؤيتها تجاه هذه القضية..

وطرح الإمام دقيق في مدلولاته مطابق في كل جوانبه القرآن والأحاديث المروية عن طريق آل البيت عليهم السلام..

ويعد الإمام علي أول من خاض في المعارف الإلهية من أمة محمد وأول من أوضح معالمها والمتأمل في نهج البلاغة يكتشف أن هذا الكتاب يحوي طرحا فلسفيا بالنسبة للإلهيات لا يفوقه أي طرح آخر..

وقد أخذت منه المدارس الفلسفية الإسلامية وارتوت من معينه وأسست عليه تصوراتها وأطروحتها..

ولا يزال أصحاب العقول يقفون في انبهار أمام هذا الكتاب ولسان حالهم يقول: إن مثل هذا الكتاب لا يمكن أن يكون منسوبا إلا للإمام علي..

وإن ما يحويه هذا الكتاب بين دفتيه لا يمكن أن يكون إلا نتاج مدرسة النبوة.. والإمام في طرحه أعطى مساحة للعقل وألزمه بالنص في آن واحد وهذا من وجوه الإعجاز البلاغي في طرحه..

فعندما يتحدث الإمام عن استحالة رؤية الله عقلا يقول: وامتنع على عين البصير ثم يقول ولا تحيط به الأبصار.. ولا تراه النواظر [1] .

وكلامه هذا يطابق العقل كما يطابق النص الواضح من قوله تعالى: ﴿**لا تدركه الأبصار**﴾ وقوله ﴿**لن تراني**﴾.

---

[1] نهج البلاغة، ج ١.

وكل ما خلق الله للانسان من أدوات إنما تؤكد الاستحالة العقلية، فإن هذه الأدوات المادية وهي الحواس لا تدرك إلا المادة من جنسها..

والإمام بقوله هذا قد أرسى قاعدة عدم الرؤية إلا أن هذا لا يعني إطلاقا عدم وجوده سبحانه: فهوالمعروف من غير رؤية وأحق وأبين مما ترى العيون.. [1] .

ويؤكد الإمام وحدانية الله وتفرده سبحانه، في وصيته للإمام الحسن عليه السلام بقوله: واعلم يا بني أنه لو كان لربك شريك لأتتك رسله ولرأيت آثار ملكه وسلطانه ولعرفت أفعاله وصفاته ولكنه إله واحد كما وصف نفسه لا يضاده في ملكه أحد ولا يزول أبدا ولم يزل.. [2] .

وبأدق الألفاظ وأكمل العبارات وأوجز الكلمات يطرح الإمام قضية توحيد صفات الله بقوله: فمن وصفه فقد حده ومن حده فقد عده..

فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه ومن قرنه فقد ثناه..

فلسنا نعلم من كنه عظمتك إلا أنا نعلم أنك حي قيوم لا تأخذك سنة ولا نوم.. لم ينته إليك نظر ولم يدركك بصر.. [3] .

وقد سئل الإمام: هل رأيت ربك يا أمير المؤمنين..؟

فقال: أفأعبد ما لا أرى..؟

فقال السائل: وكيف تراه..؟

قال: لا تدركه العيون بمشاهدة العيان ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان.. قريب من الأشياء غير ملامس، بعيد منها غير مباين، متكلم بلا روية مريد لا بهمة. صانع لا بجارحة. لطيف لا يوصف بالخفاء كبير لا يوصف بالجفاء بصير لا يوصف بالحاسة. رحيم لا يوصف بالرقة تعنو الوجوه لعظمته، وتجب القلوب من مخافته.. [4] .

---

[1] المرجع السابق: ج ١ / ١٥٨، ج ٢ / ٢٨٠.

[2] المرجع السابق: ج ٢ / ٤٤.

[3] المرجع السابق: ج ١ / ٢٩٠.

[4] المرجع السابق: ج ٢ / ٥٣٤.

إن الإمام يؤكد الصفات الثبوتية لله سبحانه وتعالى مثل الإرادة والبصر ويؤكد تباينه تعالى عن الأشياء وعدم تشبيهه بالمخلوقات وصفة الإرادة والبصر من الصفات الذاتية لله والتي هي عين ذاته ولا يجوز فصلها عنه سبحانه، فهي أساس كمال الذات ونفيها يعني نفص الذات أما اللطف والصنع والرحمة فهي من صفات الأفعال الحادثة على ذاته مثل الرزق.. ولا يجوز القول بأنها عين الذات لأن ذلك يستلزم حدوث الذات..

وقول الإمام هذا إنما يلخص عقيدة الشيعة في الأسماء والصفات والتي تقول بأن صفات الله هي عين ذاته وتعتبر صفات الذات أصلا وصفات الأفعال فرعا مشتقا من هذا الأصل فالصنع والرزق فرع مشتق من الأصل وهو القدرة.. والسمع والبصر فرع مشتق من الأصل وهو العلم..

وقول الإمام: قريب من الأشياء غير ملامس بعيد عنها غير مباين. صانع لا بجارحة لطيف لا يوصف.. بصير لا يوصف.. رحيم لا يوصف.. إنما يؤكد عقيدة الشيعة التي ترفض التشبيه والتجسيم والتي دفعتها إلى رفض الأحاديث المنسوبة للرسول صلى الله عليه وآله والتي تشير في ظاهرها إلى التشبيه والتجسيم مثل حديث نزول الله وحديث رؤية الله وحديث ضحك الله وفرحه ووضع قدمه في النار وغيرها..

ثم يقول الإمام عليه السلام: كل شئ خاشع له. كل شئ قائم به. غنى كل فقير وعز كل ذليل وقوة كل ضعيف ومفزع كل ملهوف. من تكلم سمع نطقه ومن سكت علم سره ومن عاش فعليه رزقه ومن مات فإليه منقلبه، لم ترك العيون فتخبر عنك بل كنت قبل الواصفين من خلقك. لم تخلق الخلق لوحشة ولا استعملتهم لمنفعة ولا يسبقك من طلبت ولا يفلتك من أخرت ولا ينقص سلطانك من عصاك ولا يزيد في ملكك من أطاعك. ولا يرد أمرك من سخط قضاءك ولا يستغني عنك من تولى عن أمرك. كل سر عنك علانية. وكل غيب عندك شهادة. أنت الأبد فلا أمد لك وأنت المنتهى فلا محيص عنك وأنت الموعد فلا منجى منك إلا إليك. بيدك ناصية كل دابة وإليك مصير كل نسمة سبحانك ما أعظم شأنك سبحانك ما أعظم ما نرى من خلقك وما أصغر عظيمة

في جانب قدرتك وما أهون ما نرى من ملكوتك وما أحقر ذلك فيما غاب عنا من سلطانك وما أسبغ نعمك في الدنيا وأصغرها في نعم الآخرة.. [1].

ولأن الظلم أحد مداخل الشرك وسلم الوصول إلى الشك في حكمة الله وقضائه وقدره ركز الإمام عليه وحدد معالمه كاشفا حقيقة العدل ودوره في توطيد الاعتقاد الصحيح وتحقيق الاستقرار الايماني..

يقول الإمام عن الله سبحانه وتعالى: وارتفع عن ظلم عباده وقام بالقسط في خلقه وعدل عليهم في حكمه.. [2].

يقول الدكتور اليحفوفي: ومن الضروري جدا أن يكون الله عادلا والأدلة العقلية على هذه الضرورة كثيرة نذكر منها دليلا واحدا مفاده أن الباعث للظلم – الذي هو ضد العدل – أحد أشياء. إما الجهل بقبح الظلم أو الحاجة إليه لتثبيت ملك أو سلطان أو العجز عن تفاديه وكل هذه الأمور ممتنعة عليه تعالى. لأن كونه عالما يقتضي علمه بقبح القبيح. وكونه غنيا مطلقا يقتضي عدم حاجته للغير وكونه القادر على كل شئ يقتضي قدرته على تفادي الظلم وإذا كان الظلم مستحيلا عليه تعالى فإن العدل يكون ضروريا.. [3].

من هنا اعتبر الشيعة العدل أحد مشتقات التوحيد وأصلا من أصول العقيدة مما ميزهم عن أهل السنة الذين جوزوا على الله سبحانه ما ينافي العدل.. [4].

---

[1] المرجع السابق: ج ٢ / ٢٢٧.

[2] المرجع السابق: ج ١ / ٣٥.

[3] بحوث في نهج البلاغة، ج ١ الفلسفة الإلهية. بيروت.

[4] يرفض أهل السنة وعلى رأسهم الأشعري الحسن والقبح العقليين ويعتبرون الحسن ما حسنه الشرع والقبح ما قبحه الشرع وقد انبنى على هذه القاعدة جواز وقوع العبد في الشر والقبيح بتوجيه من الله تعالى باعتبار أن الخالق لا يخلق شيئا إلا وله عاقبة حميدة وإن لم نطلع عليها فجزمنا بأن ما نستقبحه من الأفعال قد يكون فيها حكم ومصالح كما في خلق الأجسام الخبيثة الضارة بخلاف الكسب فإنه قد يفعل الحسن وقد يفعل القبيح على حد قول التفتازاني في شرح العقائد النسفية وتذهب الأشاعرة إلى أن كل المعاصي الواقعة في الوجود من الشرك والظلم والجور والعدوان وأنواع الشرور تتم برضا الله.

ويحدد الإمام المفهوم الحق للقضاء والقدر مبددا ذلك الفهم الخاطئ لازما وقدرا حاتما ولو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب وسقط الوعد والوعيد.

إن الله سبحانه أمر عباده تخييرا ونهاهم تحذيرا..[1] .

والمتواتر عن أهل البيت الذي تلتزم به الشيعة الإمامية هو لا جبر ولا تفويض ولكن أمر بين أمرين..

وكما يقول الإمام أن الله سبحانه أمر عباده تخييرا ونهاهم تحذيرا.. ولم يعص مغلوبا ولم يطع مكرها..[2] .

التوحيد عند الشيعة:

- الأسماء والصفات:

يعتقد الشيعة أن الله تعالى متصف بجميع صفات الكمال منزه عن جميع صفات النقص وعن كل ما يقتضي الحدوث..

وأن صفاته الثبوتية ثمان:

قادر مختار..

عالم..

حي..

مريد كاره..

مدرك..

قديم أزلي باق أبدي..

متكلم..

انظر مقالات الاسلاميين والابانة في أصول الديانة وكتب العقائد عند أهل السنة..

[1] الكافي للكليني.

[2] نهج البلاغة: ج ٢ / ١٥٣...

صادق..

أما الخالق والرازق والمحيي والمميت وأمثالهما فهي من صفات الأفعال..

وصفاته السلبية سبع:

ليس بمركب..

ليس بجسم..

ليس محلا للحوادث..

ليس بمرئي لا في الدنيا ولا في الآخرة..

ليس له شريك..

ليس بمحتاج..

نفي المعاني والصفات عنه..

ومعنى حياته أنه ليس مثل الجمادات لا أنه ذو روح.

ومعنى مدرك أنه يبصر لا بعين ويسمع لا بأذن بل يدرك جميع المبصرات والمسموعات..

ومعنى متكلم أنه ينطق لا بلسان بل يوجد الكلام في بعض مخلوقاته كالشجرة حين كلم موسى وكجبريل حين أنزله بالقرآن..

ومعنى أنه ليس محلا للحوادث أو للأمور الصفات الحادثة..

ومعنى نفي المعاني والصفات عنه أن صفاته ليست مغايرة لذاته بل هي عين ذاته لئلا يلزم تعدد القدماء.

ويعتقدون أن الله تعالى منزه عن المكان والجهة والأعضاء والجوارح والشم والذوق واللون وكل لوازم الجسم وعن اللذة والألم..

ويعتقدون أن كل ما ورد من النقل مما ظاهره خلاف ذلك مثل قوله تعالى:

﴿الرحمن على العرش استوى﴾ ﴿إلى ربها ناظرة﴾ ﴿وجاء ربك﴾ ﴿يد الله فوق

أيديهم﴾ ﴿ومكروا ومكر الله﴾ ﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض﴾ ﴿ولو شاء الله ما اقتتلوا﴾ وغير ذلك. يجب تأويله ورده إلى ما حكم به العقل أو يكال علمه إليه تعالى [1] .

إن الشيعة ينفون التشبيه والتجسيم والرؤية ونسبة القبح إلى الله كما ينفون الجهة والتكلم..

يقول الإمام علي عن الرؤية: " لم تره العيون بمشاهدة الأبصار. ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان " [2] .

وقال الصادق عليه السلام: " لا جسم ولا صورة.. ولا يحس ولا يجس. ولا يدرك بالحواس الخمس. لا تدركه الأوهام، ولا تنقصه الدهور ولا تغيره الأزمان.. إن الله تعالى لا يشبه شيئا. ولا يشبهه شئ. وكل ما وقع في الوهم فهو بخلافه " [3] .

وقال: " هو سميع بصير. سميع بغير جارحة وبصير بغير آلة، بل يسمع بنفسه ويبصر بنفسه " [4] .

وقال الرضا عليه السلام: " كلام الخالق لمخلوق ليس ككلام المخلوق لمخلوق. ولا يلفظ بشق فم ولسان " [5] .

وقال الإمام علي عليه السلام حين سمع رجلا يقول والذي احتجب بسبع طباق.

فعلاه بالدرة. ثم قال: " يا ويلك، إن الله أجل من أن يحتجب عن شئ سبحان الذي لا يحويه مكان، ولا يخفى عليه شئ في الأرض ولا في السماء [6] .

---

[1] أعيان الشيعة، المجلد الأول، ق ٢ ص ٣: ٤.

[2] العقائد الإسلامية.. محمد مهدي الشيرازي.

[3] المرجع السابق.

[4] المرجع السابق.

[5] المرجع السابق.

[6] المرجع السابق.

وقال الصادق: " إن الله تبارك وتعالى لا يوصف بزمان. ولا مكان. ولا حركة. ولا انتقال. ولا سكون. بل هو خالق الزمان. والمكان. والحركة. والسكون والانتقال " [1].

وقال الكاظم عليه السلام: " إن الله تبارك وتعالى أجل وأعظم من أن يحد بيد. أو رجل. أو حركة أو سكون. أو يوصف بطول أو قصر. أو تبلغه الأوهام. أو تحيط بصفته العقول " [2].

وهذه الأقوال الواردة على لسان الأئمة إنما تحدد موقف الشيعة من النصوص التي تتحدث عن أسماء وصفات الله سبحانه، وهو موقف على ما هو واضح يختلف مع موقف أهل السنة اختلافا جذريا..

يقول الشيخ محمد جواد مغنية: وأما قوله تعالى: (إلى ربها ناظرة) فالمراد به النظر بالعقل والبصيرة لا بالعين البصر.. إن الله سميع بصير. ولكن لا بآلة، ولا جارحة. ومعنى سمعه وبصره أنه محيط بما يصلح أن يسمع ويبصر.. وأن التكلم من صفات الله الإضافية كالخلق والرزق. لا من الصفات الذاتية القديمة كالعلم والقدرة والحياة.. والإمامية ينكرون التجسيم أشد الإنكار ويؤولون اليد في الآيات بالقدرة والعرش بالاستيلاء والوجه بالذات ومجئ الله بمجيئ أمره.. [3].

إن صفاته عين ذاته فالله قادر بالذات لا بقدرة زائدة. وعالم بالذات لا بعلم زائد. وحي بالذات لا بغيرها. وعلى هذا قياس سائر الصفات الذاتية..
ولو افترض أن صفاته غير ذاته فإما أن تكون قديمة. وإما حادثة. وعلى الأول يلزم تعدد القديم. وعلى الثاني يلزم أن يكون الله قد وجد في الأزل بدون علم ولا حياة ولا قدرة. ولا شئ أبدا، لأن المفروض أن هذه الصفات قد حدثت

---

[1] المرجع السابق.

[2] المرجع السابق.

[3] معالم الفلسفة الإسلامية.. محمد جواد مغنية..

بعده. وكلاهما محال، فتعين أن صفاته عين ذاته ونفس حقيقته ولا شئ زائد عليها وقائم بها.. [1] .

- العدل:

جعل الشيعة العدل أصلا من أصول الاعتقاد وإن كان هناك خلاف على جعل العدل أصلا مستقلا وإدخاله ضمنا في التوحيد لتعلقه به..

والعدل يدخل فيه بحث القضايا المتعلقة بالجبر والاختيار ونسبة الظلم إلى الله سبحانه وتعالى والقضاء والقدر والحسن والقبح..

وسئل الإمام علي عليه السلام عن العدل والتوحيد فقال: " التوحيد أن لا تتوهم. والعدل أن لا تتهم " [2] .

وسئل الإمام الصادق عليه السلام عن العدل فقال: " أما العدل فأن لا تنسب إلى خالقك ما لامك عليه. ولا أمره - أي العبد - بشئ إلا وقد علم أنه لا يستطيع فعله. لأنه ليس من صفته العبث والجور والظلم. وتكليف العباد ما لا يطيقون" [3] .

وأفعال العبد نوعان: نوع تتعلق به إرادة واختيار كالذهاب والاياب والكتابة والقراءة. ونوع لا إرادة للعبد فيه ولا اختيار كالتنفس والنمو والحركة الدموية. والانسان مخير غير مسير في النوع الأول. ومسير غير مخير في النوع الثاني [4] .

وأفعال العبد الحسنة يأمر بها الله والقبيحة ينهى عنها وهو يعلمها. والعبد باختياره إن شاء فعل وإن شاء ترك.. [5] .

والأفعال منها ما هو حسن بحكم العقل لا باعتبار حكم الشرع كالصدق النافع وما إليه ومنها ما هو قبيح كذلك كالكذب الضار. ومنها ما لا يستقل

---

[1] المرجع السابق.

[2] المرجع السابق.

[3] المرجع السابق.

[4] معالم الفلسفة الإسلامية..

[5] العقائد الإسلامية..

العقل بالحكم عليه سلبا وإيجابا فنحتاج حينئذ إلى الشرع كوجوب الوفاء بعقد البيع وأكل لحم الميتة.. [1].

والشيعة لكونها تعتقد أن الله عادل حكيم لا يفعل قبيحا ولا يخل بواجب تقول إنه لو لم يكن كذلك لنسب إليه النقص سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا. وأيضا لو جاز عليه فعل القبيح لجاز عليه الكذب فيرتفع الوثوق بوعده ووعيده وترتفع الأحكام الشرعية وينقض الغرض المقصود من بعث الأنبياء والرسل [2].

وحول القضاء والقدر يقول الإمام علي: " إن الله عز وجل كلف تخييرا. ونهى تحذيرا. وأعطى على القليل كثيرا. ولم يعص مغلوبا. ولم يطع مكرها. ولم يخلق السماوات والأرض وما بينهما باطلا. ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار " [3].

***توحيد العبادة:**

يقول الإمام الرضا في دعائه: " اللهم إني برئ من الحول والقوة ولا حول ولا قوة إلا بك.

اللهم إني أعوذ بك وأبرأ إليك من الذين ادعوا لنا ما ليس لنا بحق..

اللهم إني أبرأ إليك من الذين قالوا فينا ما لم نقله في أنفسنا..

اللهم لك الخلق ومنك الرزق وإياك نعبد وإياك نستعين..

اللهم أنت خالقنا وخالق آبائنا الأولين وآبائنا الآخرين..

اللهم لا تليق الربوبية إلا بك. ولا تصلح الإلهية إلا لك فالعن النصارى الذين صغروا عظمتك والعن المضاهئين لقولهم من بريتك..

---

[1] معالم الفلسفة الإسلامية..

[2] النكت الاعتقادية.. الشيخ المفيد..

[3] العقائد الإسلامية..

اللهم إنا عبيدك وأبناء عبيدك لا نملك لأنفسنا نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا..

اللهم من زعم أرباب فنحن منه براء.. ومن زعم أن إلينا الخلق وعلينا أو إلينا الرزق فنحن براء منه كبراءة عيسى ابن مريم عليه السلام من النصارى..

اللهم إنا لم ندعهم إلى ما يزعمون فلا تؤاخذنا بما يقولون.. واغفر لنا ما يدعون ولا تدع منهم على الأرض ديارا إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا " [1].

إن هذا الدعاء الوارد على لسان إمام من أئمة الشيعة إنما يحدد صورة العبودية الخالصة وينفي كل صور الشرك التي تعلق بها البعض ونسبها إلى آل البيت. وهي الصورة التي يعرضها الدعاء إنما تلخص مفهوم العبادة عند الشيعة غير أن الشيعة لا تربط بين العبادة وبين مسألة التوسل وتعتقد أن التوسل أمر لا يتناقض مع العبودية لله.. وأن تعظيم الأنبياء وأولياء الله بينه بين العبادة بون شاسع وفرق جد كبير [2].

ولا خلاف بين الشيعة والسنة في عدم جواز عبادة غير الله إنما الخلاف يكمن في بعض الأعمال التي اعتبرتها بعض الاتجاهات داخل أهل السنة من الشرك وتعد عبادة لغير الله..

---

[1] معالم التوحيد في القرآن الكريم.. الشيخ جعفر السبحاني نقلا عن الاعتقادات للصدوق..

[2] المرجع السابق.

النتائج:

*تخلص من عرض قضية التوحيد عند أهل السنة إلى ما يلي:

- إن عقيدة التوحيد عند أهل السنة عبارة عن رد فعل في مواجهة الاتجاهات المختلفة..

- إن تباين الاتجاهات حول قضية التوحيد يساوي فرقة أهل السنة ببقية الفرق ويفقدها عنصر القيمومة على هذه الفرق..

- إنه ليست هناك قاعدة ثابتة للتعامل مع الآيات المتشابهة..

- إن السياسة تدخلت في صياغة ماهية التوحيد عندهم..

- إن توحيد ابن تيمية يمثل مدرسة شاذة في دائرة.. أهل السنة..

- إن التوحيد السائد بين المسلمين اليوم هو التوحيد الوهابي..

وإن صور التوحيد الأخرى لا مكان لها إلا في صفحات الكتب..

* ونخلص من عرض قضية التوحيد عند الشيعة إلى ما يلي:

- إن التوحيد عند الشيعة ابتعد عن متاهة التجسيم والتشبيه..

- إن التوحيد عند الشيعة أكثر ارتباطا بالقرآن والعقل..

- إن التوحيد عند الشيعة ثابت المعالم لا خلاف عليه في حدود المذهب..

- إن الشيعة لا ترى أن التوسل بالأنبياء والصالحين يتناقض مع التوحيد.

الفصل الثاني

النبوة

تمهيد

الإيمان بالنبي هو الركن الثاني من أركان الإسلام. وهو ركن لا خلاف فيه بين الفرق الإسلامية، إنما الخلاف يكمن في نظرة كل فرقة إلى النبي كشخصية تؤدي دورها في محيط الرسالة..

وسوف نعرض هنا لمجمل الخلاف حول هذا الأمر ثم نستعرض موقف كل من السنة والشيعة.

يقول فخر الرازي: إن الاختلاف في هذه المسألة واقع في أربعة مواضع.

الأول: ما يتعلق بالاعتقادية. واجتمعت الأمة على أن الأنبياء معصومون عن الكفر والبدعة إلا الفضلية من الخوارج فإنهم يجوزون الكفر على الأنبياء.

وذلك لأن عندهم يجوز صدور الذنوب عنهم. والروافض فإنهم يجوزون عليهم إظهار كلمة الكفر على سبيل التقية..

الثاني: ما يتعلق بجميع الشرائع والأحكام من الله تعالى، وأجمعوا على أنه لا يجوز عليهم التحريف والخيانة في هذا الباب لا بالعمد ولا بالسهو. وإلا لم يبق الاعتماد على شئ من الشرائع..

الثالث: ما يتعلق بالفتوى. وأجمعوا على أنه لا يجوز تعمد الخطأ. فأما على سبيل السهو فقد اختلفوا فيه.

الرابع: ما يتعلق بأفعالهم وأحوالهم. وقد اختلفوا فيه على خمسة مذاهب.

١ - الحشوية: وهو أنه يجوز عليهم الإقدام على الكبائر والصغائر..

٢ - إنه لا يجوز منهم تعمد الكبيرة البتة. وأما تعمد الصغيرة فهو جائز. بشرط أن لا تكون منفرة. وأما إن كانت منفرة فذلك لا يجوز عليهم..

٣ - إنه لا يجوز عليهم تعمد الكبيرة والصغيرة. ولكن يجوز صدور الذنب منهم على سبيل الخطأ في التأويل..

٤ - إنه لا يجوز عليهم الصغيرة ولا الكبيرة لا بالعمد ولا بالسهو ولا بالتأويل الخطأ.

أما السهو والنسيان فجائز ثم إنهم يعاتبون على ذلك بالسهو والنسيان. كما أن علومهم أكمل، فكان الواجب عليهم المبالغة في التيقظ..

٥ - إنه لا يجوز عليهم الكبيرة ولا الصغيرة لا بالعمد ولا بالتأويل ولا بالسهو ولا بالنسيان.. واختلفوا أيضا في وقت وجوب العصمة:

فقال بعضهم: إنها من أول الولادة إلى آخر العمر..

وقال الأكثرون: هذه العصمة إنما تجب في زمان النبوة. أما قبلها.. فهي غير واجبة وهو قول أكثر أصحابنا.. [١].

وما يجب التركيز عليه هنا من بين هذه الأقوال هو ما يتعلق بالسنة والشيعة منه.

---

[١] عصمة الأنبياء، ط. بيروت. وانظر تفسير قوله تعالى: (لا ينال عهدي الظالمين) في تفسير الرازي..

النبوة عند أهل السنة

يعتقد أهل السنة أن إرسال الرسل إنما هو بمحض فضل من الله تعالى وواجب في حقهم الأمانة أي حفظ ظواهرهم وبواطنهم من التلبس بمنهي عنه.

أما المحرم فلك يقع منهم إجماعا ومأواهم المعصية فمؤول..

وواجب في حقهم الصدق والفطانة والتبليغ ويستحيل في حقهم ضد هذه الصفات.. أما السهو فممتنع عليهم في الأخبار البلاغية وغير البلاغية.

وجائز عليهم في الأفعال البلاغية أما النسيان فهو ممتنع في البلاغيات قبل تبليغها قولية كانت أو فعلية. أما بعد التبليغ فيجوز نسيان ما ذكر الله تعالى أما نسيان الشيطان فمستحيل عليهم. ويجوز على ظواهرهم ما يجوز على البشر مما لا يؤدي إلى نقص وأما بواطنهم فمنزهة عن ذلك متعلقة بربهم.. [١] .

ويقول ابن حزم: والسهو منهم قد ثبت بيقين وأيضا فإن ندب الله تعالى لنا إلى التأسي بهم لا يمنع من وقوع السهو منهم لأن التأسي بالسهو لا يمكن إلا بسهو منا.. إننا مأمورون إذا سهونا أن نفعل كما فعل رسول الله صلى الله عليه وآله إذا سها.. [٢] .

ويعتبر ابن تيمية أن إنكار السهو من الغلو في عصمة الأنبياء وأن هذا القول لم يوافق عليه أحد من أهل السنة.. [٣]

وقال الأشاعرة: يجوز على الأنبياء الكبائر والصغائر سهوا. إلا الكفر والكذب وعلى هذا طوائف أخرى من أهل السنة.

---

[١] شرح البيجوري على الجوهرة..

[٢] الفصل في الملل والنحل، ج ٤ / ٢..

[٣] ابن تيمية ليس سلفيا..

وهذا التصور الذي يطرحه أهل السنة بالنسبة لقضية العصمة إنما هو مرتبط بفترة ما بعد البعثة. أما فترة ما قبل البعثة فقد جوزوا عليهم الكبائر والصغائر عمدا وسهوا.. [1].

وقال القاضي عياض: وأما عصمتهم من هذا الفن قبل النبوة فللناس فيه خلاف. والصواب أنهم معصومون قبل النبوة من الجهل بالله وصفاته والتشكك في شئ من ذلك.

وقال القشيري: والذي صار إليه المعظم أن الله ما بعث نبيا إلا كان مؤمنا به قبل البعثة.. وإجماع أهل السنة على جواز وقوع النسيان من الرسول صلى الله عليه وآله لكنهم اختلفوا فيما يكون النسيان. هل ينسى في التبليغ عن الله ما يتعلق بالأحكام والأفعال..؟

قال القاضي عياض: عامة العلماء والأئمة النظار كما هو ظاهر القرآن والحديث.

لكن شرط الأئمة أن الله تعالى ينبه على ذلك ولا يقره عليه وقال البعض: من شرط التنبيه اتصاله بالحادثة على الفور.

وقال آخرون: يجوز في ذلك التراخي ما لم ينخرم العمر وينقطع تبليغه.. [2]..

يقول ابن تيمية:.. والعصمة فيما يبلغونه عن الله ثابتة فلا يستقر في ذلك خطأ باتفاق المسلمين.. وأما العصمة في غير ما يتعلق بتبليغ لرسالة فللناس فيه نزاع هل هو ثابت بالعقل أو بالسمع؟ ومتنازعون في أن العصمة من الكبائر والصغائر أو من بعضها. أم هل العصمة إنما في الإقرار عليها لا في فعلها؟ أم لا يجب القول بالعصمة إلا في التبليغ فقط؟ وهل تجب العصمة من الكفر

---

[1] أنظر عظمة الأنبياء وكتب العقائد..

[2] (الجامع لأحكام القرآن ج ٧ / تفسير قوله تعالى: (وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين).

والذنوب قبل المبعث أم لا؟ والكلام في هذا مبسوط في غير هذا الموضع. والقول الذي عليه جمهور الناس وهو الموافق للآثار المنقولة عن السلف إثبات العصمة من الإقرار على الذنوب مطلقا. والرد على من يقول إنه يجوز إقرارهم عليها. وحجج القائلين بالعصمة إذا حررت إنما تدل على هذا القول. وحجج النفاة لا تدل على وقوع الذنب أقر عليه الأنبياء فإن القائلين بالعصمة احتجوا بأن التأسي مشروع وذلك لا يجوز إلا من تجويز كون الأفعال ذنوبا. ومعلوم أن التأسي بهم إنما هو مشروع فيما أقروا عليه دون ما نهوا عنه. كما أن الأمر والنهي إنما تجب طاعتهم فيما لم ينسخ منه، فأما ما نسخ من الأمر والنهي فلا يجوز جعله مأمورا به ولا منهيا عنه، فضلا عن وجوب اتباعه والطاعة فيه.

وكذلك ما احتجوا به من أن الذنوب تنافي الكمال أو أنها ممن عظمت عليه النعمة أقبح أو أنها توجب التنفير أو نحو ذلك من الحجج العقلية فهذا إنما يكون مع البقاء على ذلك وعدم الرجوع. وإلا فالتوبة النصوح التي يقبلها الله يرفع بها صاحبها إلى أعظم مما كان عليه. كما قال بعض السلف كان داود عليه السلام بعد التوبة خيرا منه قبل الخطيئة..

وقال: لو لم تكن التوبة أحب الأشياء إليه لما ابتلى بالذنب أكرم الخلق عليه.. [1] .

وشن ابن تيمية كعادته هجوما شديدا على المتأولين الذين يؤولون النصوص المتعلقة بالعصمة فيقول: والرادون لذلك - يقصد رأيه وما ينسب للسلف - تأولوا ذلك بمثل تأويلات الجهمية والقدرية والدهرية لنصوص الأسماء والصفات ونصوص القدر ونصوص المعاد. وهي من جنس تأويلات القرامطة والباطنية التي يعلم بالاضطرار أنها باطلة وأنها من باب تحريف الكلم عن مواضعه.. [2] .

---

[1] فتاوى ابن تيمية: ج ٢ / ٢٨٢ وما بعدها..

[2] المرجع السابق.. وتأمل هجومه على المتأولين. كأن ابن تيمية يغيظه الدفاع عن الرسل ورفع مكانتهم..

ويرفض ابن تيمية فكرة العصمة قبل البعثة ويرد على أصحاب هذا الاتجاه قائلا:.. وبهذا يظهر جواب شبهة من يقول: إن الله لا يبعث نبيا إلا من كان مؤمنا قبل النبوة فإن هؤلاء توهموا أن الذنوب تكون نقصا وإن تاب التائب منها وهذا منشأ غلطهم فمن ظن أن صاحب الذنوب مع التوبة النصوح يكون ناقصا فهو غالط غلطا عظيما فإن الذم والعقاب الذي يلحق أهل الذنوب لا يلحق التائب منها شئ أصلا لكن إن قدم التوبة لم يلحقه شئ وإن أخر التوبة فقد يلحقه ما بين الذنوب والتوبة من الذم والعقاب ما يناسب حاله والأنبياء كانوا لا يؤخرون التوبة بل يسارعون إليها ويسابقون إليها لا يؤخرون ولا يصبرون على الذنب بل هم معصومون من ذلك، ومن أخر ذلك زمنا قليلا كفر الله ذلك بما يبتليه به كما فعل بذي النون هذا على المشهور أن إلقاءه كان بعد النبوة. وأما من قال إن إلقاءه كان قبل النبوة فلا يحتاج إلى هذا والتائب من الكفر والذنوب قد يكون أفضل ممن لم يقع في الكفر والذنوب.. بل من عرف الشر وذاقه فقد تكون معرفته بالخير ومحبته له ومعرفته بالشر وبغضه له أكمل ممن لم يعرف الخير والشر ويذوقهما كما ذاقهما. بل من لم يعرف إلا الخير فقد يأتيه الشر فلا يعرف أنه شر. فإما أن يقع فيه. وإما أن لا ينكره كما أنكره الذي عرفه.. [1] .

يقول الأستاذ منصور عويس: وهكذا منطق ابن تيمية العجيب في شأن الأنبياء عليهم السلام وكأنهم بشر عاديون ونسي أن الأنبياء لا يليق أن يطبق على شخصياتهم أمثال تلك الأقيسة التي جاء بها. ولا يصح أن يتحدث في أمرهم بتلك البساطة وهذا الأسلوب. لأنهم صفوة عباد الله الذين اصطفاهم الله واختارهم. فمع إيماننا ببشريتهم نؤمن بما أضفاه الله عليهم من اصطفاء. إننا نؤمن بسمو اجتباء الله لهم واختياره إياهم [2] .

---

[1] المرجع السابق..

[2] ابن تيمية ليس سلفيا..

*** أهل السنة والقرآن:**

إن الحديث عن النبوة يفرض علينا الحديث عن القرآن الذي جاء به النبي ﷺ ما هي ملامحه، وكيف ينظر أهل السنة إلى كتاب الله..؟

يروي البخاري كيف بدأ الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وآله..؟

.. إن الحارث بن هشام سأل رسول الله فقال يا رسول الله كيف يأتيك الوحي..؟

فقال الرسول: أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي فيفصم عني وقد وعيت لما قال.. وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول..

وقالت عائشة: أول ما بدئ به رسول الله من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم.. ثم حبب إليه الخلاء وكان يخلو في غار حراء..

وكان يتعبد الليالي ثم يعود إلى خديجة ويتزود ثم يرجع ويكرر ذلك حتى جاءه الحق وهو في الغار..

ورجع الرسول إلى خديجة يرجف فؤاده قائلا: زملوني.. زملوني..

وزملوه حتى ذهب عنه الروع..

وأخبر خديجة بالأمر فأخذته إلى ورقة بن نوفل النصراني.. وقال ورقة هذا الناموس الذي نزل على موسى..

وتنبأ بإخراج الرسول من مكة ومعاداة قومه له..

وقابل الرسول هذه النبوات بالدهشة..

ثم ظهر الوحي مرة أخرى بعد انقطاع ينادي الرسول من السماء..

ورفع الرسول بصره فوجد الملك الذي جاءه بحراء جالسا على كرسي بين السماء والأرض فرعب منه ورجع إلى خديجة قائلا: زملوني..

وأنزل الله تعالى: ﴿**يا أيها المدثر * قم فأنذر**﴾.

ثم حمى الوحي وتتابع..

وكان الرسول يعالج من التنزيل شدة..

كان الوحي يلقاه في كل ليلة في رمضان..

هذه قصة الوحي كما وردت في البخاري وهي تعكس لنا صورة تحمل الكثير من الملاحظات حول الوحي وحول شخصية الرسول وحول دور ورقة..

الملاحظة الأولى: هذا الوحي الذي يأتي تارة كصلصلة الجرس ويكون شديدا على الرسول. وتارة يأني صورة رجل فيعي الرسول كلامه..

في الصورة الأولى لا يعي الرسول منه شيئا إلا بعد معاناة..

وفي الثانية يعي منه كل شئ..

في الأولى يكون عنيفا..

وفي الثانية يكون لينا..

والسؤال الذي يطرح نفسه: لماذا يأتي الوحي بهذه الصورة المتناقضة إن الإجابة على هذا السؤال تقودنا للخوض في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج.. تقودنا للخوض في مسألة الروايات ومدى تأثيرها في العقيدة وكيف أن العقيدة أصبحت تصاغ وتتشكل حسب الروايات وليس حسب نصوص القرآن القطعية..

تقودنا للخوض في قضية الاسرائيليات ومدى الاختراق اليهودي لعقائد المسلمين. وهي قصية شائكة وليست محور بحثنا هذا. فقط ما أردنا بيانه هو أن هذه الملاحظات ليست إلا دعوة لإعمال العقل في هذه النصوص.

الملاحظة الثانية: هذه الرؤى المنامية التي كانت أول صورة من صور الوحي يراها الرسول كيف تتواءم مع خروجه إلى الخلاء وخلوته في غار حراء..؟

إذا كان ما يراه في المنام وحيا. فمعنى هذا أن خروجه وخلوته صورة من صور العبث. وهي توحي بأنه لم يكن يثق فيما يرى ويضطر إلى الخروج والخلوة بحثا عن الحقيقة. فهل كان الرسول عابثا. وهل كان شاكا..؟

ثم كيف لرسول يتحرك لإبلاغ أمته رسالة ربه عن طريق الرؤى والمنام..؟ وهو لم يخبر حتى ماذا رأى في المنامات من أمر الوحي..

أليست قضية المنامات هذه ثغرة للخصوم والمناوئين لدعوته كي ينفذوا منها لضرب الدعوة والتشكيك فيها..؟

الملاحظة الثالثة: ذهاب الرسول المتكرر إلى غار حراء. ما هي دوافعه..؟

هل كان الرسول يأمل أن يختاره الله ويهيئ نفسه لهذا الدور؟

ومن أين أتاه الأمل؟

ولماذا اختار غار حراء ليكون ميدان تحقيق رغبته..؟

وإذا كان الأمر كذلك لماذا فر الرسول مرعوبا من الوحي..؟

هل اعتبره مفاجأة له..؟

أم لم يكن يتوقعه من الأصل..؟

وما معنى أن يفر نبي من أمام الوحي هارعا نحو زوجته مرتين..؟

والاجابة على هذه التساؤلات تضع الرسول بين أمرين: إما أن يكون هذا الرسول مهزوزا ضعيفا ليس على مستوى الرسالة.

وإما أن يكون جاهلا أقحم نفسه فيما لا شأن له به وكلا الأمرين يدفعان إلى التشكيك بالوحي وبالرسول..

وكان لا بد من هذه الوقفة مع قضية الوحي قبل استعراض رؤية أهل السنة للقرآن.

يقول القرطبي في تفسيره: كان القرآن في مدة النبي صلى الله عليه وآله متفرقا في صدور الرجال. وقد كتب الناس منه في صحف وفي جريد وفي لخاف وظرر وغير ذلك.. [1] .

---

[1] الجامع لأحكام القرآن..

فلما استحر القتل بالقراء يوم اليمامة في زمن أبي بكر.. وقتل منهم في ذلك اليوم فيما قيل سبعمائة. أشار ابن الخطاب على أبي بكر بجمع القرآن مخافة أن يموت أشياخ القراء كأبي وابن مسعود وزيد. فندبا زيد بن ثابت إلى ذلك، فجمعه غير مرتب السور بعد تعب شديد.. [١].

وروى البخاري عن زيد بن ثابت قال: أرسل إلي أبو بكر يوم مقتل أهل اليمامة وعنده عمر فقال أبو بكر: إن عمر أتاني فقال أن القتل قد استحر يوم اليمامة بالناس. وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء في المواطن. فيذهب كثير من القرآن إلا أن تجمعوه. وإني لأرى أن تجمع القرآن. قال أبو بكر: فقلت لعمر: كيف أفعل شيئا لم يفعله رسول الله..؟ فقال هو والله خير. فلم يزل يراجعني حتى شرح الله لذلك صدري. ورأيت الذي رأى عمر. قال زيد: وعنده عمر جالس لا يتكلم. فقال لي أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل ولا نتهمك.

كنت تكتب الوحي لرسول الله. فتتبع القرآن فاجمعه. فوالله لو كلفني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن. قلت: كيف تفعلان شيئا لم يفعله رسول الله. فقال أبو بكر هو والله خير. فلم أزل أراجعه حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبو بكر وعمر. فقمت فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف والعسب وصدر الرجال حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع خزيمة الأنصاري ولم أجدهما مع غيره. ﴿**لقد جاءكم رسول من أنفسكم..**﴾ إلى آخرها. فكانت الصحف التي جمع فيها القرآن عند أبي بكر حتى توفاه الله ثم عند عمر حتى توفاه الله ثم عند حفصة بنت عمر..

وقال الترمذي: فوجدت آخر سورة براءة مع خزيمة بن ثابت..

وفي البخاري عن زيد بن ثابت قال: لما نسخنا الصحف في المصاحف فقدت آية من سورة الأحزاب كنت أسمع رسول الله يقرؤها. لم أجدها إلا مع خزيمة الأنصاري ﴿**رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه**﴾.. وروى الترمذي نفس الكلام.

---

[١] المرجع السابق. وانظر تاريخ القرآن للزنجاني..

يقول القرطبي عن الجمع الثاني للقرآن الذي قام به عثمان. أرسل إلى أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك.. وكان سبب ذلك أن القوم اختلفوا وعظم اختلافهم وتشبثهم وأظهر بعضهم إكفار بعض والبراءة منه وتلاعنوا.. [1] .

وكان أن قام عبد الله بن الزبير وزيد بن ثابت وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام بنسخ القرآن في المصاحف ورد عثمان الصحف إلى حفصة وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا وأمر بما سوى ذلك من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن تحرق. وكان هذا من عثمان بعد أن جمع المهاجرين والأنصار وجلة أهل الإسلام وشاورهم في ذلك فاتفقوا على جمعه بما صح وثبت في القراءات المشهورة عن النبي وإطراح ما سواها..

ونقل القرطبي عددا من الروايات التي تشير إلى أن هناك خلافات وقعت بين الصحابة حول مسألة جمع القرآن..

ومن هذه الروايات رواية تقول إن ابن مسعود كره لزيد نسخ المصاحف.

وقال يا معشر المسلمين: أعزل عن نسخ المصاحف ويتولاه رجل - يريد زيد بن ثابت - والله لقد أسلمت وإنه لفي صلب رجل كافر.. [2] .

ونقل الترمذي أن ابن مسعود خطب في أهل العراق يقول: يا أهل العراق اكتموا المصاحف التي عندكم وغلوها. فإن الله عز وجل يقول: ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة.. فالقوا الله بالمصاحف.. [3] .

ودافع أبو بكر الأنباري عن موقف أبو بكر وعمر تجاه زيد وتقديمه على ابن مسعود في جمع القرآن.. [4] .

---

[1] الجامع لأحكام القرآن..

[2] المرجع السابق، وانظر رفض ابن مسعود الاعتراف بمصحف عثمان في البخاري. كتاب فضل القرآن.

[3] أنظر الترمذي، وكتب تاريخ القرآن.

[4] أنظر تاريخ القرآن لعبد الصبور شاهين والزنجاني وغيرهما..

وقال يزيد بن هارون: المعوذتان بمنزلة البقرة وآل عمران. من زعم أنهما ليستا من القرآن فهو كافر بالقرآن العظيم. فقيل له: فقول ابن مسعود فيهما..؟

فقال: لا خلاف بين المسلمين في أن عبد الله بن مسعود مات وهو لا يحفظ القرآن كله.. [1].

وقال أنس بن مالك جمع القرآن على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله أربعة كلهم من الأنصار: أبي بن كعب. ومعاذ بن جبل. وزيد بن ثابت. وأبو زيد.. [2].

ويبدو من خلال استقراء تاريخ القرآن أن هناك طعونا كثيرة وجهت لمصحف عثمان من الصحابة والسلف. فمن المعروف أن الإمام عليا كان له مصحف يبدأ بسورة العلق وكان لابن عباس مصحف فيه كلمات لا توجد في مصحف عثمان وكذلك أبي بن كعب.. [3].

وروى مسلم: بعث أبو موسى الأشعري إلى قراء أهل البصرة فدخل عليه ثلاثمائة رجل قد قرأوا القرآن. فقال أنتم أخيار أهل البصرة وقراؤهم فاتلوه ولا يطولن عليكم الأمد فتقسوا قلوبكم كما قست قلوب من كان قبلكم. وإنا كنا نقرأ سورة كنا نشبهها في الطول والشدة ببراءة فأنسيتها غير أني قد حفظت منها لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى واديا ثالثا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب.. [4].

وقال عمر: لولا أن يقول الناس زاد عمر بن الخطاب في كتاب الله لكتبتها: الشيخ والشيخة فارجموهما البتة.. [5].

---

[1] أنظر المراجع السابقة..

[2] المراجع السابقة.

[3] المرجع السابقة.

[4] مسلم: ج ٣ / ١٠٠ باب الزكاة.. وانظر موطأ مالك ومسند أحمد.

[5] أنظر مستدرك الحاكم، والاتقان في علوم القرآن للسيوطي والمراجع السابقة.

وروى الحاكم وابن جرير: أن عمر قال لما نزلت - آية الرجم - أتيت رسول الله صلى الله عليه وآله فقلت اكتبها. فكأنه كره ذلك. وقال عمر ألا ترى أن الشيخ إذا زنى ولم يحصن جلد وأن الشاب إذا زنى وقد أحصن رجم.. [1].

وعن أ بي بن كعب قال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: إن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن. قال: فقرأ ﴿**لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب**﴾ فقرأ فيها (لو أن ابن آدم سأل واديا من مال فأعطيه لسأل ثانيا. فلو سأل ثانيا فأعطيه لسأل ثالثا. ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب. وأن ذلك الدين القيم عند الله الحنيفية غير المشركة ولا اليهودية ولا النصرانية ومن يعمل خيرا فلن يكفره).. [2].

وفي مسند أحمد عن أبي واقد الليثي قال كنا نأتي النبي صلى الله عليه وآله إذا أنزل عليه فيحدثنا. فقال لنا ذات يوم إن الله عز وجل قال: إنا أنزلنا المال لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ولو كان لابن آدم واد لأحب أن يكون له ثان. ولو كان له واديان لأحب أن يكون لهما ثالث ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ثم يتوب الله على من تاب..) [3].

وروى الطبراني والبيهقي أن من القرآن سورتين. الأولى منهما: (بسم الله الرحمن الرحيم اللهم إنا نستعينك ونستغفرك ونثني عليك الخير ولا نكفرك ونخلع ونترك من يفجرك..).

والثانية منهما: (بسم الله الرحمن الرحيم اللهم إياك نعبد ولك نصلي ونسجد وإليك نسعى ونحفد نرجو رحمتك ونخشى عذابك الجد إن عذابك بالكفار ملحق..) [4].

---

[1] المراجع السابقة..

[2] أنظر مسند أحمد والمراجع السابقة..

[3] المراجع السابقة..

[4] المراجع السابقة..

ويروي ابن عباس أن عمر قال وهو على المنبر: إن الله بعث محمدا بالحق. وأنزل عليه الكتاب. كان مما أنزل الله آية الرجم. فقرأناها وعقلناها ووعيناها فلذا رجم رسول الله صلى الله عليه وآله ورجمنا بعده. فأخشى إن طال بالناس زمان أن يقول قائل: والله ما نجد آية الرجم في كتاب الله فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله. والرجم في كتاب الله حق على من زنى إذا أحصن من الرجال.. ثم إنا كنا نقرأ من كتاب الله: (إن لا ترغبوا عن آبائكم فإنه كفر بكم أن ترغبوا عن آبائكم. أو كفرا بكم أن ترغبوا عن آبائكم..) [1].

ومثل هذه الرويات كثير تكتظ بها كتب القوم..

*** أهل السنة والحديث:**

ما هو موقف أهل السنة من الروايات النبوية.. وكيف يتناولونها..؟

إن أهل السنة يعتبرون أحاديث الرسول صلى الله عليه وآله هي المصدر الثاني من مصادر الفقه والتشريع، ويعرفون الحديث بأنه الرواية الواردة عن الرسول، والتي تتناول كل ما صدر عنهم بشكل عام فيما يخص عصر النبي حتى ولو كان منسوخا فيما لا يخص التشريع..

ويعرفون السنة بأنها ما ورد عن النبي من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خلقية..

فالحديث هو الجانب النظري من أقوال الرسول..

والسنة في الجانب العملي منها.. [2].

من هنا فإن الأساس الذي ترتكز عليه الرواية هو الصحابي، والصحابة عندهم متفاوتون في الرواية عن الرسول ﷺ، ومرجع هذا التفاوت يعود إلى

---

[1] أنظر البخاري: ج ٨ / ٢٦. ومسلم: ج ٥ / ١١٦. وللتوسع في هذا الأمر انظر المراجع السابقة والبيان في تفسير القرآن للخوئي، وآلاء الرحمن في تفسير القرآن للبلاغي ومجمع البيان للطبرسي لترى كيف جنى القوم على القرآن برواياتهم..

[2] يعرف أهل السنة السنة بأنها ما ورد عن الرسول من قول أو فعل أو تقرير أو صفة وما عدا قول الرسول فهو سنة عملية..

الفترة التي عاصر فيها هذا الصحابي رسول الله ومدى تفرغه لمجالسته بالإضافة إلى قوة حفظه..

وعلى هذا الأساس اعتبر أبو هريرة وعائشة من ا لمكثرين في الرواية عن الرسول لملاصقتهم به وتفرغهم له.

يروي أبو هريرة عن نفسه: وإن إخواني من المهاجرين كان يشغلهم الصفق (البيع) بالأسواق. وإن إخواني من الأنصار كان يشغلهم عمل أموالهم وكنت امرءا مسكينا ألزم رسول الله ﷺ على ملء بطني. فأحضر حين يغيبون. وأوعى حين ينسون.. [1].

ويروي أيضا: وكنت أكثر مجالسة لرسول الله صلى عليه وآله أحضر إذا غابوا وأحفظ إذا نسوا.. [2].

أما عائشة فلأنها كانت زوجة النبي وأحب نسائه إليه كما يروون.. [3].

ومن المعروف أن السنة دونت في فترة متأخرة، والسبب في ذلك يعود إلى أن الرسول نهى عن كتابة شئ غير القرآن.. [4].

إلا أن أهل السنة يروون ما يفيد الإذن بالكتابة من الرسول، وذلك في رواية عبد الله بن عمرو بن العاص قوله: كنت أكتب كل شئ أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وآله أريد حفظه فنهتني قريش. وقالوا: أتكتب كل شئ تسمعه ورسول الله بشر يتكلم في الغضب والرضا..؟

فأمسكت عن الكتابة، فذكرت لرسول الله، فأومأ بإصبعه إلى فيه. فقال: " اكتب فوالذي نفسي بيده ما يخرج منه إلا حق " [5].

---

[1] البخاري: ج ٣: ١٣٥ بهامش فتح الباري..

[2] مسند أحمد: ج ١٤ / ١٢٢.

[3] أنظر كتب علوم الحديث وكتب السنن وتلقيح فهوم الأثر..

[4] يروي مسلم وأحمد أن رسول الله ﷺقال: لا تكتبوا عني. ومن كتب عني غير القرآن فليمحه. وحدثوا عني ولا حرج.. وقد دونت السنة في عهد عمر بن عبد العزيز حين أمر الزهري بجمع الأحاديث

[5] رواه أبو داوود: ج ٤ / ٦٠.. وفي معالم السنن: يشبه أن يكون النهي متقدما وآخر الأمرين الإباحة. ويقولون إن الرسول صلى الله عليه وآله صرح بالكتابة لأناس معينين. فمن هم هؤلاء..؟

ولما كان النهي ثابتا والأمر ثابتا فقد عمل أهل السنة على التوفيق بين النصين المذكورين بأسلوب التأويل والتبرير الذي دأبوا عليه واعتبروا أن الإذن بالكتابة ناسخ لما قبله من النهي عن الكتابة.. [1] .

ولنا ملاحظات حول الرواية الواردة على لسان ابن عمرو هي ما يلي:

إن قوله " فنهتني قريش " يشير إلى أن الناهين هم طائفة المهاجرين.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو لماذا لم تنهه الأنصار أيضا..؟ ولماذا أخذ بقول قريش فقط..؟ وهل كانت هناك طائفية في المدينة، كل طائفة لها موقف ووجهة مختلفة في قضايا الدين..؟

وإذا كانت قريش هي القائلة: " ورسول الله بشر يتكلم في الغضب والرضا ".. فهل كانت الأنصار تقول بغير ذلك..؟

وهل يعني قول قريش هذا ترسيخ اعتقاد أهل السنة في عصمة النبي ورؤيتهم العامة في شخصيته..؟

وهل يشير هذا إلى أن عقيدة أهل السنة تقوم على أساس رؤية قريش دون رؤية الأنصار..؟ [2] .

ثم ماذا يفيد قول الرسول ﷺ لابن عمرو وهو يشير إلى فيه: " اكتب فوالذي نفسي بيده ما يخرج منه إلا حق ". هل يعني تحدي قريش التي تشكك في أقوال الرسول، وأنه من الممكن أن يتكلم في الغضب كلاما غير كلامه في

---

[1] أنظر معالم السنن للخطابي: ج ٤ / ١٨٤.

[2] هناك دلائل تاريخية تفيد أن حزب قريش كانت له وجهة وموقف تجاه الرسول صلى الله عليه وآله ورواياته تختلف عن وجهة وموقف الأنصار خاصة فيما يتعلق بقضية الإمامة وآل البيت. وقد برز هذا الموقف بعد وفاة الرسول واجتماع السقيفة. ومن الملاحظ أن أغلب شيعة الإمام علي عليه السلام في عهد الرسول من الأنصار والمهاجرين من غير قريش. انظر لنا السيف والسياسة.

الرضا..؟ وهل يعني هذا أن الرسول له شخصية في الغضب وشخصية في الرضا..؟

ألا يتناقض هذا مع قوله تعالى: ﴿**وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحي يوحى..**﴾ النجم / ٣ – ٤.

قال عبد الله بن الزبير. قلت للزبير: إني لا أسمعك تحدث عن رسول الله ﷺ كما يحدث فلان وفلان. قال: أما إني لم أفارقه. ولكني سمعته يقول: " من كذب علي فليتبوأ مقعده من النار " [١].

وروى أنس بن مالك.. قال: إنه ليمنعني أن أحدثكم حديثا كثيرا أن النبي ﷺ قال: " من تعمد علي كذبا فليتبوأ مقعده من النار " [٢].

وهذا الموقف من الرواية عن الرسول ليكن ينحصر في الزبير ومالك، إنما موقف كثير من الصحابة.. [٣].

ومثل هذا الروايات إنما تشير إلى أن حملة الكذب على الرسول كانت تقوم بنشاطها في حياته وهي قد نشطت بعد مماته. فلا يعقل أن يحذر الرسول من شئ غير ممكن الوقوع. وهذا الكذب بالطبع لا بد من أن يبدأ على لسان قوم ممن احتكوا بالرسول. فلا يدعي أحد أنه سمع رسول الله يقول.. دون أن يكون المتلقي منه يعلم أنه قد عاصره..

وبصورة واضحة محددة فإن الرسول صلى الله عليه وآله كان يحذر من الكذب لعلمه أن هناك من يكذبون عليه من أصحابه، وهم سوف يستمرون في الكذب عليه بعد وفاته، وأن التابعين سوف يتلقون هذا الكذب بالقبول لكونه صادرا عن أناس ثقات عاصروا الرسول.. [٤].

---

[١] البخاري: ج ١ / ٢٠٠ بهامش فتح الباري وأبو داوود: ج ٤ / ٦٣.

[٢] المرجع السابق..

[٣] روي عن أبي قتادة الأنصاري نفس الرواية، وهو يتبنى نفس الموقف، وكذلك المقداد وطلحة وابن عوف. وتأمل عدد الرويات على لسان أبي بكر في البخاري مثلا..

[٤] قضية الكذب كانت واردة في عصر الصحابة، وهناك الكثير من الروايات التي تشير إلى ذلك، إلا أن أهل السنة يؤولون الكذب الوارد فيها على أنه الخطأ.

وهذا يفسر لنا موقف عمر بن الخطاب الذي كان كثير الاعتداء على الصحابة الذين يروون على لسان الرسول، وكان يطلب منهم شهورا يشهدون لهم على صحة ما يقولون. وكذلك فعل أبو بكر من قبله وعائشة.. [1] .

إلا أن أهل السنة لا يرون تمييزا بين صحابي وآخر.. ومن ثم فهم لا يجيزون تجريح الصحابي ويقولون: من ثبتت صحبته ثبتت عدالته. فجميع الصحابة عندهم عدول لا استثناء.. [2] .

وهذا يقودنا إلى قضية جديدة تتعلق بموضوعنا وهي قضية المتن والسند.

أما المتن فيقصد به نص الحديث الوارد على لسان الرسول.. وأما السند فيقصد به سلسلة الرواة الذين أسندوه للصحابي الذي رواه عن الرسول.

وفيما يتعلق بالمتن فإنهم لا يجيزون نقده ولا إعمال العقل فيه حتى ولو كان يخالف القرآن. فإنه يوفق بين نص الحديث ونص القرآن من غير نفي أو إنكار لنص الحديث ما دامت طرقه صحيحة عندهم، حتى أنهم يقولون بجواز نسخ القرآن بالحديث.. [3] .

وهل الكذب ليس بخطأ. انظر لسان العرب مادة " كذب " ويروي مسلم. ج ٣ / ١٤٤١ قول النبي ﷺ: كذب من قال ذلك. أي أخطأ م قال ذلك من الصحابة. انظر شرح النووي وقصة غزوة خيبر. وكذلك قول ابن عباس: كذب نوف حين ادعى أن صاحب الخضر ليس موسى بني إسرائيل. انظر البخاري: ج ٩ / ٢٤٠.

[1] تأمل قول عمر للأشعري حين سمعه يروي حديثا لم يعرفه: فوالله لأوجعن ظهرك وبطنك أو لتأتين بمن يشهد لك على هذا. انظر مسلم: ج ٣ / ١٦٩٦. وموطأ مالك: ج ٢ / ٩٦٤. وكان عمر قد هدد أبا هريرة لكثرة رواياته، وكذلك عائشة. انظر أضواء على ألسنة المحمدية وأبو هريرة شيخ المضيرة لأبي رية..

[2] أنظر فصل الرجال من هذا الكتاب.. وهذا التعريف يتناقض مع أحاديث الحوض المروية في البخاري والتي تشير إلى ردة الصحابة من بعد الرسول..

[3] أنظر كتب علوم القرآن، وكتاب تفسير السنية. ويذكر أن نقد المتن عند أهل السنة إنما ينحصر في دائرة الموضوعات الواضحة والتي تدخل ضمن الأحاديث الموضوعة. لكنهم لا يتجهون بالنقد إلى الأحاديث التي تثبت صحتها بطرقهم رغم تناقضها مع القرآن والعقل..

أما السند فيدخل جميع الرواة تحت طائلة الجرح والتعديل عدا الصحابي. أي يمكن الخوض في سيرة وتاريخ وسلوك ومواقف راوي الحديث من أجل الوصول إلى تعديله وقبول روايته أو تجريحه ورفض روايته..

وهذا أمر جعلوا له علما قائما بذاته أسموه علم الجرح والتعديل وهدفه الوصول إلى صدق وأمانة الرواي حتى تقبل روايته.. [1].

ويعرف أهل السنة عدالة الرواي بأحد أمرين:

الأول: أن يشتهر حال الراوي بالعدالة والتقوى بين الناس حتى لا يغيب ذلك عن جمهور الأمة.. ومن ذلك رواه تاج الدين السبكي في كتابه (من ثبتت إمامته وعدالته. وكثر مادحوه ومزكوه. وندر جارحوه. وكانت هناك قرينة دالة على سبب جرحه من تعصب لمذهبي أو غيره، فإنا لا نلتفت إلى الجرح فيه، ونعمل فيه بالعدالة).

الثاني: تزكية النقاد العارفين.. فإذا شهد للراوي عدد من العلماء أو واحد على الأقل بأنه عدل فإن ينتقل من دائرة الجهالة إلى دائرة العدالة.. [2].

وقال ابن أبي حاتم: ووجدت الألفاظ في الجرح والتعديل على مراتب شتى. وإذا قيل للواحد: إنه ثقة أو متقن ثبت فهو ممن يحتج بحديثه. وإذا قيل له: إنه صدوق أو محله الصدق أو لا بأس به فهو ممن يكتب حديثه وينظر فيه. وهي المنزلة الثانية. وإذا قيل شيخ، فهو بالمنزلة الثالثة، يكتب حديثه وينظر فيه، إلا أنه دون الثانية، وإذا قيل صالح الحديث فإنه يكتب حديثه للاعتبار.

وإذا أجابوا في الرجل بلين الحديث، فهو ممن يكتب حديثه وينظر فيه اعتبارا.

---

[1] أنظر تقريب التهذيب لابن حجر، وقاعدة في الجرح والتعديل للسبكي، والجرح والتعديل لابن أبي حاتم.

[2] قاعدة في الجرح والتعديل. وعلى هذا الأساس اعتمد أهل السنة رواية من اشتركوا في مذبحة كربلاء كعمر بن سعد. واعتمدوا شاعر الخوارج عمران بن حطان الذي مدح قاتل الإمام علي. والجرائم الأخلاقية فجرحوا على أساس الأخلاق ولم يجرحوا على أساس السياسة..

وإذا قالوا ليس بقوي، فهو بمنزلة الأول كتبه إلا أنه دونه. وإذا قالوا ضعيف الحديث فهو دون الثاني. لا يطرح حديثه بل يعتبر به. وإذا قالوا: متروك الحديث أو ذاهب الحديث أو كذاب فهو ساقط الحديث لا يكتب حديثه وهي المنزلة الثالثة.. [1] .

وقال ابن حجر ما يشبه ذلك في كتابه " تقريب التهذيب "، حيث قسم مراتب الجرح والتعديل إلى اثنتي عشرة مرتبة.. [2] .

وقد انقسم فقهاء السنة حول نص الحديث.. هل هو لفظ رسول الله صلى الله عليه وآله أو هو معنى اللفظ، وذهب البعض إلى اشتراط تحري لفظ المحدث أن يؤدي الحديث كما سمعه بالمحافظة على حروفه وكلماته دون تغيير، ولا إبدال كلمة من موضع كلمة..

وذهب آخرون إلى جواز الرواية بالمعنى دون التقيد بالكلمات التي سمعها بل يبدل كلمة بكلمة في معناها. ويأتي بما في الحديث من حكم وأمر ونهي.. [3]

ويبدو أن الفتن والصدامات التي وقعت بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله بين الصحابة، خاصة ما وقع بين عائشة والإمام علي وبين الإمام ومعاوية، هذه الفتن قد ألقت بظلالها على الأحاديث، وبدأت تبرز عملية الدس والكذب على الرسول..

والظاهر أن هذا الدس والكذب كان على الجانب الآخر المواجه للإمام، فلا خلاف أن موقف الإمام هو الموقف الشرعي وأن الحق بجانبه. وهذه حقيقة يعترف بها أهل السنة بصعوبة، فهم على الرغم من اعترافهم بالإمام علي، وأنه رابع الخلفاء الراشدين، هم يعترفون بمعاوية ويساوونه بالإمام.. [4] .

---

[1] الفكر المنهجي عند المحدثين، د. همام سعيد. كتاب الأمة ط. قطر..

[2] الجرح والتعديل..

[3] أنظر تقريب التهذيب: ج ١ / ٤. وكيف تحفظ السنة طوال هذه القرون باللفظ، إنها بهذه الصورة تتساوى بالقرآن..

[4] أنظر العواصم من القواصم. والفصل في الملل والنحل..

وهذا الموقف المتأرجح من قبل أهل السنة تجاه الإمام علي يعود سببه إلى الأحاديث التي رويت في عائشة ومعاوية والمنسوبة إلى رسول الله..[1] .

وحتى يبرر أهل السنة موقفهم هذا تحصنوا بالنصوص القرآنية التي تزكي الصحابة ورفضوا الاعتراف بأن الفتن أثرت في الأحاديث..

يروي مسلم عن مجاهد قوله: جاء بشير العدوي إلى ابن عباس فجعل يحدث ويقول: قال رسول الله صلى الله عليه وآله فجعل ابن عباس يأذن لحديثه، ولا ينظر إليه. فقال: يا ابن عباس، ما لي أراك تسمع لحديثي؟ أحدثك عن رسول الله ولا تسمع؟ فقال ابن عباس: إنا كنا مرة إذا سمعنا رجلا يقول قال رسول الله ابتدرته أبصارنا وأصغينا إليه بآذاننا. فلما ركب الناس الصعب والذلول لم نأخذ من الناس إلا بما نعرف..[2] .

وقال ابن سيرين: لم يكونوا يسألون عن الإسناد. فلما وقعت الفتنة قالوا: سموا لنا رجالكم. فينظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم. وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم[3] .

ورواية ابن عباس والتابعي ابن سيرين وغيرهما من الرويات التي تنطق بنفس المعنى إنما تؤكد ظهور ونمو حركة الوضع والكذب على الرسول لصالح أطراف مهزوزة شرعيا وتحتاج إلى مساندة النصوص[4] .

ومثل هذا الاتجاه المهزوز شرعا ما كان لينجح في دعم موقفه بهذه النصوص المخترعة ومن دعم حركة الوضع دون أن تكون في يده أداة نفوذ وقوة وسلطان. فهو اتجاه يريد أن يسود وأن يهيمن ولا بد من إضفاء الشرعية عليه..

---

[1] قال إسحاق بن راهويه أستاذ البخاري: لم تصح في معاوية منقبة. انظر باب ذكر معاوية بالبخاري، وتعليق ابن حجر في فتح الباري ج ٧، وانظر ما روي في فضائل عائشة في مسلم..

[2] مسلم: ج ١ / ١٣.

[3] مسلم: المقدمة، ص ١٥.

[4] أنظر لنا فقه الهزيمة فصل السنة.

وهذه سنة أصحاب النفوذ والسلطان في كل زمان ومكان، لا بد من أن يتحصنوا بالدين. وإذ كان الدين لا يتجاوب معهم ولا يمنحهم الشرعية اخترعوا بقوة نفوذهم وسلطانهم دينا آخر على طريقتهم وتحصنوا به. وبمرور الزمن يتوارى الدين الصحيح تدريجيا ويصبح الذين الزائف هو السائد..

من هنا برزت السياسة وأصبحت لها بصماتها الواضحة على حركة تدوين الحديث وتأسيس علومه. ومهما حاول أهل السنة سترها فإنها تطل ما بين الحين والآخر من خلال أحاديث كثيرة ومن خلال علم الحديث ذاته ومن خلال كتب السنن..

فالبخاري روى لكثير من الرجال المتهمين، ولم يرو لأبناء الرسول من آل البيت الذين الذين رووا عن الإمام جعفر الصادق.. [١] .

ومسلم صنع بابا أسماه فضائل أبو سفيان، وهو لا يحوي أية فضيلة له، ولم يرو سواه في هذا الباب.. [٢] .

وعلم الجرح والتعديل استثنى الصحابة، وبنى على أساس أخلاقي في شخصية الراوي، ولم يهتم بجوانبها الأخرى خاصة الجانب السياسي منها، فهو قد ركز على مسألة الصدق والأمانة وتغاضى عن علاقة الراوي بحكام زمانه مثلا. كما تغاضوا عن جرائمه في حق المسلمين بحجة أنه فعلها متأولا.. [٣] .

---

[١] أنظر هدى الساري مقدمة شرح البخاري لابن حجر، وبها إحصائيات بكم الأحاديث التي رواها الصحابة وأمهات المؤمنين. وتقف السياسة وراء هذا الموقف الذي دفع بجامعي الأحاديث إلى البحث عن رواة في مشارق الأرض ومغاربها بينهم وبين الرسول عشرات الأشخاص ويتركون أبناء الرسول صلى الله عليه وآله.

[٢] تأمل حديث أبو سفيان، وكيف أنه يطلب الفضل لنفسه من الرسول، فهو يطلب منه أن يقاتل المشركين كما كان يقاتل المسلمين. ومن المعروف أن أبا سفيان لم يشهر سيفا في حياة الرسول ولا بعد مماته. ويطلب جعل ولده معاوية كاتبا للوحي وهو أمر لم يصح. ويطلب من الرسول أن يتزوج ابنته أم حبيبة، ومن المعروف أن الرسول تزوج أم حبيبة قبل الهجرة. تأمل..

[٣] أنظر علاقة الزهري جامع السنة بعبد الملك بن مروان في كتب تاريخ السنة. وانظر لنا فقه الهزيمة فصل السنة. وكتابنا النص والسياسة وأضواء على السنة المحمدية للشيخ أبي رية.

ومن أمثلة ذلك أن البخاري روى لعمر بن سعد بن أبي وقاص وهو أحد الذين أسهموا في مذبحة آل البيت في كربلاء. كما روى لعمران بن حطان شاعر الخوارج الذي مدح قاتل الإمام علي عبد الرحمن بن ملجم. وروى للحكم بن العاص المختلف على صحبته قاتل طلحة بن عبيد الله يوم الجمل.. [1].

وأهل السنة عرفوا الصحابي تعريفا سياسيا بعيدا كل البعد عن اللغة وعن الشرع. فهم اعتبروا كل من لقي رسول الله ولو ساعة أو رآه أو ولد في عصره صحابيا، وبهذا دخل ضمن هذا التعريف كم كبير من الناس لم يعايشوا عصر الرسالة وصاحبها.

وهذا التعريف يخالف اللغة والعرف، وعلى الرغم من ذلك اعتمده الفقهاء وأجمعوا عليه، ثم أضفوا على الجميع العدالة، ووضعوهم في مرتبة خاصة مميزة وتناولوا الحديث من جميعهم بلا تمييز أو استثناء.. [2].

وإذا كان القرآن قد زكى الصحابة، فهو لم يزكهم على وجه العموم، إنما زكى طوائف منهم وذم طوائف أخرى. لكن القوم أضفوا العدالة والملائكية على الجميع لأسباب سياسية حتى يعطى الجميع صلاحية التحديث باسم الرسول. وحتى يجد الخط الأموي بقيادة معاوية شرعية يستمدها من خلال صحابة الرسول.. [3].

ولو كان تعريف الصحابة يقتصر على القرآن واللغة لما وجد معاوية وأنصاره من يقف إلى جوارهم إذ أن الصحابي الحقيقي الذي حدده القرآن وحددته اللغة لم يقف في صف معاوية وليس من السهل أن يحتوى من قبل الخط الأموي.

---

[1] أنظر السابقة وهدى الساري دفاع ابن عن البخاري.

[2] أنظر فصل الرجال من هذا الكتاب.

[3] أنظر لنا السيف والسياسة..

من هنا لجأ الأموي إلى الاعتقاد على هذا الكم المشبوه المدعى صحبة رسول الله. والذي انبرى يروي باسم الرسول ليضفي المشروعية على هذا الخط.

وجاء القوم من بعد ذلك فاعتمدوا هؤلاء الناس كصحابة، واعتمدوا رواياتهم، واعتبروا أن المساس بهم خروجا عن العقيدة.

النبوة عند الشيعة

يعتقد الشيعة أن الرسول ﷺ معصوم عصمة كلية من ولادته وحتى مماته، فلا تجوز عليه الكبيرة ولا الصغيرة لا بالعمد ولا بالسهو ولا بالتأويل ولا بالنسيان..

ودليلهم على ذلك أنه لو عهد منه خطيئة لتنفرت العقول من متابعته فتبطل فائدة البعثة.. [١] . وتتجلى عصمة الرسول في مراحل ثلاث:

- مرحلة تلقي الوحي وحفظه وأدائه إلى الأمة.

- مرحلة القول والفعل، وعلى ذلك فهو من عباده المكرمين الذين لا يعصون الله ما أمرهم وهم بأمره يعملون..

- مرحلة تطبيق الشريعة وغيرها من الأمور المربوطة بحياته صلى الله عليه وآله لا يسهو ولا يخطئ في حياته الفردية والاجتماعية.. [٢] .

ويقول الشيخ محمد جواد مغنية: الأنبياء معصومون عن الذنوب، كبيرها وصغيرها، قبل النبوة وبعدها. لا يصدر عنهم ما يشين لا عمدا ولا سهوا. وأنهم منزهون عن دناءة الآباء وعهر الأمهات، وعن الفظاظة والغلظة، وعن الأمراض المنفرة كالبرص والجذام، بل وعن كثير من الأعمال المباحة المنافية للتعظيم والتوقير كالأكل في الطريق ونحوه [٣] .

وقد اشتغل علماء الإمامية بالنصوص القرآنية التي توهم مناقضتها للعصمة الكلية والتي استند إليها أهل السنة في موقفهم منها. وقاموا بشرحها ومناقشة

---

[١] النكت الاعتقادية.

[٢] معالم النبوة في القرآن للشيخ جعفر السبحاني – ط. بيروت.

[٣] معالم الفلسفة الإسلامية.

مدلولاتها على ضوء اللغة والعقل مثل قوله تعالى: ﴿**ووجدك ضالا فهدى**﴾ وقوله تعالى: ﴿**والرجز فاهجر**﴾ وقوله: ﴿.. **ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان..**﴾ وقوله: ﴿**فلا تكونن ظهيرا للكافرين**﴾ وقوله: ﴿**عبس وتولى**﴾ وقوله: ﴿**سنقرئك فلا تنسى**﴾.. [1] .

يقول السيد شبر: والعصمة عبارة عن قوة العقل من حيث لا يغلب مع كونه قادرا على المعاصي كلها. كجائز الخطأ. وليس معنى العصمة أن الله يجبره على ترك المعصية، بل يفعل به ألطافا يترك معها المعصية باختياره مع قدرته عليها. كقوة العقل وكمال الفطنة والذكاء ونهاية صفاء النفس وكمال الاعتناء بطاعة الله تعالى: ولو لم يكن قادرا على المعاصي بل كان مجبورا على الطاعات لكان منافيا للتكليف وعدم الإكراه في الدين. والنبي أول من كلف، حيث قال: فأنا أول العابدين وأنا أول المسلمين، وقال تعالى: ﴿**فاعبد ربك حتى يأتيك اليقين**﴾ الحجر / ٩٩. ولأنه لو لم يكن قادرا على المعصية لكان أدنى مرتبة من صلحاء المؤمنين القادرين على المعاصي التاركين لها [2] .

إن شخصية الرسول عند الشيعة الإمامية هي شخصية متكاملة متجانسة مع روح الإسلام وطبيعة الوحي، وليست شخصية مهزوزة متقلبة ضعيفة الجذور متلونة أخلاقيا..

من هنا فإن الشيعة يرفضون وبقوة أي مساس بشخص الرسول كالسحر والخطأ والنسيان وتعرية حياته الشخصية ومشاركة بعض الصحابة له في شؤون الوحي ونسبة الكفر إلى والديه وعمه.. [3] .

---

[1] أنظر عصمة الأنبياء. وكتب التفسير الخاصة بالشيعة مثل الميزان ومجمع البيان. وكتب العقائد الشيعية وتنزيه الأنبياء للشريف المرتضى – ط. بيروت.

[2] حق اليقين، ج ١.

[3] هناك الكثير من الأحاديث عند أهل السنة تؤكد نظريتهم في شخص الرسول وكونه يسحر ويخطئ وينسى. كما أن هناك أحاديث تفضح الحياة الخاصة للرسول. انظر حديث الغرانيق في مجمع الزوائد، ج ٧. والدر المنثور للسيوطي ج ٤. وفيه اتهام صريح للرسول بالسهو في القرآن حتى أنه قرأ في سورة النجم: تلك الغرانيق العلى منها الشفاعة ترتجى.. بعد قوله تعالى: (أفرأيتم

يقول السيد شبر: المشهور بين الإمامية - بل حكى عليه الإجماع - أنه يجب تنزيه الأنبياء عن كفر الآباء والأمهات وعهرهن. لئلا يعيروا ويعابوا في ذلك، ولئلا يتنفر عنهم. فإن ما في الآباء من العيوب يعود إلى الأبناء عرفا.. ورووا الرويات في ذلك من طرق العامة والخاصة ولقوله تعالى: ﴿**إن الذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا**﴾ الأنفال / ٧٤. وقد اتفق المخالف والموالف أن أول من أوى النبي صلى الله عليه وآله ونصره أبو طالب [١] .

*** الشيعة والقرآن..**

يشاع عن الشيعة أن لديهم قرآنا سريا. كما يدعى عليهم أنهم يقولون بالنقيصة في القرآن، وأن إحراق عثمان للمصاحف أدى ألى ضياع سور من القرآن نزلت في علي. وغير ذلك مما يقال بهدف إثارة الشبهات حول عقائدهم.. والحق أن مثل هذه الادعاءات لا أساس لها من الصحة. ولا يوجد

اللات والعزى * ومناة الثالثة الأخرى). ويروي مسلم والبخاري أن الرسول صلى الله عليه وآله صلى بالناس صلاة العصر ركعتين ودخل حجرته، ثم خرج فذكره بعض فأتمها.. وانظر حديث سحر الرسول في البخاري حتى كان لا يدري ما يقول ويأتي النساء ولا يأتيها. وانظر حديث الكسل في مسلم باب الطهارة حين سئل الرسول عن رجل يجامع امرأته ولا ينزل وهل يوجب ذلك الغسل وإجابة الرسول بالنفي قائلا:

لا وأنا أفعل ذلك مع عائشة. وعائشة إلى جواره، وكذلك أحاديث شغف الرسول بنسائه، في فترة الحيض وأنه أوتي قوة عشرين رجلا في الجماع، وفي رواية سبعين، انظر البخاري كتاب الغسل وكتاب الحيض ومسلم وطبقات ابن سعد.

وانظر توجيه عمر للرسول في شأن الوحي وتنبيهه له بقوله: ألا تحجب نساءك، فينزل القرآن مؤيدا لعمر بآية الحجاب. وبدا وكأن عمر يذكر الرسول بحكم شرعي هو في غفلة عنه وعن تطبيقه حتى على أهل بيته. انظر البخاري، وهناك الكثير من آيات القرآن التي يعتقد أهل السنة أنها نزلت بتوجيه من عمر. انظر كتب أسباب النزول وكتب التفسير عند السنة.

ومن البديهي أن ينسب أهل السنة الكفر إلى والدي الرسول وعمه ما داموا يعتقدون بعدم عصمته قبل البعثة، وأنه يجوز عليه ارتكاب الكبائر قبل بعثته، فلا تناقض عندهم أن يكون الرسول من أبوين كافرين أو فاسقين.

انظر لنا فقه الهزيمة فصل شخصية الرسول. وانظر أهل السنة شعب الله المختار..

[١] حق اليقين، ج ١. وانظر إيمان أبي طالب - ط. بيروت. ونهج الحق وكشف الصدق.

في كتب الشيعة المعتبرة ما يثبتها، بل المعروف عن الشيعة رفض القول بتحريف القرآن ونقصانه، وهم يتعبدون بالقرآن الذي بين أيدي المسلمين، وقد تصدى الكثير من علمائهم لتفسيره وبيانه.. [1] .

غير أن الشيعة تختلف مع أهل السنة حول القرآن في عدة أمور:

الأول: جمع القرآن: حيث تعتقد أن الرسول ترك القرآن مجموعا ومنسوخا وأن هذا العمل من أول واجباته كرسول يودع أمته.

يقول الحجة البلاغي: من المعلوم عند الشيعة أن عليا أمير المؤمنين عليه السلام بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله لم يرتد برداء إلا للصلاة حتى جمع القرآن على ترتيب نزوله وتقدم منسوخه على ناسخه.. [2] .

- الثاني: في القراءات: لا تعترف الشيعة بالقراءات السبع، وما روي من أن القرآن أنزل على سبعة أحرف. فالقرآن تواتر بين عامة الناس جيلا بعد جيل واستمرت مادته وصورته وقراءته المتداولة على نحو واحد فلم يؤثر شئ على مادته وصورته [3] .

- الثالث: في النسخ: لا ترى الشيعة أنه يمكن نسخ القرآن بالحديث، فالحديث في الأصل يجب أن يعرض على القرآن ويوافقه حتى يمكن قبوله. فكيف يمكن القول بأن الحديث ينسخ القرآن..؟ كذلك الأمر بالنسبة إلى مسألة نسخ التلاوة على ما سوف نبين..

- الرابع: إن الشيعة يعتقدون أن معاني القرآن تعرضت للتحريف بسبب السياسة، من هذا فهم يختلفون مع أهل السنة حول مدلول الكثير من الآيات القرآنية. خاصة تلك التي تتعلق بعصمة الرسول وآل البيت.. [4] .

---

[1] أنظر البيان في تفسير القرآن للخوئي. ومجمع البيان للطبرسي، وأكذوبة تحريف القرآن بين الشيعة والسنة. ط. طهران.

[2] آلاء الرحمن في تفسير القرآن.

[3] المرجع السابق، والبيان في تفسير القرآن، ومجمع البيان.

[4] انظر باب الرجال بهذا الكتاب ليتبين لك كيف أخضعت نصوص القرآن المتعلقة بآل البيت للسياسة. وكيف استغلت النصوص التي تثني على بعض الصحابة في التغطية على مساوئ الآخرين

يقول السيد الخوئي: يطلق لفظ التحريف، ويراد منه عدة معان على سبيل الاشتراك. فبعض منها واقع في القرآن باتفاق المسلمين. وبعض منها لم يقع فيه باتفاق منهم أيضا. وبعض منها وقع الخلاف بينهم. وإليك تفصيل ذلك:

١ - نقل الشئ عن موضعه وتحويله إلى غيره ومنه قوله تعالى:

﴿**من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه**﴾ النساء / ٤٦.

ولا خلاف بين المسلمين في وقوع مثل هذا التحريف في كتاب الله. فإن كل من فسر القرآن بغير حقيقته، وحمله على غير معناه فقد حرفه. وترى كثيرا من أهل البدع والمذاهب الفاسدة قد حرفوا القرآن بتأويلهم آياته على آرائهم وأهوائهم..

وقد ورد المنع عن التحريف بهذا المعنى وذم فاعله في عدة من الرويات منها قول الإمام الباقر عليه السلام في رسالته إلى سعد الخير: " وكان من نبذهم الكتاب أن أقاموا حروفه وحرفوا حدوده. فهم يروونه ولا يرعونه. والجهال يعجبهم حفظهم للرواية والعلماء يحزنهم تركهم للرعاية "[1].

٢ - النقص أو الزيادة في الحروف أو في الحركات مع حفظ القرآن وعدم ضياعه وإن لم يكن متميزا في الخارج عن غيره..

والتحريف بهذا المعنى واقع في القرآن قطعا، بمعنى أن القرآن المنزل إنما هو مطابق لإحدى القراءات، وأما غيرها فهو إما زيادة في القرآن وإما نقيصة فيه..

٣ - النقص أو الزيادة بكلمة أو كلمتين مع التحفظ على نفس القرآن المنزل..

منهم. وانظر كيف طوع ابن كثير قوله تعالى: (من قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا) لصالح معاوية، وإضفاء المشروعية على قتاله للإمام بحكم أن معاوية ولي عثمان.. تفسير القرآن العظيم، سورة الإسراء، آية: ٣٣.

[1] الكافي، كتاب الصلاة.

والتحريف بهذا المعنى قد وقع في صدر الإسلام، وفي زمان الصحابة قطعا. ويدلنا على ذلك إجماع المسلمين على أن عثمان أحرق جملة من المصاحف وأمر ولاته بحرق كل مصحف غير ما جمعه. وهذا يدل على أن هذه المصاحف كانت مخالفة لما جمعه. وإلا لم يكن هناك سبب موجب لحرقها. وقد ضبط جماعة من العلماء موارد الاختلاف بين المصاحف منهم عبد الله بن أبي داود السجستاني. وقد سمى كتابه هذا بكتاب المصاحف.. وأن ما جمعه عثمان كان هو القرآن المعروف بين المسلمين الذي تداولوه عن النبي ﷺ يدا بيد، فالتحريف بالزيادة والنقيصة إنما وقع في تلك المصاحف التي انقطعت بعد عهد عثمان. وأما القرآن الموجود الآن فليس فيه زيادة ولا نقيصة..

٤ – التحريف بالزيادة والنقيصة في الآية والسورة مع التحفظ على القرآن المنزل والتسالم على قراءة النبي صلى الله عليه وآله إياها.

والتحريف بهذا المعنى أيضا واقع في القرآن قطعا. فالبسملة – مثلا – قد وقع الخلاف في كونها من القرآن بين علماء أهل السنة، واختار جمع أنها ليست من القرآن.

وأما الشيعة فهم متسالمون على جزئية البسملة من كل سورة غير سورة التوبة.

٥ – التحريف بالزيادة، بمعنى أن بعض المصاحف الذي بين أيدينا لا يشتمل على جميع القرآن الذي نزل من السماء، فقد ضاع بعضه على الناس..

والتحريف بهذا المعنى هو الذي وقع فيه الخلاف فأثبته قوم ونفاه آخرون [١].

---

[١] البيان في تفسير القرآن.

ويرفض الشيعة الاعتراف بمسألة نسخ التلاوة، وأن الالتزام بصحة الروايات المتعلقة بهذه المسألة يقتضي الالتزام بوقوع التحريف في القرآن..[1] .

ومسألة نسخ التلاوة إنما ترتبط بموقف أهل السنة من مسألة نسخ القرآن بالحديث، أي نسخ الحكم. فهم كما يرون نسخ التلاوة أي بقاء الحكم الشرعي مع نسخ لفظه من القرآن، يرون أيضا نسخ الحكم مع بقاء التلاوة..

يقول السيد الخوئي: إن نسخ التلاوة هذا إما أن يكون قد وقع من الرسول ﷺ وإما أن يكون ممن تصدى للزعامة من بعده. فإن أراد القائلون بالنسخ وقوعه من الرسول فهو أمر يحتاج إلى إثبات. وقد اتفق العلماء أجمع على عدم جواز نسخ الكتاب بخبر الواحد، بل قطع الشافعي وأكثر أصحابه وأكثر أهل الظاهر بامتناع نسخ الكتاب بالسنة المتواترة، وإليه ذهب أحمد بن حنبل في إحدى الروايتين عنه، بل إن جماعة ممن قال بإمكان نسخ الكتاب بالسنة المتواترة منع وقوعه. وعلى ذلك فكيف تصح نسبة النسخ للنبي ﷺ بأخبار هؤلاء الرواة؟

مع أن نسبة النسخ إلى النبي تتنافى جملة مع الروايات التي تضمنت أن الاسقاط قد وقع بعده. وإن أرادوا أن النسخ قد وقع من الذين تصدوا للزعامة بعد النبي فهو عين القول بالتحريف. وعلى ذلك فيمكن أن يدعى أن القول بالتحريف هو مذهب أكثر علماء السنة لأنهم يقولون بجواز نسخ التلاوة..[2] .

*** الشيعة والحديث:**

يعتبر الشيعة أن السنة دونت في فترة متقدمة على يد عدد من الصحابة الذين أخذوها عن الإمام علي عليه السلام ..

ومن هؤلاء الصحابة ابن عباس وسلمان الفارسي وأبو ذر الغفاري وأبو رافع[3] .

---

[1] كان في مصحف ابن عباس وأبي ابن كعب سورتا الخلع والحفد. وكان ابن عباس يقرأ قوله تعالى في سورة النساء (فما استمتعتم به منهن – إلى أجل مسمى – فآتوهن أجورهن) بزيادة إلى أجل مسمى.

[2] البيان في تفسير القرآن.

[3] أعيان الشيعة، ج ١، ق ٢.

وفي فترة التابعين وتابعيهم كثر التشيع حتى غلب على أكثر رواة الحديث ولم يكن هناك يد لأي ناقل للحديث أو جامع له من أن يأخذ من الشيعة..

يقول الذهبي: إن البدعة ضربان كغلو التشيع أو التشيع بلا غلو ولا تحرق فهذا أكثر في التابعين وتابعيهم مع الدين والورع والصدق، فلو ورد حديث هؤلاء لذهبت جملة الآثار النبوية وهذه مفسدة بينة.. [1] .

وقد أخذ أبو حنيفة عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام وكذلك مالك وكذلك الشافعي حتى أن أحد شيوخ البخاري كان من الشيعة.. [2]

وكتب الحديث المؤلفة والمعتمدة عند الشيعة أربعة:

الأول الكافي لأبي جعفر محمد الكليني. وقد جمعه في ثلاثين سنة، وعدد أحاديثه (١٦٠٩٩) حديثا في الأصول والفروع.

الثاني: كتاب من لا يحضره الفقيه لأبي جعفر بن بابويه القمي، وعدد أحاديثه (٩٠٤٤) حديثا..

الثالث: تهذيب الأحكام للشيخ أبي جعفر محمد الطوسي وعدد أحاديثه (١٣٥٩٠) حديثا..

الرابع: الاستبصار في الجمع بين تعارض من الأخبار للطوسي أيضا.

وعدد أحاديثه (٥٥١١) حديثا.. [3] .

وليس كل ما تحويه هذه الكتب الأربعة يعد صحيحا في منظور الشيعة.

وقد ألفت مؤخرا عدة مختصرات لهذه الكتب تحوي الأحاديث الصحيحة منها فقط. ومن هذه الكتب صحيح الكافي، وصحيح من لا يحضره الفقيه.. [4] .

---

[1] ميزان الاعتدال.

[2] أعيان الشيعة، ج ١ ق ٢.. واسم شيخ البخاري هو عبيد الله بن موسى العبسي الكوفي انظر ميزان الاعتدال وتذكرة الحفاظ.

[3] أعيان الشيعة، ج ١، ق ٢.

[4] يعتمد خصوم الشيعة اصطياد روايات من الكافي وكتب الأحاديث الأخرى واستغلالها في الطعن في عقائدها والتشكيك فيها متناسين أن هذه الكتب فيها الغث والسمين.. أن مثل هذا الأمر ينطبق على كتب الحديث عند أهل السنة أيضا. والفارق بين السنة والشيعة في هذا الأمر هو أن الشيعة لا

وعند الشيعة الحديث الذي يخالف القرآن والعقل يضرب به عرض الحائط حتى لو قيل على لسان إمام معصوم. إذ لا يقول الإمام ما يخالف القرآن والعقل. وهي قاعدة تنطبق على الرسول صلى الله عليه وآله أيضا.

ولرواية الحديث عند الشيعة طرق تختلف عن طرق السنة، وقد أدى هذا الخلاف في طرق الرواية إلى وجود الكثير من الأحاديث عند الشيعة لا وجود لها عند السنة، وهذا لا ينفي وجود نسبة من الأحاديث المشتركة المروية في كتب الجانبين [1].

*** رواية الصحابي:**

لا تأخذ الشيعة برواية أي صحابي، لأن لها رؤيتها في الصحبة تختلف عن رؤية السنة، فليس كل صحابي عند السنة هو صحابي عند الشيعة، بالإضافة إلى أن فكرة عدالة جميع الصحابة في فكرة مرفوضة وغير معترف بها [2].

يقول الشيخ العاملي: ما ورد من طرقنا وطرق العامة من الذم العام فهو مخصوص بأصحاب الأحداث المبدلين والمبتدعين قطعا. وإن كانوا هم الأكثر وأهل الصلاح هم الأقل من كل طائفة وفي كل زمان.. [3].

من هنا فإن الشيعة لا تأخذ بروايات صحابة معترف بهم من قبل السنة مثل معاوية وابن عمر وأبي هريرة وابن العاص والمغيرة بن شعبة وأبي بكر وعمر

يقرون بصحة جميع الأحاديث الواردة في كتب الأحاديث ويجيزون الطعن في الأحاديث ورفضها إذا خالفت القرآن والعقل. بينما هذا الأمر غير وارد عند أهل السنة ويرفض بشدة خاصة إذا تعلق الرفض والتشكيك بأحاديث البخاري ومسلم. وقد شنت حرب شعواء على الذين شككوا في أحاديث سحر الرسول بالبخاري وكذلك الذين شككوا في حديث الذبابة.

[1] شرعت دار التقريب بين المذاهب في مصر في جميع الأحاديث المشتركة بين السنة والشيعة، لكن هذا المشروع لم يتم.

[2] أنظر فصل الرجال من هذا الكتاب..

[3] رسالة في معرفة الصحابة. ط. طهران.

وعثمان وسعد بن أبي وقاص و عبد الرحمن بن عوف وخالد بن الوليد وأنس بن مالك والأشعث بن قيس وطلحة بن عبيد الله و عبد الله بن عمرو ومن النساء عائشة وحفصة وغيرهما.. وموقف الشيعة من هؤلاء يقوم في أساسه على مواقفهم بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله ومناصبتهم العداء للإمام علي وآل البيت. ومخالفتهم للنصوص مما أضعف الثقة فيهم.. [1] .

ومن الصحابة الذين تجلهم الشيعة وتعتمدهم عمار بن ياسر وسلمان الفارسي وأبو ذر الغفاري والمقداد بن الأسود و عبد الله ومحمد و عبد الرحمن بن بديل وقيس بن سعد بين عبادة وعمرو بن أبي سلمة وابن عباس والعباس وعقبة بن النعمان الأنصاري وجابر بن عبد الله وثعلبة بن عمد وأبو عمرة الأنصاري وبلال بن رباح والبراء بن عازب وإبراهيم أبو رافع ومن النساء أم سلمة وخديجة وفاطمة.. [2] .

ولقد انعكس موقف الشيعة من رواة الصحابة هذا على رواة التابعين، حيث اتخذت نفس الموقف من هؤلاء الرواة. فكل تابعي يروي عن هؤلاء يشك في روايته ولا يؤخذ بها..

أما التابعون الذين والوا آل البيت ونصروهم فقد عدلهم الشيعة وأخذوا برواياتهم، وهي روايات نقلت عن طريق أئمة آل البيت. أي الأئمة الاثنا عشر عليهم السلام، فهم الفئة الوحيدة التي تملك التحدث باسم الرسول صلى الله عليه وآله وحدود النقل يجب أن تنحصر في دائرتهم..

ولما كان الكثير من التابعين قد والى بني أمية وناصرهم -على أساس موالاة الصحابة لهم مثل ابن عمر وأنس بن مالك وأبي هريرة وعمرو بن العاص

[1] أنظر فصل الرجال. وانظر لنا السيف والسياسة. وانظر أضواء على السنة المحمدية، وأبو هريرة لأبي رية وعبد الحسين شرف الدين.

[2] أنظر رسالة في معرفة الصحابة ط. طهران وكتب الرجال. والإصابة في تمييز الصحابة وأسد الغابة.

والمغيرة بن شعبة وغيرهم - فإن هذا قد دفع بالشيعة إلى اتخاذ موقف عدائي منهم..

كذلك دعم موقف الشيعة هذا من رواة التابعين دور الحكام، والذي كان واضحا في تلك الفترة في استثمار علاقة كثير من التابعين بالصحابة في اختلاف الروايات على لسان الرسول صلى الله عليه وآله.

من هنا كان الرواة الذين اعتمدهم الشيعة من الموالين لآل البيت غير المعروفين عند أهل السنة، نظرا لكونهم يعيشون في عزلة عن الأوساط العلمية المشروعة والمعلنة. بينما كان الرواة الذين اعتمدهم أهل السنة غير مقبولين عند الشيعة لمباركتهم العصر الأموي والعباسي ومخاصمتهم لآل البيت.

لأجل ذلك اختلفت طرق الفريقين في تناول الأحاديث وروايتها [1].

[1] إن الأصول التي وضعها علماء الحديث والدراية من الشيعة للحديث وأصنافه لا تختلف اختلافا جوهريا عن الأصول وضعها الباحثون في علم الحديث من أهل السنة، إذا استثنينا بعض التفريعات والاصطلاحات.. انظر الموضوعات في الآثار والأخبار. هاشم معروف الحسيني، ط. بيروت.



الفصل الثالث

الإمامة

تمهيد

قضية الإمامة قضية فرضت نفسها على واقع المسلمين بعد وفاة الرسول ﷺ، ومنذ اجتماع السقيفة الذي تمخض عن ظهور الخليفة أبي بكر والذي لم يحسم الخلاف حول هذه القضية بل زاد في تعقيدها ليتمخض في النهاية عن ظهور الملكية التي أصبحت سمة الحكم في بلاد المسلمين حتى اليوم. لقد قامت فكرة الخلافة على أنقاض فكرة الإمامة في محاولة لتحل محلها وتكون بديلة عنها. إلا أن فكرة الإمامة ظلت باقية وتنادي بها اتجاهات أخرى خارج دائرة أهل السنة.

ومثل هذا الخلاف المحتدم حول هذه القضية إنما يشير إلى أهميتها وخطورتها وفاعليتها في محيط الإسلام. ولو كانت مجرد قضية هامشية ما حظيت بكل هذا الاهتمام والجدل من قبل المسلمين طوال عصور الإسلام.

وهذه القضية هي محور الخلاف بين السنة والشيعة، وعليها تنبني كل القضايا الخلافية الأخرى وتتفرع منها.

فموقف الشيعة من الصحابة ينبني عليها.

وموقف السنة من الإمامة ينبني عليه تعديله لجميع الصحابة.

وموقف الشيعة من الأحاديث التي روتها السنة ينبني عليها.

وموقف السنة في قضية التوحيد ينبني على هذه الأحاديث.

وموقف الشيعة من الحكام ينبني عليها.

وموقف السنة منهم ينبني على أساس فكرة الخلافة.

فموقف الشيعة المتبي لقضية الإمامة انبنت عليه قضايا وأحكام.

وموقف السنة الرافض بهذه القضية انبنت عليه قضايا وأحكام.

والخلاصة أن الشيعة تعتبر الإمامة أصلا من أصول الدين.

بينما يعتقد أهل السنة أن الإمامة مسألة لا صلة بها بأصول الدين.

الإمامة عند أهل السنة

تعتبر فكرة الإمامة عند أهل السنة فكرة عائمة غير محددة بشخص معين، فيمكن أن تطلق على الحاكم كما يمكن أن تطلق على الفقيه ومن يصلي بالناس.

وما سوف نتناوله بالبحث هنا هو الإمام الحاكم، فهو المتعلق بموضوع البحث. والإمام أو الخليفة أو أمير المؤمنين ثلاثة ألفاظ تطلق على الحاكم عند السنة. وليست هناك أية أبعاد شرعية تعطي خصوصية للإمام عندهم، فهو فرد كبقية أفراد الرعية، تقوده الظروف إلى الحكم بطريق السيف أو الوراثة أو الاختيار من قبل أهل الحل والعقد، فيصبح إمام الأمة ويجب على جميع المسلمين أن يدينوا له بالسمع والطاعة حتى وإن كان فاجرا ظالما [1].

*** اختيار الإمام:**

وعند السنة نصب الإمام واجب حسما للفتنة. وطريق وجوبها السمع والعقل. وتنصيبه يكون عن طريق أهل الاجتهاد أو الحل والعقد الذين يختارون من تتوافر فيه شرائط الإمامة.. [2].

إلا أن الراصد لحركة تنصيب أئمة الحكم في واقع المسلمين منذ وفاة الرسول ﷺ وحتى يومنا هذا لا يجد أثرا لأهل الاجتهاد هؤلاء ولا دورا. إنما يجد صورا مختلفة لتنصيب الحاكم تخرج الباحث في النهاية أنه ليست هناك صورة محددة لاختيار الحاكم ولشكل الدولة في الإسلام..

[1] أنظر العقيدة الطحاوية والعقيدة الواسطية والأحكام السلطانية وشرح المقاصد للتفتازاني والتمهيد للباقلاني ومنهاج السنة لابن تيمية.

[2] أنظر الأحكام السلطانية لأبي يعلى.

والحق أن مثل هذه النتيجة إنما تولدت من خلال الممارسات المنحرفة للحكم في التاريخ، والتي اختفت فيها صورة الشورى والاختيار الحر.

ومثل هذه الحكومات التي قامت بالغصب والوراثة لا يصح أن تتخذ مقياسا للتطبيق الإسلامي الصحيح، وإن كان الفقهاء قد اعترفوا بهذه الحكومات وأضفوا عليها الشرعية. وقد عمل أهل السنة على حصر الإمامة في قريش وهو الشعار الذي رفعه الجناح القرشي بقيادة أبي بكر وعمر في مواجهة الأنصار (الأوس والخزرج) عند اشتداد النزاع على الحكم بعد وفاة الرسول ﷺ.

وقال أبو بكر: إن العرب لا تدين إلا بهذا الدين من قريش.. [1].

ونقلوا قول الرسول ﷺ: " إن هذا الأمر (الحكم) في قريش لا يعاديهم أحد إلا كبه الله على وجهه ما أقاموا الدين " [2].

وقول الرسول ﷺ: "لايزال هذا الأمر في قريش ما بقي منهم اثنان " [3].

إلا أن هذه القاعدة شذ عنها بعض الفقهاء في مقدمتهم ابن خلدون الذي اعتبر أن قريشا كانت مركز العصبية في العرب آنذاك وأن العصبية من الممكن أن تنتقل منها إلى مناطق أخرى، وبالتالي يصبح وجود إمام من خارج قريش أمرا مقبولا شرعا، هذا لكون أن كثيرا من حكام المسلمين ليسوا من قريش كالعثمانيين والمماليك من قبلهم [4].

---

[1] أنظر أحداث السقيفة في كتب التاريخ.. انظر لنا السيف والسياسة.

[2] رواه البخاري.. كتاب الأحكام.. ويذكر أن راوي هذا الحديث هو معاوية بن أبي سفيان في معرض الهجوم على عبد الله بن عمرو بسبب أنه حدث أنه سيكون ملك من قحطان، ولعل معاوية رأى في رواية ابن عمرو تهديدا لسلطانه.. انظر فتح الباري: ١٣ / ١١٤.

[3] البخاري كتاب الأحكام.

[4] وهذه نظرة تبريرية في مواجهة النصوص.. انظر مقدمة ابن خلدون.. ويذكر أن المماليك بداية من عصر الظاهر بيبرس أرادوا تطبيق حديث الأئمة في قريش حتى يضفوا على حكمهم الشرعية فقاموا باستجلاب بقية العائلة العباسية الفارة من وجه التتار إلى مصر وأحيوا الخلافة العباسية وجعلوا القاهرة مقرا لها.. غير أن خلفاء بني العباس في مصر لم يكونوا سوى صورة أو لافتة توضع وتنزع وتستبدل حسب أهواء المماليك.

من هنا اشترط الفقهاء في الإمام أربعة شروط هي:

- أن يكون قرشيا من الصميم.
- أن يكون حرا عاقلا بالغا عالما.
- أن يقوم بأمر الأحكام الحدود والحرب والسياسة.
- أن يكون أفضل القوم علما ودينا [1] .

ويقرر الفقهاء أن من غلب المسلمين بالسيف حتى صار خليفة وسمي بأمير المؤمنين لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيت ولا يراه إماما عليه، برا كان أو فاجرا فهو أمير المؤمنين [2] .

واختلفوا في الخليفة الذي يداوم على السكر واللهو والغلول (مصادرة الغنائم لنفسه) هل يجوز الجهاد معه أم لا..؟ [3] .

وتنص عقيدة أهل السنة على أن الجهاد ماض وراء كل أمير برا كان أو فاجرا [4] .

وقد أفرد الفقهاء أبوابا في كتب الفقه تدور حول أهلية الإمام واستمراريته في الحكم لو فقد يده أو عينه أو رجله أو أصابه خرس أو مرض أو ما شابه ذلك [5] .

والمتأمل في مثل هذه الأمور التي ربطها أهل السنة بمسألة الإمامة يتبين له أنها تفوح منها رائحة السياسة.

ويبدو هذا الأمر بوضوح في تحديد الفقهاء لطريقين اثنين لانعقاد الإمامة هما:

- اختيار أهل الحل والعقد.

---

[1] الأحكام السلطانية.

[2] المرجع السابق.

[3] أنظر تفاصيل هذا الخلاف في كتب العقائد.

[4] أنظر العقيدة الطحاوية والعقيدة الواسطية.

[5] أنظر الأحكام السلطانية والسياسة الشرعية لابن تيمية وكتب العقائد والفرق.

- العهد أو الوصية من سابقه.

فبالنسبة للأمر الأول استنبطوه من فعل السقيفة.

وبالنسبة لأمر الثاني (الوصية) استنبطوه من فعل أبي بكر حين أوصى لعمر.

وبالنسبة للعهد فقد استنبطوه من فعل بني أمية وبني العباس [1].

وتبدو السياسة بصورة أكثر وضوحا حين يقرر أهل السنة أن من أصول الاعتقاد أن الخليفة بعد الرسول أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي هكذا بالترتيب.

ومع أن المتأمل في أحداث السقيفة واختيار أبي بكر يجد أن المسألة قد جانبت الشورى وطغت فيها القبلية وافتقدت فيها النصوص القاطعة بخلافته [2].

أما خلافة عمر فقد جاءت بوصية من أبي بكر ولم تكن بمشورة المسلمين، وقد عاضها كثير من الصحابة وقتها [3].

أما خلافة عثمان فقد جاءت باختيار من وسط ستة من أفراد حددهم عمر، تحالف أربعة منهم مع عثمان ضد السادس وهو الإمام علي [4].

---

[1] أنظر لنا فقه الهزيمة.

[2] أنظر أحداث السقيفة في كتب التاريخ وفي كتابنا السيف والسياسة.

[3] أنظر كتب التاريخ.. وقد قال بعضهم لأبي بكر: أتولي علينا غليظ القلب؟

[4] أنظر كتب التاريخ.. والأربعة هم سعد بن أبي وقاص و عبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبيد الله والزبير.. وقال عمر: إذا اجتمع ثلاثة على رأي وثلاثة على رأي.. أي استقر رأي اثنين على واحد.. والاثنين الآخرين على واحد - فحكموا عبد الله بن عمر.

وعبد الله هذا هو الذي قال فيه أبوه حين أشار عليه أحدهم باستخلافه: قاتلك الله.. والله ما رأيت الله بهذا.. استخلف من لم يحسن أن يطلق امرأته.

وقال عمر للستة: ليحل هؤلاء في بيت (للتشاور) فإذا اجتمعوا على رجل فمن خالف فاضربوا عنقه.

وقال الزبير: قد جعلت أمري إلى علي. وقال طلحة: قد جعلت أمري إلى عثمان. وقال سعد: قد جعلت أمري إلى عبد الرحمن بن عوف. وانسحب ابن عوف فأصبح سعد مع عثمان. ثم فصل الأمر ابن عوف بأن رفع يد عثمان وبايعه..

والغريب أنه قبل أن يستقر الأمر لعثمان قال عمر والقوم يتشاورون: إن تولوها الأجلح (علي) يسلك بهم الطريق فقال له ابنه: ما يمنعك يا أمير المؤمنين منه..؟

قال أكره أن أتحملها حيا وميتا.

وخلافة علي لم يجتمع عليها القوم حتى أن بعض الفقهاء اعتبرها غير كاملة المشروعية، وقد اعترف بها القوم من باب التستر على أخطاء وتجاوزات الثلاثة الذين سبقوه، وحتى لا ينكشف انحيازهم الكامل للخط القبلي [1].

تقول العقيدة الطحاوية: ونثبت الخلافة بعد رسول الله ﷺ أولا لأبي بكر تفضيلا له وتقديما على جميع الأمة، ثم لعمر بن الخطاب، ثم لعثمان، ثم لعلي بن أبي طالب. وهم الخلفاء الراشدون والأئمة المهديون [2].

ويقول ابن تيمية: ثم من طريقة أهل السنة والجماعة اتباع وصية الرسول صلى الله عليه وسلم حيث قال: " عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ ويرون إقامة الحج والجهاد والجمع والأعياد مع الإمام " [3].

وقد استدل بعضهم بقوله تعالى: ﴿**إني جاعل في الأرض خليفة**﴾ على وجوب نصب الإمام. يقول القرطبي: هذه الآية أصل في نصب إمام وخليفة يسمع له ويطاع لتجتمع به الكلمة وتنفذ به أحكام الخليفة. ولا خلاف في وجوب ذلك بين الأمة ولا بين الأئمة.. وعندنا النظر طريق إلى معرفة الإمام.

وفي رواية: أن ابن عوف طلب من علي أن يبايع على كتاب الله وسنة رسوله وسنة الشيخين فقال أبايع على كتاب الله وسنة رسوله وأجتهد برأيي.. فقال لعثمان أتبايع على كتاب الله وسنة رسوله . سنة الشيخين قال نعم.. فبايعه. والطريف هنا أن عثمان بعد أن تولى خرج عن كتاب الله وسنة رسوله وسنة الشيخين.. انظر تفاصيل اختيار عثمان - فتح الباري: ج ٧ / ٦١. ٦٩ كتاب فضائل الصحابة باب مناقب عمر.

[1] أنظر كتب التاريخ.. ويبرر هذا الموقف من خلافة الإمام عند أهل السنة أن الصحابة لم يجمعوا عليه وقد وقف منهم قطاع مع معاوية ضده بينما آثر قطاع الحياد وفي مقدمتهم ابن عمر. انظر لنا السيف والسياسة وتأمل اعتبارهم عثمان قتل مظلوما بينما اعتبر بعضهم قاتل الإمام متأولا.. ولم يذكر في كتب أهل السنة أن الإمام قتل مظلوما.

والبخاري روى لعمران بن حطان شاعر الخوارج الذي أنشد يمدح عبد الرحمن بن ملجم قاتل الإمام..

[2] أنظر العقيدة الطحاوية والواسطية وجوهرة التوحيد وكتب العقائد.

[3] العقيدة الواسطية.

وإجماع أهل الاجتهاد طريق أيضا إليه.. وليس في العقل ما يدل على ثبوت الإمامة لشخص معين. وكذلك ليس في الخبر ما يوجب العلم بثبوت إمام معين. واختلف فيما يكون به الإمام إماما وذلك على ثلاثة طرق أحدها: النص وقال به جماعة من أصحاب الحديث والحسن البصري والحنابلة وغيرهم.

وذلك أن النبي ﷺ نص على أبي بكر بالإشارة. وأبو بكر على عمر. فإذا نص المستخلف على واحد معين كما فعل أبو بكر أو على جماعة كما فعل عمر وهو الطريق الثاني. ويكون التخيير إليهم في تعيين واحد منهم كما فعل الصحابة في تعيين عثمان.

الطريق الثالث: إجماع أهل الحل والعقد. وذلك إن الجماعة في مصر من الأمصار إذا مات إمامهم، ولم يكن له إمام ولا استخلف، فأقام أهل ذلك المصر الذي هو حضره الإمام وموضعه إماما لأنفسهم اجتمعوا عليه ورضوه، فإن كل من خلفهم وأمامهم من المسلمين في الآفاق يلزمهم الدخول في طاعة ذلك الإمام، إذا لم يكن الإمام معلنا بالفسق والفساد لأنها محيطة بهم تجب إجابتها ولا يسع أحد التخلف عنها لما لإقامة إمامين من اختلاف الكلمة وفساد ذات البين.. فإن عقدها واحد من أهل الحل والعقد، فذلك ثابت ويلزم الغير فعله.. فإن تغلب من له أهلية الإمامة وأخذها بالقهر والغلبة فقد قيل إن ذلك يكون طريقا رابعا.. قال أبو المعالي: من انعقدت له الإمامة بعقد واحد فقد لزمت ولا يجوز خلعه من غير حدث وتغير أمر وهذا مجمع عليه..

وقال ابن خويز منداد: لو وثب على الأمر من يصلح له من غير مشورة ولا اختيار وبايع له الناس تمت له البيعة..

وقال القرطبي: إذا انعقدت الإمامة باتفاق أهل الحل والعقد أو بواحد وجب على الناس كافة مبايعته على السمع والطاعة.. [1].

ويقول الماوردي: وأما انعقاد الإمامة بعهد من قبله فهو مما انعقد الإجماع على جوازه ووقع الاتفاق على صحته لأمرين عمل المسلمون بهما ولم يتناكروهما:

---

[1] الجامع لأحكام القرآن: ج ١ / ١٨٥ وما بعدها. بتصرف ط. بيروت - دار الكتب العلمية.

أحد هما أن أبا بكر عهد بها إلى عمر فأثبت المسلمون إمامته بعده.

والثاني أن عمر عهد بها إلى أهل الشورى فقبلت الجماعة دخولهم فيها وهم أعيان العصر اعتقادا بصحة العهد بها [1].

ويقول ابن خلدون: ثم إن نصب الإمام واجب قد عرف وجوبه في الشرع بإجماع الصحابة والتابعين لأن أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم عند وفاته بادروا إلى بيعة أبي بكر وتسليم النظر إليه في أمورهم، وكذا في كل عصر بعد ذلك، ولم يترك الناس في عصر من الأعصار واستقر ذلك إجماعا دالا على وجوب نصب الإمام.. [2].

ويقول النسفي: المسلمون لا بد لهم من إمام يقوم بتنفيذ أحكامهم وإقامة حدود هو سد ثغورهم وتجهيز جيوشهم وأخذ صدقاتهم وقهر المتغلبة والمتلصصة وقطاع الطرق وإقامة الجمع والأعياد وقطع المنازعات الواقعة بين العباد وقبول الشهادات القائمة على الحقوق وتزويج الصغار والصغائر الذين لا أولياء لهم وقسمة الغنائم ونحو ذلك من الأمور التي لا يتولاها آحاد الأمة [3].

وقد أجمع فقهاء السنة على أن نصوص القرآن والسنة أوجبت إقامة إمام للجماعة الإسلامية لكنهم يعتبرون هذا الوجوب ليس من باب الفريضة التي تجعل من مسألة الإمامة أصلا من أصول الإسلام أو جزءا من الاعتقاد وإنما جعلوا الإيمان بخلافة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي جزءا من الاعتقاد.

ورغم اعتقاد أهل السنة بخلافة الإمام علي وحساسيتهم الشديدة تجاه من يسمون الخلفاء الثلاثة بشئ من النقد إلا أن محاولتهم رفع مقام معاوية واختراع المناقب وتبرير تجاوزاته معه واتنهاكاته لحقوقه كإمام وكذلك تبرير تجاوزات الآخرين.. محاولتهم هذه تتناقض مع هذا الاعتقاد الذي تفوح منه رائحة التحيز للثلاثة.

---

[1] الأحكام السلطانية.

[2] المقدمة، لابن خلدون.

[3] العقائد النسفية شرح التفتازاني.

ولا يمكن لعاقل أن يدعي أن مساواة معاوية بالإمام علي لا تعني مساسا بشخص الإمام، فهذه المساواة تعني توثيق معاوية، توثيق معاوية يعني إضعاف الثقة بالإمام علي والشك في شرعيته.

وهذا الموقف يتخذه أهل السنة من معاوية في الوقت الذي يعتبرون فيه الخارجين على عثمان والثائرين عليه من البغاة مع أن فيهم الصحابة [1].

- وظيفة الإمام:

يبدو لنا من خلال استعراض النقاط السابقة أن أهل السنة يقرون التعايش مع أي حاكم. ما دام يحمي بيضة الإسلام فهو إمام المسلمين..

سلوكه الشخصي ليس مهما..

ومستواه العلمي ليس مهما..

وصل إلى الحكم بالغصب أو بالوراثة ليس مهما..

فسلوكه الشخصي أمر يتعلق به وليس الإمامة، وقد سئل ابن حنبل: الإمام الفاجر القوي أفضل أم الإمام التقي الضعيف؟ فأجاب: الفاجر القوي، لأن فجوره على نفسه وليس على الرعية، أما الآخر فتقواه لنفسه وضعفه على الرعية.

وقد نسي ابن حنبل أن الإمام الفاجر لا بد أن ينعكس فجوره على الرعية.

أما مستواه العلمي فأكثر أهل السنة على اشتراط العلم، والاجتهاد في الإمام نظريا فقط، وموقفهم عمليا إنما هو موقف مساير لحكام زمانهم من الأمويين والعباسيين وغيرهم الذين لم يكن لديهم وقت للعلم وفهم أحكام الدين. فهي مسألة لا تعنيهم من الأصل ما دامت السلطة التنفيذية والسياسية في أيديهم والسلطة الدينية في يد الفقهاء التابعين لهم فما حاجتهم للعلم إذن؟

والفقهاء بهذا التصور إنما يؤكدون فكرة فصل الدين عن الدولة وإيجاد سلطة دينية وسلطة سياسية تتناقض كل منهما مع الأخرى.

---

[1] أنظر كتب التاريخ.. وانظر لنا السيف والسياسة.

وبالطبع لم يكن أمام الفقهاء سوى اختيار هذا الطريق إذ أن اشتراطهم العلم والاجتهاد في الحاكم سوف يؤدي إلى صدامهم مع حكام زمانهم ورفضهم، لكنهم قبلوا الاعتراف بالحكام الجهال كما قبلوا الاعتراف بالحكام الفجار ومغتصبي السلطة.

ويعتبر أهل السنة أن الذي يغتصب السلطة يجب إقراره وطاعته لأن رفضه والخروج عليه يعتبر مفسدة أعظم من مفسدة حكمه.

وهذا الموقف نابع من معايشة الفقهاء للأنظمة الوراثية الأموية والعباسية وغيرها والتي قتلت في ظلها روح الشورى وجعلت القتل والتآمر وسيلة الوصول إلى الحكم.

وليس هناك من حرج في هذا، فالفقهاء على الأبواب ينتظرون نتيجة أي صراع داخل العائلة الحاكمة أو خارجها ليباركوا المنتصر ويضفوا عليه الشرعية ويدعوا الرعية إلى طاعته وعدم السعي لإعادة المغلوب لأن في ذلك مفسدة أكبر.

فلا يجوز إذن إن يخلع الإمام بسبب الظلم أو الفسق أو غصب الأموال وضرب الابشار وتضييع الحقوق وتعطيل الحدود، فهذا أمر قد أقره جمهور الفقهاء، فمن ثم يعد من الإجماع الواجب التقيد به واعتقاده [1] .

وهناك رواية على لسان الرسول صلى الله عليه وآله توجب طاعة الإمام وإن جلد ظهرك وأخذ مالك [2] .

وإذا كان الأمر كذلك فما هي وظيفة الإمام إذن..؟

إن مثل هذا الاعتقاد عند أهل السنة إنما هو أحد الموروثات السياسية التي لا سند لها من النصوص القطعية وإنما سندها الوحيد هو الأحاديث المخترعة [3] .

---

[1] أنظر الأحكام السلطانية والتمهيد للباقلاني.

[2] أنظر مسلم كتاب الإمارة.

[3] أنظر لنا أحاديث نبوية اخترعتها السياسة.

يقول الشيخ جعفر السبحاني: وعلى هذا الأساس تسلط أصحاب السلطة من الأمويين والعباسيين على أعناق الناس وأراقوا الدماء واستباحوا الأعراض وانتهبوا الأموال، وصار أصحاب الحديث يبررون سلوكهم في عدم جهاد الطواغيت بهذه العلة التافهة (المفسدة الأعظم) التي لو أخذنا بها لاندرس من الدين حتى الاسم وهؤلاء المساكين لا يدرون أنه إنما قام للإسلام عمود واخضر له عود بمجابهة المخلصين من المسلمين عن طريق ثوراتهم وأعمالهم على السلطات الجائرة حتى استشهد كثير منهم وسقوا شجرة الإسلام بدمائهم الطاهرة فبقيت مخضرة تؤتي أكلها كل حين [1].

ويحدد بعض الفقهاء وظيفة الإمام في الأمة في عشرة أمور هي:

- حفظ الدين على الأصول التي أجمع عليها السلف.
- تنفيذ الأحكام بين المتشاجرين وقطع الخصام بينهم.
- حماية البيضة والذب عن الحوزة (الدفاع عن البلاد وتأمينها).
- إقامة الحدود لتصان محارم الله عن الانتهاك.
- تحصين الثغور بالعدة المانعة والقوة الدافعة.
- جهاد من عاند الإسلام بعد الدعوة حتى يسلم أو يدخل في الذمة.
- جباية الفيئ والصدقات.
- تقدير العطاء وما يستحق في بيت المال.
- استكفاء الأمناء وتقليد النصحاء.
- أن يباشر بنفسه مشارفة الأمور وتصفح الأحوال [2].

وهذه المهام العشر إذا ما حاولنا مطابقتها على واقع الحكام الذين ملكوا السلطة في تاريخ المسلمين فسوف نجد مفارقة كبيرة.

---

[1] مفاهيم القرآن: ج ٥ / ٢٠٠ ط. بيروت.

[2] الأحكام السلطانية لأبي يعلى.

فلن نجد حاكما واحدا حفظ الدين على وجهه الصحيح. أما حفظ الدين حسب منهج بني أمية وبني العباس الذي أقره السلف فهو أمر قد تحقق بالفعل ولا يزال متحققا على أيدي آل سعود وحكام النفط وغيرهم.

أما تنفيذ الأحكام وقطع الخصام هذه مهمة تكبرهم بكثير لأنهم كانوا جهلاء لا شأن لهم بالعلم الشرعي ولا يملكون آلة الاجتهاد، والمنفذ الفعلي لهذه المهمة هم القضاة، وحماية البلاد وتأمينها قام بها البعض وتقاعس آخرون.

وإقامة الحدود على أيديهم غير أمر معهود لجهلهم أولا.. واستحقاق إقامة الحدود عليهم ثانيا.

وتحصين الثغور والجهاد قام به الرعية والجنود وليس للحكام فضل في هذا. أم جباية الفيئ والصدقات فهو أمر قد تفانوا فيه وبذلوا فيه غاية الجهد حتى يضمنوا لأنفسهم رغد العيش والحياة في القصور والتسلي مع الحور.

واستكفاء الأمناء وتقليد النصحاء ومباشرة الأمور فلا أظن أن هناك عاقلا يقول إن هذه من مهمات الحكام.

فلو أحاط الحكام أنفسهم بالأمناء وقلدوا الأمور للنصحاء وباشروا أمور الرعية بما يرضي الله لقاموا بوظيفتهم، لكن شيئا من ذلك لم يحدث إلا في النادر.

ومما سبق يتبين لنا أن الإمام أو الخليفة أو أمير المؤمنين في نظر أهل السنة من السهل عليه أن يحكم ومن السهل عليه أن يطاع دون أن يؤدي وظيفته.

ومنهج أهل السنة يقوم على أساس إحسان الظن بالإمام (الحاكم) وتبرير ممارساته ومواقفه المتناقضة مع الشرع.

ويروى عن أبي يوسف: أنه لما حج مع هارون الرشيد فاحتجم الخليفة، وأفتاه مالك بأنه لا يتوضأ وصلى بالناس فقيل لأبي يوسف: أصليت خلفه؟ قال: سبحان الله. أمير المؤمنين. يريد بذلك أن ترك الصلاة خلف ولاة الأمور من فعل أهل البدع [1].

---

[1] العقيدة الطحاوية.

وقد دلت نصوص الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة أن ولي الأمر وإمام الصلاة والحاكم وأمير الحرب وعامل الصدقة يطاع في مواضع الاجتهاد. وليس عليه أن يطيع اتباعه في موارد الاجتهاد، بل عليهم طاعته في ذلك وترك رأيهم لرأيه فإن مصلحة الجماعة والائتلاف ومفسدة الفرقة والاختلاف أعظم من أمر المسائل الجزئية [١] .

ولا نرى الخروج على أئمتنا وولاة أمورنا وإن جاروا، ولا ندعوا عليهم ولا ننزع يدا من طاعتهم. ونرى طاعتهم لله عز وجل فريضة.. ما لم يأمروا بمعصية وندعوا لهم بالصلاح والمعافاة [٢] .

وأما لزوم طاعتهم وإن جاروا، فلأنه يترتب على الخروج من طاعتهم من الفاسد أضعاف ما يحصل من جورهم. بل في الصبر على جورهم تكفير السيئات ومضاعفة الأجور فإن الله تعالى ما سلطهم علينا إلا لفساد أعمالنا [٣] .

يروي البخاري وغيره عشرات الأحاديث التي توجب طاعة الحكام حتى وإن ظلموا وفجروا وأكلوا أموال الناس وجلدوا ظهورهم ما داموا يقيمون الصلاة [٤] .

---

[١] المرجع السابق.

[٢] المرجع السابق.

[٣] المرجع السابق.

[٤] يروي مسلم: خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم وتصلون عليهم ويصلون عليكم. وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم.. قلنا: يا رسول الله أفلا ننابذهم عند ذلك؟ قال: لا. ما أقاموا فيكم الصلاة.. إلا من ولي عليه وال فرآه يأتي شيئا من معصية الله.. فليكره ما يأتي من معصية الله ولا ينزعن يدا من طاعته.

ويروي البخاري: من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله.. ومن يطع الأمير فقد أطاعني ومن عصى الأمير فقد عصاني.. وفي مسلم والبخاري على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره.. من رأى من أميره شيئا فليصبر، فإنه من فارق الجماعة قيد شبر فمات فميتته جاهلية.. وفي رواية فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه.

ومثل هذه الروايات هي التي أسهمت بفضل فقهاء السلاطين في الحفاظ على ملك بني أمية وبني العباس وحتى المماليك العبيد. انظر مسلم كتاب الإمارة وشرحه للنووي..

وتنص عقيدة أهل السنة على أن الحج والجهاد ماضيان مع أولي الأمر من المسلمين بارهم وفاجرهم إلى قيام الساعة، لا يبطلها شئ ولا ينقضها [1] .

وينقل الباقلاني قول جمهور السنة من أهل الإثبات والحديث: لا ينخلع الإمام بفسقه وظلمه بغصب الأموال وضرب الابشار وتناول النفوس المحرمة وتضييع الحقوق وتعطيل الحدود. ولا ينخلع بهذه الأمور ولا يجب الخروج عليه بل يجب وعظه وتخويفه وترك طاعته في شئ مما يدعو إليه من معاصي الله، واحتجوا لذلك بأخبار كثيرة متضافرة عن النبي والصحابة في وجوب طاعة الأئمة وإن جاروا واستأثروا بالأموال [2] .

ويقول التفتازاني: وإذا مات الإمام وتصدى للإمامة من يستجمع شرائطها من غير استخلاف.. وقهر الناس بشوكته.. انعقدت الخلافة له، وكذا إذا كان فاسقا أو جائرا على الأظهر، إلا أنه يعصى بما فعل، وتجب طاعة الإمام ما لم يخالف حكم الشرع سواء كان عادلا أو جائرا.. ولا ينعزل الإمام بالفسق [3] .

---

[1] العقيدة الطحاوية.

[2] التمهيد للباقلاني.

[3] العقائد النسفية.

الإمامة والحركة الإسلامية

انعكست فكرة الإمامة عند أهل السنة على الحركة الإسلامية وبدا أثرها واضحا على مواقف الحركة وممارستها وتصورها في مواجهة الواقع.

وعلى رأس التيارات الإسلامية التي تطبعت بفكرة الإمامة التيار السلفي التقليدي الذي يسير على الخط الوهابي السعودي. فقد جعل هذا التيار من طاعة الحكام شعارا له مما أدى إلى أن يفرط في الاعتدال تجاه الواقع.

وقد تسلح تيار الإخوان بنصوص السمع والطاعة في محاولة منه لدرء الشبهات من حوله والتميز عن التيارات الإسلامية الأخرى التي تبنت فكرة الصدام مع الواقع.. وعلى مر الزمان كانت نصوص السمع والطاعة هي السلاح الذي يشهره فقهاء السلاطين في وجه كل فئة تشق عصا الطاعة.

ولا تزال هذه السنة باقية ومستمرة في زماننا في مواجهة التيارات الإسلامية.

يؤديها فقهاء السلاطين، كما ورثوها عن سلفهم.

لقد أوقعت مثل هذه النصوص الحركة الإسلامية المعاصرة في مآزق فكرية وحركية جعلتها سهلة الاحتواء والإجهاض من قبل القوى الحاكمة المتربصة بها.

ومن المآزق الفكرية التي تعيشها الحركة الإسلامية اليوم بسبب غياب فكرة الإمامة مأزق الحاكمية. وقد نتج عن هذا المأزق الفكري مآزق حركية مثل مأزق الخروج والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد.

ولكون التيارات الإسلامية اليوم قد سيطر عليها التصور السلفي خاصة التصور الذي طرحته مدرسة ابن تيمية التي بعثتها الدعوة الوهابية في العصر الحديث فقد أصبحت الحركة الإسلامية تعيش حالة من الصراع الفكري بين

ولائها للماضي ولرموزه المقدسة وبين متطلبات الواقع الذي تتحرك على ساحته والتي كثيرا ما تصطدم مع الماضي وتتناقض مع أطروحته.

ولقد تسبب الطرح السلفي الذي تبنته الحركة في تذويب القاعدة الفكرية التي ترتكز عليها. وبدلا من أن تكون لها قاعدة واحدة أصبحت لها قواعد متباينة ومتناحرة فيما بينها.. القاعدة الفكرية عند تيار الإخوان تصطدم مع القاعدة الفكرية عند التيار السلفي، والقاعدة الفكرية عند التيار السلفي تصطدم مع القاعدة الفكرية عند تيار الجهاد، والقاعدة الفكرية عند تيار التكفير تصطدم مع الجميع.

وجميع هذه التيارات تستمد تصورها من التراث السلفي وتتبنى أطروحته بكل مقوماتها وتوجهاتها، وفي مقدمتها أطروحة الإمامة.

إلا أنه يمكن القول بإن فكرة الإمامة انعكست على تيار الجهاد بشكل أكثر فاعلية من دون بقية التيارات الأخرى. لتبني هذا التيار أسلوب الصدام مع الواقع ورفعه شعار إقامة الخلافة الإسلامية.

وتبدو قضية الحاكمية التي تعد الوجه العصري لفكرة الإمامة هي المحور الذي تدور من حوله الحركة الإسلامية، وهي أيضا مرتكز الخلاف بين هذه التيارات، وباعث النظريات الحديثة في الوسط الإسلامي اليوم.

*** مأزق الحاكمية:**

كان أول طرح لفكرة الحاكمية على يد الخوارج حين واجهوا الإمام عليا عليه السلام بقول الله تعالى: ﴿**إن الحكم إلا لله**﴾.

ثم ظهر هذا الشعار في العصر الحديث على يد أبو الأعلى المودودي أمير الجماعة الإسلامية في باكستان. وحسن البنا زعيم الإخوان، سيد قطب في كتابيه (في ظلال القرآن) و (معالم في الطريق).

ويعد سيد قطب أول من أبرز فكرة الحاكمية كاملة الأركان واضحة المعالم في ساحة الحركة الإسلامية، وتلقفتها منه التيارات الإسلامية التي نشأت في مرحلة ما بعد الإستعمار.

إلا أن طرح سيد قطب لقضية الحاكمية استفز الإخوان لكونه كان يمثل في نظرهم طرحا متشددا لها ومستفزا من جانب آخر لنظام الحكم.

وهو فوق هذا يعد طرحا براقا للشباب جذبهم إلى خطه بعيدا عن خط حسن البنا [1].

وفي فترة الستينات بدأ سيد قطب يبرز على ساحة الحركة الإسلامية في مصر وبدا وكأنه التيار الذي يمثل المرحلة. مما دفع بالإخوان إلى الصدام به. وقد برز هذا الصدام بصورة واضحة داخل المعتقلات حين وجه عبد الناصر ضربته الثانية لتيار الإخوان، وقد أدى هذا الصدام إلى تصدع جماعة الإخوان وانقسامها إلى تيارين: تيار انحاز إلى سيد قطب وتيار بقي على خط البنا [2].

وكان خط سيد قطب يمثل تمردا على فكرة الإمامة عند أهل السنة [3].

وكان خط البنا يمثل الالتزام بهذه الفكرة [4].

إلا أن بعض أتباع قطب تناولوا أطروحته بشئ من الغلو ولم يحصروها في مواجهة الحكام فقط بل تعدوا إلى توجيهها للمخالفين لهم وللناس بشكل عام. وكانت هذه بداية ظهور خط التكفير في الوسط الإسلامي.

---

[1] طرح سيد قطب فكرة الحاكمية بصورة صدامية مع القوى الحاكمة، وفي هذا تحرر من عقيدة أهل السنة التي توجب طاعة الحكام والصبر عليهم ونصحهم، مما دفع بالإخوان المتقيدين بعقيدة أهل السنة إلى الصدام معه. وقد شكل طرح سيد قطب هذا جاذبية كبيرة للشباب المسلم آنذاك الذي استفزه عبد الناصر وهجمته الشرسة على جماعة الإخوان كما شكل جاذبية للشباب فيما بعد مما استفز الإخوان ودفعهم إلى مهاجمته ومحاولة عزل الشباب عن طرحه.

[2] أنظر لنا الحركة الإسلامية في مصر. ط. القاهرة.

[3] ينادي سيد قطب بالجهاد وتكفير الحكومات، انظر معالم في الطريق..

[4] ارتبط حسن البنا بحكومات عصره، وكان على صلة بالقصر، وقد تصدى الإخوان لطرح قطب داخل المعتقلات في فترة الستينات، وكذلك طرح تيار التكفير الذي انبثق عنه، وكتبوا الردود ضدهما. وقد جمعت هذه الردود بعد ذلك في كتاب تحت عنوان: " دعاة لا قضاة "، وهو من نشر الإخوان وتأليف المرشد الراحل حسن الهضيبي.

ثم تلقف تيار الجهاد فكرة الحاكمية من سيد قطب بعد ذلك، وجعلها مرتكز نظريته الجهادية، ثم ارتد عنها تحت تأثير الموجة السلفية السعودية التي أغرقت الواقع الإسلامي بمصر في فترة السبعينات واستبدلها بفكرة ابن تيمية [١] .

ويبدو أن طرح السلف لم يعن تيار الجهاد على إبراز فكرة الحاكمية بصورة تحسم الخلاف وتعين على مواجهة الواقع مما فتح ثغرة للتيارات المناوئة له وفي مقدمتها تيار الإخوان والسلفيين اللذان أصدرا الكثير من الكتب لإبراز الفكرة الحقيقية للإمامة كما يراها السلف لا كما يراها تيار الجهاد [٢] .

ثم انشق عن التيار السلفي تيار جديد يرى فكرة الحاكمية بصورة واقعية وسطية بين طرح السلف وطرح سيد قطب [٣] .

وبرز تيار تكفيري جديد يؤمن بالجهاد والصدام مع الواقع، وارتبط ببعض الأحداث التي وقعت في الساحة المصرية عام ٨٧ [٤] .

ومثل هذا الخلاف والتطاحن بين الاسلاميين - والذي يتجلى بصورة واضحة في الساحة المصرية. وقد أدى ولا زال يؤدي إلى انشقاقات وحركة تفريخ مستمرة بين التيارات الإسلامية - مثل هذا الخلاف إنما يعود سببه إلى غياب الفكرة الحقيقية للإمامة عن واقع المسلمين.

---

[١] أغرق سوق الكتاب بمصر من فترة السبعينات بكتب التيار الوهابي والتي كانت توزع مجانا على طلبة الجامعات، وأسهمت في تشكيل عقولهم وسيادة الطرح السلفي خاصة طرح ابن تيمية على سائر الأطروحات الأخرى السائدة في الوسط الإسلامي بمصر آنذاك وعلى رأسها الطرح الحركي الواقعي وطرح حزب التحرير.

[٢] أصدر الإخوان كتاب دعاة لا قضاة للهضيبي. وكتاب الحكم وقضية تكفير المسلم لسالم بهنساوي وأصدر التيار السلفي الكثير من كتب السلف وعلماء السعودية حول هذا الأمر.

[٣] أصدر هذا التيار أول منشوراته بتكفير الحكام ورفض الانتخابات التشريعية التي كان قد أسهم فيها التيار الإسلامي. وكان هذا المنشور تحت عنوان: القول السديد في أن دخول مجلس الشعب مناف للتوحيد.

[٤] هو التيار الذي قاد حركة اغتيالات غير ناجحة آنذاك ضد وزيري الداخلية النبوي إسماعيل وحسن أبو باشا ومكرم محمد أحمد رئيس تحرير مجلة المصور المصرية. انظر لنا الحركة الإسلامية في مصر.

وعلى الرغم من أن تيار التكفير قد تحرر من اتباع الرجال وكفر بالتراث السلفي إلا أنه وقع فريسة الأحاديث المتناقضة حول الإمامة. وبالتالي عجز عن استنباط نظرية مواجهة للواقع تكفل له الاستمرار والبقاء.. [١] .

كما وقع أيضا تيار الجهاد فريسة عقيدة أهل السنة التي تنص على جواز الصلاة والجهاد وراء كل أمير برا كان أو فاجرا.. وقد دفعت بعناصر الجهاد إلى الهجرة إلى أفغانستان للجهاد هناك تحت رايات يجهلون هوياتها ودوافعها، وقد جذبهم نحوها مظهرها السلفي، ووضوح عقيدة الطرف المحارب وهي الشيوعية.

ولو كانت الفئة المقصودة بالجهاد في أفغانستان ليست شيوعية وكانت تتبنى أي عقيدة أخرى لما شكلت عامل جذب للتيار الإسلامي، حيث أنها في هذه الحالة فيها شبهة إسلامية، والقتال لا يكون إلا لا صحاب الكفر البواح حسب تعبير الأحاديث، أي أن الأمر بصورة أخرى، لو أن الصراع الدائر في أفغانستان كان بين المنظمات الأفغانية وبين اليمينيين أو نظام طاهر شاه ما كان هناك مبرر للجهاد، لأن عقيدة أهل السنة كما بينا لا تجيز قتال الحكام حتى ولو كانوا فجارا ظالمين. ولا تجيز إراقة دماء أهل القبلة من الناطقين بالشهادتين حتى ولو كانوا يتسترون بها. ويجيزون الخروج والقتال في حالة الكفر البواح كما هو حال الشيوعيين الملحدين مع أن هناك الكثير من حالات الكفر البواح ظاهرة في عصر بني أمية وبني العباس من قبل خلفاء يشهد واقعهم وسلوكهم بذلك، إلا أن أهل السنة لم يعلنوا النفير في مواجهتهم وهم قد أعلنوها في أفغانستان لإجماع الحكام على جواز الجهاد فيها [٢] .

---

[١] تبنى تيار التكفير فكرة رفض التقليد ووضع قاعدة (من قلد كفر) واستند إلى قوله تعالى: (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) التوبة.. وهو بالتالي كفر بالتراث ونتاجات الفقهاء. لكنه وقع في حيرة بسبب الأحاديث المتناقضة حول طاعة الحكام والخروج عليهم وكفرهم وحول وضع الصحابة وتجاوزاتهم واجتهاداتهم على النصوص مما دفع به إلى استنباط نظرية سلبية في مواجهة الواقع تقول برفض الجهاد وانتظار حدوث الملحمة الكبرى آخر الزمان.

[٢] لو أن السعودية كانت تنازلت عن دعم الثورة الأفغانية لما حدث ذلك الإجماع على تأييد هذه الثورة ودعمها من قبل دول الخليج وباكستان وغيرها. ولما انزلقت الحركة الإسلامية في متاهة هذه الثورة التي كان وقودها النفط والدولار. ولو لم يكن هناك إجماع من فقهاء النفط على

وقضية جواز الصلاة وراء البر والفاجر جعلت الاسلاميين والتيارات الإسلامية تتفاعل مع واقع هي ترفضه وترتع في مساجد حكومة هي تكفرها وتصلي خلف رجال الدين الحكوميين الذين يضفون الشرعية على الحكومة..

ماذا بقي لها بعد ذلك من عقيدة تواجه بها الواقع؟

وفي الواقع المصري حدثت صدامات كثيرة بين تيار الجهاد وبين تيار الإخوان بسبب الصراع على المساجد في صعيد مصر. كما حدثت صدامات بين التيار السلفي وتيار الإخوان بسبب نفس الأمر، ثم تطور الأمر ليتحول إلى صدام مع الحكومة بسبب هذه المساجد التي اتخذت منها بعض التيارات مقرا لها تبث من خلالها دعوته خاصة تيار الجهاد في الصعيد، مما دفع بالحكومة مؤخرا إلى القيام بعملية مصادرات واسعة لهذه المساجد في بقاع كثيرة في مصر [1].

ولقد شكلت هذه المساجد نقطة ضعف لتيار الجهاد النشط في صعيد مصر وفي بعض أحياء القاهرة وأتاحت للحكومة فرصة رصدها بسهولة.

ويعود تمسك التيارات الإسلامية في مصر بالمساجد إلى أساس سلفي تدعمه النصوص النبوية الواردة في المساجد وأقوال السلف. ولما كانت التيارات الإسلامية في مصر يسيطر عليها العقل السلفي فمن ثم هي لا تهتم بالأبعاد الأمنية والسياسية لعملية استغلال المساجد أو هي في غفلة عنها بسبب عقل الماضي [2].

وكان طرح تيار التكفير الذي ظهر في منتصف السبعينات بمصر قد تحرر إلى حد كبير من فكرة الإمامة، حيث تبنى قوله تعالى: ﴿**ومن لم يحكم بما أنزل**

مواجهة الكفر البواح في أفغانستان ما شكلت الثورة الأفغانية أدنى جاذبية للشباب المسلم الذي اندفع أفواجا في صفوفها، وقد أدت الثورة الأفغانية خدمة جليلة لحكام النفط وفقهائهم، إذ صرفت وجوه هؤلاء الشباب عن الكفر البواح في بلادهم.

[1] أنظر لنا الحركة الإسلامية في مصر. وقد تركزت حركة المساجد في صعيد مصر حيث ينشط تيار الجهاد السلفي..

[2] أنظر الحركة الإسلامية، والعقل المسلم بين أغلال السلف وأوهام الخلف.

الله فأولئك هم الكافرون﴾ وخالف تفسير السلف لهذا النص وأخذه على ظاهره.

*** مأزق الوعي:**

تشبعت الحركة الإسلامية المعاصرة بالفكر السلفي الذي تمخض عن الحقبة النفطية المعاصرة التي تغذى من قبل النظام السعودي الوهابي. وقد نتج عن هذا التشبع أن زهدت الحركة الإسلامية في فقه الواقع وانكبت على كتب السلف، خاصة كتب ابن تيمية، تستقي منها تصورها وعقائدها وأفكارها في مواجهة الواقع.

وهناك عدة كتب تراثية متداولة بين أيدي الشباب المسلم اليوم خاصة في مصر كان لها أثرها الفعال في دعم حالة اللاوعي التي تعيشها التيارات الإسلامية أمام الأحداث والمتغيرات الراهنة.

وفي مقدمة هذه الكتب كتب محمد بن عبد الوهاب وكتاب العقيدة الواسطية لابن تيمية والعقيدة الطحاوية للطحاوي والعواصم من القواصم لأبي بكر بن العربي. وهذه الكتب الأربعة هي أعمدة الخط السلفي المعاصر وأساس التربية الفكرية للعاملين في ساحة الحركة الإسلامية [١] .

ونحن هنا لن نعرض لهذه الكتب أو نناقش المفاهيم التي تطرحها وإنما يعنينا الدور الذي تلعبه هذه الكتب وغيرها في مأزق الوعي الذي تعيشه الحركة الإسلامية اليوم والذي يمكن تجسيمه في فكرة الإمامة المنعكسة في هذه الكتب على حركة التاريخ بحيث قتلت حدثيته وعومت حركته وشوهت معالمه مما أدى إلى اضمحلال الوعي التاريخي لدى أجيال الحركة المعاصرة ونتج عن الأخير تخبط الحركة في مواجهة الواقع.

فهذه الكتب، خاصة العواصم من القواصم، تعمى على الصراعات التي دارت بسبب الإمامة بين الصحابة وبعضهم وبين الإمام علي وعائشة ثم معاوية.

---

[١] أنظر مناقشة هذه الكتب الثلاثة في كتابنا فقه الهزيمة.

وتخوف المسلم من الخوض في تفاصيلها ومعرفة دوافعها وأبعادها. وصورت هذا الأمر على أنه مهلكة من الممكن أن تدمر عقيدة المسلم وتنقله من الصراط المستقيم إلى أصحاب الجحيم. وقد اعتبر صاحب العواصم أن السكوت عن هذه الخلافات والصراعات بمثابة عاصمة والخوض فيها بمثابة قاصمة، فكتابه مجموعة من العواصم تقي المسلم من القواصم.

ولقد دخل أمر السكوت عن هذه الأحداث في صلب الاعتقاد، بحيث أصبح المساس بها وبالشخصيات التي ارتبطت بها يعتبر مساسا بالعقيدة.

تقول العقيدة الطحاوية: ونحب أصحاب رسول الله ﷺ ولا نفرط في حب أحد منهم، ولا نتبرأ من أحد منهم، ونبغض من يبغضهم، وبغير الخير يذكرهم، ولا نذكرهم إلا بخير، وحبهم دين وإيمان وإحسان، وبغضهم كفر ونفاق وطغيان. ومن أحسن القول في أصحاب رسول الله وأزواجه الطاهرات من كل دنس، وذرياته المقدسين من كل رجس، فقد بريء من النفاق.. وعلماء السلف من السابقين ومن بعدهم من التابعين أهل الخير والأثر، وأهل الفقه والنظر لا يذكرون إلا بالجميل، ومن ذكرهم بسوء فهو على غير السبيل.

وتقول العقيدة الواسطية: ومن أصول أهل السنة والجماعة سلامة قلوبهم وألسنتهم لأصحاب رسول الله ﷺ ، ويقبلون ما جاء به الكتاب والسنة والإجماع من فضائلهم مراتبهم، ويفضلون من أنفق من قبل الفتح وقاتل على من أنفق من بعد وقاتل، ويقدمون المهاجرين على الأنصار.. ويمسكون عما شجر بين الصحابة، ويقولون إن هذه الآثار المروية في مساويهم منها ما هو كاذب ومنها ما قد زيد فيه ونقص وغير عن وجهه الصحيح منه، هم فيه معذورون، إما مجتهدون مصيبون وإما مجتهدون مخطئون.

وهم مع ذلك لا يعتقدون إن كل واحد من الصحابة معصوم عن كبائر الإثم وصغائره، بل لا يجوز عليهم الذنوب في الجملة، ولهم من السوابق والفضائل ما يوجب مغفرة ما يصدر عنهم إن صدر. حتى أنهم يغفر لهم من السيئات ما لا يغفر لمن بعدهم لأن لهم من الحسنات التي تمحو السيئات ما ليس لمن بعدهم.

ثم إذا كان قد صدر من أحدهم ذنب فيكون قد تاب منه أو أتى بحسنات تمحوه أو غفر له بفضل سابقته أو بشفاعة محمد صلى الله عليه وسلم الذي هم أحق بشفاعته. أو ابتلى ببلاء في الدنيا كفر به عنه.

فإذا كان هذا في الذنوب المحققة فكيف الأمور التي كانوا فيها مجتهدين وإن أصابوا فلهم أجران وإن أخطأوا فلهم أجر واحد والخطأ مغفور.

وتقول جوهرة التوحيد: لما ذكر أن صحبة الرسول صلى الله عليه وسلم خير القرون أحتاج للجواب عما وقع بينهم من المنازعات الموهمة قدحا في حقهم مع أنهم لا يصرون على عمل المعاصي. وإن لم يكونوا معصومين، وقد وقع تشاجر بين علي ومعاوية وقد افترقت الصحابة ثلاث فرق:

فرقة اجتهدت فظهر لها أن الحق مع علي عليه السلام فقاتلت معه.

وفرقة اجتهدت فظهر لها أن الحق مع معاوية فقاتلت معه.

وفرقة توقفت..

وقد قال العلماء: المصيب بأجرين والمخطئ بأجر واحد.

وقد شهد الله ورسوله لهم بالعدالة. والمراد من تأويل ذلك أن يصرف إلى محمل حسن لتحسين الظن بهم فلم يخرج واحد منهم عن العدالة بما وقع بينهم لأنهم مجتهدون.

ينص متن الجوهرة على ما يلي: وأول التشاجر الذي ورد، إن خضت فيه واجتنب داء الحسد.

ويعلق الشارح قائلا: أي إن قدر أنك خضت فيه فأوله ولا تنقص أحدا منهم، وإنما قال المصنف ذلك لأن الشخص ليس مأمورا بالخوض فيما جرى بينهم، فإنه ليس من العقائد الدينية، ولا من القواعد الكلامية، وليس مما ينتفع به في الدين، بل ربما ضر في اليقين، فلا يباح الخوض فيه إلا للرد على المتعصبين أو للتعلم. أما العوام فلا يجوز لهم الخوض فيه.

فتأمل كلام ابن تيمية تجده يضفي العصمة على جميع الصحابة ويبرر انحرافاتهم ويضمن لهم مغفرة هذا الانحراف.

وتأمل قول صاحب الجوهرة.

وأمام هذا الكلام يجب أن يتوقف العقل عن التفكير ويكف اللسان عن الكلام وإلا حاد عن طريق الفرقة الناجية وأصبح في عداد الهالكين.

ويقول ابن حنبل: والكف عن مساوئ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله، تحدثوا بفضائلهم وأمسكوا عما شجر بينهم، ولا تشاور أحدا من أهل البدع في دينك، ولا ترافقه في سفرك. ولا يجوز لأحد أن يذكر شيئا من مساويهم، ولا يطعن على أحد منهم. فمن فعل ذلك وجب على السلطان تأديبه وعقوبته. ليس له أن يعفو عنه، بل يعاقبه ثم يستتيبه فإن تاب قبل منه وإن لم يتب أعاد عليه العقوبة وجلده في المجلس حتى يتوب [1] .

لقد اعتبر أهل السنة كل من يخرج عن هذا المنهج مبتدعا، يجب اعتزاله ومعاقبته، وها هو ابن حنبل يحرض السلاطين على ردع المخالفين من أصحاب العقول الذين يريدون فهم التاريخ وأحداثه كمقدمة لفهم دينهم.

وهذا نداء وجهه مجموعة من فقهاء النفط إلى المسلمين يطالبون فيه المسلمين بالسمع والطاعة للحكام، عدلوا أو جاروا ما أقاموا الصلاة وإقامة الحج والجهاد والجمع والأعياد مع الأمراء أبرارا كانوا أو فجارا. متبرئين فيه من الخوارج والمعتزلة الذين يرون الخروج على الأئمة، بمجرد الجور والمعصية. داعين إلى التمسك بسنة الخلفاء الراشدين محذرين من البدع ومحدثات الأمور [2]

لقد أدت هذه القواعد السلفية الجامدة إلى تكبيل العقل المسلم وتعطيله عن القيام بدوره الذي خلق من لأجله وهو التفكير والتدبر والبحث والتأمل [3] .

ولا شك أن الاعتقاد بصواب موقف عائشة وطلحة والزبير وعثمان ومعاوية سوف يؤدي بلا شك إلى تمييع فكرة الحق في نفوس المسلمين وتسطيحها.

---

[1] ابن حنبل، السنة وعقيدة أهل السنة والجماعة.

[2] نداء من علماء البلد الحرام في معتقد أهل الإسلام ط. السعودية.

[3] أنظر لنا العقل المسلم.

ومثل هذا التمييع والتسطيح سوف ينتج عنه مفهوم غير واع بالإسلام وبالقوى التي تتربط به وتهدد مسيرته.

إن أخطر النتائج من وراء الاعتقاد بعدالة جميع الصحابة وعدم الخوض في مساوئهم وانحرافاتهم هي ضياع فقه العدو الذي يعد الركن الأساسي لقيام مواجهة واعية وفاعلة من أجل التغيير وتمكين الإسلام.

وإن مثل هذا العقائد إنما هي من اختراع السياسة بهدف حماية الحكام وأصحاب المصالح والنفوذ. وقد طوعت لأجلها الكثير من النصوص من أجل إضفاء الصبغة الشرعية عليها حتى يقبلها الناس.

فما دام معاوية أصبح إماما ومجتهدا مأجورا عدلا وكل حكام المسلمين ممن على شاكلته أصبحوا أئمة للمسلمين يجب السمع والطاعة لهم، فمن هو الذي يتآمر على الإسلام إذن؟! ومن الذي عوق مسيرته وأوصلنا إلى مرحلة السقوط والضياع والانحطاط التي نعيشها اليوم..؟!

ولقد تفرخ عن هذا الاعتقاد إضفاء الشرعية على نظام آل سعود الذي يعد امتدادا للأنظمة السابقة التي حكمت المسلمين من بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله والذي تمكن بعون الفقهاء وبعض التيارات الإسلامية وفي مقدمتها تيار الإخوان المسلمين من اختراق الحركة الإسلامية واحتوائها، وهذه النتيجة هي أخطر نتائج هذا الاعتقاد السلفي. أن أصبحت التيارات الإسلامية ألعوبة في يد الحكام وعلى رأسهم آل سعود..

ولقد عايشنا ولا زلنا نعايش تجربة الإخوان المسلمين مع آل سعود ومدى الآثار السلبية التي نتجت عن هذا التعايش بين الإخوان والسعوديين على الحركة الإسلامية بشكل عام.

وهنا نصل إلى تشخيص مأزق الوعي الذي تعيشه الحركة الإسلامية اليوم تشخيصا واقعيا له امتداداته من الماضي.

كيف يمكن للحركة الإسلامية أن تبني خطة فاعلة في مواجهة الواقع وهي لا تملك القدرة على التمييز بين العدو والصديق..؟

إن الذين لم يفرقوا بين علي ومعاوية في الماضي لن يفرقوا بين آل سعود والإسلام في الحاضر..

ولن يفرقوا بين الجهاد في فلسطين والجهاد في أفغانستان.

إنني لا أجد بين التيارات الإسلامية المعاصرة وبين الرموز البارزة في ساحتها من يجرؤ على الخوض في آل سعود أو سحب الاعتراف بهم كنظام إسلامي.

ذلك لأن بركات النفط قد حلت على الجميع وعلى رأسها التيارات الإسلامية، والفضل يرجع في ذلك كله إلى الإخوان المسلمين الذين لاذوا بهذا النظام واحتموا به، ووجدت التيارات الإسلامية ورموزها البارزة ما يبرر موقفها من آل سعود في عقائد السلف التي أضفت الشرعية على الأمويين والعباسيين وحتى المماليك.

والسعوديون لا يختلفون عن هؤلاء في شئ، وهم يرفعون راية السلف وينشرون دعوتهم في الآفاق، ففي نصرة دعوة السلف نصرة لهم. فعقائد السلف تمنحهم الشرعية كما منحت بني أمية وبني العباس، وتعتبرهم أئمة يجب على المسلم أن يسمع لهم ويطيع ويقاتل تحت رايتهم إيران والعراق وسائر البغاة المارقين ويصلي ويحج معهم.

إن تلك هي النتيجة الطبيعية لكل الذين يسيرون على خط بني أمية أن يكونوا في النهاية من السائرين على خط آل سعود..

وهذه النتيجة التي أوصلت الحركة الإسلامية إلى مأزق الوعي الذي تعيشه والذي أوقعها فريسة الأخطبوط السعودي.

*** مأزق الخروج:**

يعد تيار الجهاد من أكثر التيارات الإسلامية حيرة في مواجهة الواقع.

فالتيار السلفي وتيار الإخوان قد تبنيا موقف السلف وعقائدهم في مواجهة الواقع والتي تحض على الاستسلام له والتعايش معه.

أما تيار الجهاد فيسعى جاهدا للصدام مع الواقع، غير أنه لا يجد في الأطروحة السلفية التي يتبناها ما يعينه على ذلك، فالنصوص النبوية التي تحدد علاقة الحاكم بالمحكوم تقيده..

والنصوص السلفية التي ألحقت بهذه النصوص النبوية زادت الأمور تعقيدا ووضعت عشرات العراقيل أمام أية محاولة للخروج والانتفاضة في وجه الحكام. والتيارات الإسلامية الأخرى التي تتحصن بهذه النصوص تتربص به..

ومن ثم اندفع هذا التيار يخوض في تراث السلف عسى أن يجد شيئا يدعم به تصوره ويضفي عليه المشروعية.

وسرعان ما تم اكتشاف موقف لابن تيمية وبعض فتاوى خاصة به وببعض أتباعه تلقفها تيار الجهاد في شغف وصدع بها في مواجهة الواقع والتيارات الأخرى المناهضة. أما الموقف فيتمثل في رؤية ابن تيمية لحادثة وقعت في عصره لمجموعة من التتار الذين أسلموا ثم قاموا بإعداد دستور للحكم أسموه (الياثق) وهو خليط من أفكار جنكيز خان على آيات من القرآن والإنجيل والتوراة. فحكم ابن تيمية بكفرهم وردتهم عن الإسلام واعتبرهم من معطلي الشرائع الذين تستباح دماؤهم وأموالهم، وله فتوى كبيرة حول هذا الأمر [1] .

وهذه الفتوى اعتمدها تيار الجهاد وطبقها على الواقع والحكام وجعل منهما منطلقه الفكري العقائدي في مواجهة الواقع بالإضافة إلى فتاوى أخرى له موجهة إلى أهل الذمة من اليهود والنصارى تستبيح أموالهم ودماءهم في أحوال معينة.

وقد نسي تيار الجهاد أو تناسى أن طرح ابن تيمية هذا يعد شاذا في وسط أهل السنة كحال أطروحاته الأخرى في مسائل الفقه والاعتقاد.

إلا أن ما يجب أن نبينه هنا أن معظم التيارات الإسلامية المعاصرة، خاصة التيارات الإسلامية في مصر، قد رضعت الفكر الوهابي السعودي

[1] أنظر تفاصيل هذه الفتوى في الفتاوى الكبرى لابن تيمية..

وارتوت منه طوال فترة السبعينات والثمانينيات وهي فكرة نمو هذه التيارات واشتدادها.

ومن المعروف أن الخط الوهابي نهض أساسا على فكر ابن تيمية وأطروحاته الشاذة التي ضربت تاريخيا وتم بعثها من جديد على أيدي ابن عبد الوهاب.

وينبغي لنا أن نقرر هنا أن تيار الجهاد في مصر عندما قرر اغتيال السادات واستباحة دمه اعتمد في المقام الأول على فتوى ابن تيمية المتعلقة بالتتار.

كما اعتمد على فتاواه الأخرى المتعلقة بأهل الذمة في استباحة دماء وأموال نصارى مصر [1].

وكتاب " الفريضة الغائبة " الذي قام بتأليفه محمد عبد السلام فرج أحد الخمسة الذين أعدموا في عملية اغتيال السادات اعتمد في المقام الأول على آراء ابن تيمية ومن سار على نهجه في تكفير الحكام واستباحة دماء أهل القبلة..

وفتوى قتل السادات إنما صدرت في نهاية عهده أي بعد فترة لا تقل عن عشر سنوات من حكمه، وبعد أن كشر عن أنيابه في وجه التيارات الإسلامية، وأعلن فصل الدين عن الدولة، وقرر أنه لا سياسة في الدين ولا دين في السياسة، وشبه حجاب النساء بالخيمة، ثم أصدر قراراته بتصفية الحركة الإسلامية.

ومثل هذه المواقف والقرارات من قبل السادات هي التي دفعت تيار الجهاد إلى البحث في أمر قتله واستصدار الفتوى التي تبيح ذلك.

ولو لم يكن السادات قد أقدم على هذه الأمور ما كان قد استفز التيار الإسلامي وعجل بصدور فتوى استباحة دمه.

إن القاتل الحقيقي للسادات هو ابن تيمية وما كان الذين أطلقوا الرصاص عليه سوى أدوات عصرية حركها عقل الماضي، لأجل ذلك فإن هذه العملية

---

[1] جمعت هذه الفتاوى وغيرها في كتاب الفريضة الغائبة الذي ألفه محمد عبد السلام فرج وكان يوزع سرا في الوسط الإسلامي، وعمليات السطو على محلات الذهب التي يملكها المسيحيون تعتمد على هذه الفتاوى، وكذلك عمليات حرق الكنائس..

المذهلة لم تكن في حقيقتها سوى طفرة حركية بدأت وانتهت وقعدت في مكان الحادث ولم تتجاوزه.

ويعود السبب في ذلك إلى أن منطلق التحرك لقتل السادات لم يكن منطلقا سياسيا تغييريا وإنما منطلقا شرعيا على أساس فتوى صادرة فيه وحده دون من حوله، حرص منفذوها على ألا تصيب رصاصاتهم غير السادات من باب الحرص الشرعي.

ومثل هذه الحادثة التاريخية التي عجزت الحركة الإسلامية في مصر عن استثمارها إنما تؤكد الانتكاسة الحركية التي منيت بها الحركة بسبب تلك الأفكار السلفية العقيمة التي تتعلق بفكرة الإمامة التي تضع عشرات المحاذير حول الخروج على الحكام والصدام معهم والتي هي في الأصل من اختراع السياسة..

لقد كان طرح تيار الجهاد يعد طرحا سياسيا سلفيا مهزوزا في مواجهة طرح التيارات الأخرى التي ترفض فكرة الخروج وتدين بالسمع والطاعة للحكام.

والمتأمل في الردود التي تصدت لتيار الجهاد من قبل الأزهر وفقهاء السلطة والتيار السلفي سوف يتبين له قوة هذه الردود وتحصنها بالنصوص التي تعصم دماء الحكام وتوجب السمع والطاعة لهم وهي مروية في الغالب في الصحيحين مما يجعل فرصة نقدها أو تضعيفها غير واردة.

من هنا يتبين لنا مدى جسامة المأزق الحركي (مأزق الخروج) الذي يعانيه تيار الجهاد بسبب هذا الكم الهائل من النصوص النصوص المتعلقة بالإمامة عند أهل السنة والتي تجعل مسألة الخروج على الحكام والصدام تتطلب الخروج على هذه النصوص وتحطيم الأطر السلفية واستبدالها بأطر أخرى أكثر وعيا وارتباطا بالواقع. وهذا ما يجرؤ أحد على فعله.

والتيار الإسلامي الوحيد الذي تجرأ على هذه الأطر السلفية هو تيار التكفير غير أنه لم يوظف تصوره توظيفا صحيحا.

الإمامة عند الشيعة

تعد الإمامة عند الشيعة أصلا من أصول الدين.. وهذا الأصل هو ما يميزها عن أهل السنة وعن الفرق الأخرى.

ولأجل تبني الشيعة قضية الإمامة نعتوا بالشيعة الإمامية، أي الذين يعتقدون في اثني عشر إماما بعد الرسول ﷺ .

والشيعة حين تتبنى قضية الإمامة إنما تستند في ذلك إلى حجج شرعية تتمثل في نصوص قرآنية ونبوية بالإضافة إلى حجج عقلية.

وهذه النصوص القرآنية والنبوية يعمل بها أهل السنة أيضا لكنهم لا يفهمون منها ذلك الفهم الذي تفهمه الشيعة منها.

وهذا لا يعني أن جميع نصوص الإمامة تعد نصوصا ظنية، بل هناك نصوص قطعية واضحة الدلالة على الإمامة إلا أن أهل السنة سيرا مع قاعدة التأويل والتبرير يخضعون هذه النصوص للمفهوم الذي يتناسب مع عقائدهم.

ولا يخفى أن السياسة تدخلت في تفسير النصوص المتعلقة بالإمامة بل إنها اخترعت نصوصا مضادة لها على ما سوف نبين.

وتحاول بعض الاتجاهات من القدماء والمعاصرين إثارة الشبهات حول فكرة الإمامة عند الشيعة، وذلك بهدف تقويضها والتشكيك في نشأتها لإيصال المسلمين إلى قناعة بأنها فكرة طارئة على الدين ومخترعة من قبل عناصر مدسوسة.

ولقد شغلت قضية الإمامة المسلمين من بعد وفاة الرسول ﷺ وشهرت السيوف وأريقت الدماء ودب الخلاف بين الأمة بسببها، وما كان كل ذلك يمكن أن يحدث لولا أن هناك انحرافا حدث عن خط الرسول صلى الله عليه وآله بدأ مع مرحلة السقيفة وانتهى بظهور الملكية على يد معاوية [1] .

---

[1] أنظر لنا السيف والسياسة وهو كتاب يعرض لمحطات ظهور الخط الأموي في واقع المسلمين واختفاء خط آل البيت.

ومثل هذا الاهتمام وهذا الصراع الذي دار حول الإمامة إنما يؤكد أهميتها وكونها ليست من القضايا الهامشية في الدين كما يحاول أهل السنة أن يصوروا ذلك.

وجوهر الخلاف بين الشيعة وأهل السنة حول الإمامة إنما يكمن في موقف كل من الطرفين من آل البيت.

فموقف أهل السنة من آل البيت هو موقف عائم، فهم يعرفونهم بأنهم أزواج النبي وآل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس [1].

أما موقف الشيعة فهو موقف محدد يحصرهم في ذرية علي عليه السلام، ولديهم من النصوص ما يدعم هذا الموقف.

وبالطبع فإن مثل هذا الموقف العائم من قبل أهل السنة لا تبنى عليه فكرة الإمامة خاصة أنهم لا يجعلون لآل البيت أي خصوصية تميزهم عن بقية المسلمين.

أما حصر آل البيت في ذرية علي وإيجاد خصوصية لهم بحكم النصوص فيفرض وجوب الإمامة عليهم وهو ما تقول به الشيعة.

وسوف نعرض في هذا الفصل نظرية الإمامة عند الشيعة مستعرضين للأدلة الشرعية والعقلية التي تقول بوجوبها.

هل الإمامة ضرورة..؟:

يعتبر الشيعة أن الإمامة ضرورة كضرورة الرسل. فكما أن مهمة الرسل هي هداية أقوامهم وإرشادهم إلى الصراط المستقيم كذلك مهمة الإمام بالنسبة لقومه.

والإمام هو وصي الرسول.. وما من رسول إلا وله وصي يكون حجة من على قومه من بعده كهارون بالنسبة إلى موسى.. وعلي بالنسبة إلى محمد ﷺ.

---

[1] أنظر العقيدة الطحاوية والواسطية شرح لمعة الاعتقاد لابن عثيمين.

ونظرا لكون الرسول محمد هو خاتم المرسلين فالحاجة لوجود إمام من بعده أشد وأكثر ضرورة من حاجة الرسالات السابقة.

وإذا كان الله يرسل الرسل لأقوامهم لأجل هدايتهم وإصلاح معتقداتهم فيمكث الرسول فيهم إلى ما شاء الله حتى إذا توفي وطال على قومه الأمد، انحرف قومه وفسدت معتقداتهم مما يقتضي إرسال رسول جديد لهم..

فما هو الضمان الذي يحول دون انحراف أمة محمد من بعده وهم كبقية الأمم السابقة لا بد أن ينطبق حالها على حالهم؟

لعل الجواب البديهي على هذا السؤال هو القرآن.

لكن هذه الإجابة مردودة على أصحابها لسبب وجيه هو أن الرسل السابقين كانوا يتركون في أقوامهم كتبا ومع ذلك قد انحرفوا.

ترك موسى التوراة وضل بنو إسرائيل.

وترك عيسى الإنجيل وضل أنصاره في سبل شتى.

إذن لا بد من حجة قائمة تحمي الكتاب الذي جاء به الرسول وتحفظه للأمة من بعده وتكون علامات على طريق الهداية والصراط المستقيم الذي دعا إليه الرسول.

وقد يقول قائل: إذا كان هناك وصي للرسول يكون حجة من بعده وهدى للناس، فلماذا ضلت الناس إذن وتطلب الأمر إرسال رسول آخر؟

إننا يجب علينا أن نعلم أساسا أنه ليست مهمة الرسل هي هداية جميع الناس أو تحويلهم إلى ملائكة. فإن الرسول مهمته الأساسية هي البلاغ والسامع مخير بين أن يهتدي وأن يختار الضلالة.

وقد ذهب موسى لميقات ربه وترك هارون على قومه فعبدوا العجل ولم يستطع هارون أن يحول بين قوم موسى وبين عبادة العجل.

فإذا كان الناس يضلون في عهد الرسل أفلا يضلون في عهد الأنبياء.؟

وإذا كان الرسل لم يستطيعوا الحيلولة دون ضلال الناس فهل يستطيع الأئمة؟

إن الله سبحانه يقول: ﴿**وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر**﴾ الكهف / ٢٩.

ويقول ﴿**ولست عليهم بمصيطر**﴾ الغاشية / ٢٢ وهي نصوص موجهة للرسول بهدف تبصيره بحقيقة موقف الجماهير من الدعوات الإلهية، فليس من سلطة الرسول إكراه الناس على الإيمان.

ولأجل ذلك فإن الذين اهتدوا واتبعوا الرسل هم قلة..

وكذلك الأمر بالنسبة للوصي.

إلا الأمر بالنسبة للأقوام السابقة أنه بعد الرسل وبعد الأوصياء كان الله سبحانه يجدد دعوته بإرسال رسل يكملون مهمة الرسل السابقين لهم، أو يأتون بدين جديد. لكن الأمر بالنسبة لقوم محمد ﷺ كان مختلفا.

إذ إن الرسول صلى الله عليه وآله كان خاتم المرسلين، مما يقتضي الأمر وجود أوصياء على مر الزمان من بعده وحتى قيام الساعة.

وهنا تبرز فكرة الإمامة وأهميتها.

إن دور الإمام إنما هو مكمل لدور الرسول ومتمم له. فقد يكون وسيلة لدخول أقوام آخرين في دين الله لم يدخلوا في حياة الرسول صلى الله عليه وآله. وقد يكون وسيلة لحسم الردة والخلاف من بعد الرسول. وهو سنة ثابتة تسير مع حركة الدعوات الإلهية وليست معصومة منه أمة محمد. وقد يكون وسيلة لتبصير الناس بحقيقة دينهم إلا أن ذلك كله ليس هو المهمة الأساسية للإمام. إنما مهمة الإمام الأساسية هي إقامة الحجة على الناس من بعد وفاة الرسول.

ولعل هذا هو المراد من قوله تعالى: ﴿**يوم ندعوا كل أناس بإمامهم..**﴾ الإسراء / ٧١.

فهذا النص إنما هو موجه إلى الأقوام التي سوف تأتي بعد الرسول، حيث لا رسل ولا أنبياء وإنما يدعون إلى حقيقة الإسلام ويكونون حججا على الناس يوم البعث والحساب.

وهناك حديث يقول: " من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية "[1].

فكأن الإمام هو الفيصل بين الإسلام والجاهلية، فمن تبعه فقد دخل في حظيرة الإسلام ومن خالفه دخل حظيرة الجاهلية.

وأهل السنة فسروا الإمام في النص القرآني المذكور بالكتاب وبالرسول كما فسروا الإمام في النص النبوي بالحاكم، ولذا كان ابن عمر وأنس والتابعون يسارعون إلى مبايعة الحاكم في زمانهم والالتزام بخطه مخافة أن يموتوا على الجاهلية. حتى أن ابن عمر بايع الحجاج في زمانه مخافة أن يموت دون أن يكون مرتبطا بإمام زمانه وكان قبل ذلك قد بايع معاوية ويزيد ولم يبايع عليا[2].

وتفسير الإمام بالكتاب هو قول مردود لعدة وجوه:

الأول: إن هذا التفسير مناقض للغة فلم يرد الكتاب بمعنى إمام في اللغة.

الثاني: إن هناك كثيرا من الأقوام لم يبعث إليهم رسل وليس لديهم كتب.

الثالث: إن تفسير الإمام بالرسول مناقض للغة، فالرسول يمكن أن يكون إماما من باب الوصف والمجاز وليس من باب المعنى الحرفي.

الرابع: إن الذين فسروا الإمام بالكتاب اعتمدوا في تفسيرهم على قوله تعالى: ﴿**فمن أوتي كتابه بيمينه..**﴾ وقوله: ﴿**إمام مبين**﴾.

وفاتهم أن الكتاب المقصود هنا هو سجل الأعمال الخاصة بالمرء في الدنيا. وليس الكتاب الذي جاء به الرسل.

الخامس: إن لفظ أناس يخص المؤمن وغير المؤمن. وغير المؤمن ليس له كتاب.

---

[1] رواه الترمذي والنسائي..

[2] عاش ابن عمر حتى عصر الحجاج. انظر تاريخ الطبري وكتب التاريخ الأخرى.
وانظر حديث: ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة. البخاري كتاب الفتن وهو يكشف موقف ابن عمر السلبي من موقعة الحرة عام ٦١ هـ بعد مصرع الحسين عليه السلام وقد ذكر ابن عمر هذا الحديث محتجا به على ضرورة التمسك ببيعته ليزيد الذي خلعته المدينة بعد وقعة كربلاء. انظر القصة بكاملها في كتب التاريخ. وفتح الباري ج ١٣ / ٦٨ وما بعدها. وانظر لنا فقه الهزيمة فصل الرجال.

السادس: إن اللفظ الواحد قد يتكرر في القرآن بمعان مختلفة.

السابع: إن معاني القرآن صريحة ومحددة، ولو كان الله سبحانه يريد بالإمام الرسول لذكر ذلك صراحة.

الثامن: إنه لا يعقل أن يبعث كل إنسان يوم القيامة بكتابه. وهذا يناقض ما جاء في القرآن. والله سبحانه لم يبين لنا ذلك في حق الرسل فكيف يمكن أن يتحقق في أتباعهم وأقوامهم؟ ثم إن كل رسول هو حجة على قومه بالكتاب الذي جاء إليهم. فما هي الحاجة إلى أن يبعثوا بكتابهم..؟

إن وجود الإمام بالنسبة للأمة ضرورة حيوية ينبني عليها وجودها ومستقبلها. وإن ما عانته الأمة من بعد الرسول وحتى يومنا هذا من فرقة وشتات ومظالم ومفاسد وانحرافات أضاعت هوية الإسلام وأشقت المسلمين إنما يعود سببه إلى فقدان الإمامة من واقع المسلمين.

لقد أدى تعيين الحكام مكان الإمام وإلزام الأمة بطاعتهم بأحاديث مخترعة إلى دخول الأمة مرحلة عبادة الأصنام. فإن الإمام هو الممثل الحقيقي للإسلام وأية قوى تغتصب حقه في تمثيل الإسلام هي قوى صنمية تعبر عن إسلام زائف مخترع يهدف إلى إضلال الأمة وتعبيدها لغير الله.

إن الانحراف عن الإمام يعني الانحراف عن النص. والانحراف عن النص يعني عبادة الرجال بجعل أقوالهم نصوصا يتعبد المسلمون بها.

ولما كانت الأمة قد انحرفت عن أئمتها من بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله فقد استبدلت هؤلاء الأئمة بالصحابة والحكام والتابعين والفقهاء الذين شيدوا بالروايات إسلاما آخر غير الإسلام الذي تركه الرسول.

شيدوا أصناما كثيرة بينهم وأضفوا عليها قداسة مصطنعة كي تصد الناس عن سبيل الله وتحول بينهم وبين معرفة حقيقة الإسلام.

لقد نبت بعد الرسول أكثر من إسلام، وأكثر من حكومة، بالإضافة إلى آلاف الرويات، كل ذلك بهدف سد الفراغ الذي أحدثه غياب الإمام، أو بمعنى أدق تغييبه عن واقع الأمة.

ضرورة الإمامة هي ضرورة شرعية قبل أن تكون ضرورة عقلية حددها الرسول للأمة قبل وفاته على ما سوف نبين..

ماذا جنت الأمة من الحكام على مر الزمان؟

وماذا جنت الأمة من الروايات التي اخترعتها السياسة؟

وماذا جنت الحركة الإسلامية اليوم من الأئمة الزائفين الذين حلوا محل أئمة الحق.

إن الحركة الإسلامية المعاصرة لن تنجح يوما في إقامة الدولة الإسلامية ما ظلت تتسلح بهذا الفكر الذي اخترعه الحكام وما ظلت متمسكة بعقيدة حكومية.

إن هذه العقيدة لن تعطيها القدرة على مواجهة الحكام. وهي تجعل صراعها معهم أشبه بالصراع العائلي الذي من الممكن أن ينتهي في أي وقت بالتصالح أو بالتنازل.

وإن تجربة الحركة الإسلامية اليوم مع الحكام لتشهد بذلك، وفي مقدمة هذه التجارب تجربة الإخوان المسلمين مع نظام عبد الناصر في مصر.

وقد بات من الضروري على الحركة اليوم أن تتسلح بعقيدة الإمامة الحقة في مواجهة الواقع، فهذه العقيدة هي التي سوف تمنحها القدرة والفاعلية على المواجهة والسعي بخطى ثابته نحو التغيير.

يقول السيد شبر: إن ما ذكر في بيان الاضطرار إلى الرسل فهو بعينه جار في الاضطرار إلى أوصيائهم وخلفائهم، لأن الاحتياج إليهم غير مختص بوقت دون آخر، وفي حالة دون أخرى. ولا يكفي بقاء الكتب والشرائع من دون قيم لها عالم بها. ألا ترى إلى الفرق المختلفة والمذاهب المتباينة كيف يستندون في مذاهبهم كلها إلى كتاب الله عز وجل.

فيستند إلى قوله تعالى: ﴿**الرحمن على العرش استوى**﴾..

و ﴿**يد الله فوق أيديهم**﴾..

والمجبر إلى قوله: ﴿**قل كل من عند الله**﴾..

ومن قال برؤية الله إلى قوله: ﴿**وجوه يومئذ ناضرة * إلى ربها ناظرة**﴾..

ومن قال بخلق الأفعال إلى قوله: ﴿**يضل من يشاء ويهدي من يشاء**﴾..

وبالجملة فإنك لا ترى فرقة من الفرق المحقة أو المبطلة إلا وهي تستند إلى كتاب الله بل وإلى سنة رسوله صلى الله عليه وآله، وذلك لأن كتاب الله فيه المحكم والمتشابه والمجمل والمؤول والناسخ والمنسوخ، والسنة فيها ذلك أيضا مع وقوع الكذب والتحريف والتصحيف. هذا كله مع جهل أكثر الخلق بمعانيها وتشتت أهوائهم وزيغ قلوبهم.

فلا بد حينئذ لكل نبي مرسل بكتاب من عند الله عز وجل أن ينصب وصيا يودعه أسرار نبوته وأسرار الكتاب المنزل، ويكشف له مبهمه ليكون ذلك الوصي هو حجة ذلك النبي على أمته، ولئلا تتصرف الأمة في ذلك الكتاب بآرائها وعقولها، فتختلف وتزيغ قلوبها كما أخبر الله تعالى بذلك فقال: ﴿**هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم..**﴾[1] .

إن إدراك مدى أهمية الإمامة وضرورتها يتبين لنا إذا ما قمنا برصد الجانب الآخر الذي حل محل الإمام وتسلط على الأمة. ماذا قدم للإسلام والمسلمين..؟

هل تمكن من سد الفراغ الذي حدث بغياب الإمام..؟

هل قضى على الفرق والخلافات والمظالم والانحرافات..؟

هل عبر عن الوجه الحقيقي للإسلام..؟

لا شك أن أي متأمل في واقع المسلمين بعد وفاة الرسول صلى ﷺ يمكنه أن يجيب بالنفي..

---

[1] حق اليقين في معرفة أصول الدين، ج ١ ط. بيروت.

فلا أبو بكر ولا عمر ولا عثمان ولا معاوية وبنوه ولا بنو العباس تمكنوا أن يقنعوا الأمة بإمامتهم. نعم لقد اعتبرهم الأمة خلفاء وحكاما لكنها لم تعتبرهم أئمة.

إلا أن فقهاء السلاطين وجيوش المنافقين أرادت أن تضفي على هؤلاء صفة الأئمة حتى تضلل الأمة عن الأئمة الحقيقين، واخترعت مئات الأحاديث على لسان الرسول لتجبر الأمة على طاعتهم والسير على هديهم.

إننا لم نسمع أنه قيل الإمام أبو بكر أو الإمام عمر أو الإمام عثمان.

فقط سمعنا وعلمنا أنه قيل الإمام علي. فالقوم على الرغم من موقفهم من قضية الإمامة إلا أن الله أنطق الحق على لسانهم فمنحوا لقب الإمام لعلي وحده.

إننا إذا اعتبرنا الإمامة منصبا اجتهاديا أو يقوم على الشورى كما يقول أهل السنة فإن ضرورتها تنتفي وتكون بهذه الصورة مسألة اختيارية تتغير بإرادة الرعية.. أما إذا اعتبرناها منصبا إلهيا فهنا تكمن ضرورتها. فإن الله سبحانه لا يوجب على العباد شيئا لا ضرورة له أو تكون له أهمية هامشية. فغير الواجب يترك أمره للأمة تأخذ به أو تتركه، فهي في مواجهته بالخيار، أما في مواجهة الواجب فهي ملزمة مقيدة به.

ولقد عمل خصوم آل البيت على تعويم فكرة الإمامة والتقليل من شأنها حتى تهون في أعين المسلمين وبالتالي تنتفي ضرورتها وتفقد أهميتها. وألصقوا الإمامة بكل من هب ودب من الناس واخترعوا الأحاديث التي توجب السمع والطاعة لهم.

يقول الشيخ جعفر السبحاني: إن رحلة النبي الأكرم أحدثت فراغا هائلا في مختلف المجالات المادية والمعنوية، ومقتضى لطفه سبحانه وعنايته بالعباد أن يملأ هذا الفراغ بإنسان يخلف النبي، ولا يقدر على ذلك إلا الإنسان المثالي الذي يكون له من الوعي والتربية والعلم والشجاعة مثل ما كان للنبي سوى كونه نبيا ذا شريعة ومتلقيا للوحي.

كان النبي ﷺ يقوم بمسؤوليات كثيرة تجمعها الأمور التالية:

- إدراة أمور الأمة في مختلف مجالاتها الحيوية: السياسية والاقتصادية والعسكرية والقضائية وغيرها مما تجمعها إدارة الحكومة.

- تفسير الكتاب العزيز وتوضيح مقاصده وبيان أهدافه وكشف أسراره.

- الإجابة عن الأسئلة الشرعية التي لها مساس بعمل المسلم في حياته من حيث الحلال والحرام.

- الرد على الشبهات والتشكيكات التي يلقيها أعداء الإسلام ويوجهونها ضده من يهود ومسيحيين وغيرهم، فكان يرد عليها تارة بلسان الوحي المقدس وأخرى بلسان الحديث.

- صيانة الدين الإسلامي عن أي فكرة تحريفية، وعن أي دس في التعاليم. فلم يكن لأي دساس مقدرة على تحريف الدين أصولا وفروعا - يدفع بأمته في طريق الكمال والتقدم الروحي.

ولا شك أن النبي كان يقوم بهذه المسؤوليات، وكان فقدانه وغيابه عن الساحة يلازم حدوث فراغ هائل في حياة الأمة لا يسد إلا بإنسان يتمتع بتلك الكفاءات عدا النبوة وتلقي الوحي.. والفراغ الأول وإن كان يملأ باختيار الإمام من جانب الأمة، لكن الفراغ الباقي لا يسد إلا بإنسان مثالي تربى في وضع خاص من العناية الإلهية.

ولما كانت هذه الأمور النفسية والمؤهلات المعنوية التي يتمكن بها الإنسان المثالي من ملء الفراغ لا يمكن الوقوف عليها ومعرفتها إلا بتعريف من الله تعالى وتعيين منه، فلأجل ذلك صار الأصل عند الشيعة في مسألة الإمامة هو التنصيب والتعيين من جانبه سبحانه [1] .

*** تعيين الإمام:**

لما كانت الشيعة تتبنى عقيدة خاصة في الإمام، فمن ثم فإن مسألة اختياره تعتمد على النص في المقام الأول، ثم على العقل بعد ذلك.

---

[1] مفاهيم القرآن، ج ٥ ط. بيروت.

والنص إما يكون من الله تعالى..

أو من رسوله..

أو من إمام ثابتة إمامته بالنص.

أما العقل فيقول إن الناس في كل وقت محتاجون إلى عالم بكل ما كلف الله تعالى به عباده وجاء به الرسول من عنده من حلال وحرام.. ولأن نصب الإمام لطف واللطف واجب على الله عز وجل [1].

إن تعيين الإمام بالنص إنما يؤكد أهمية منصب الإمامة وضرورته وكونه مسألة شرعية في المقام الأول لا مجال لتدخل اجتهادات الناس فيها. فهي امتداد لمهمة الرسول ومرجع الأمة من بعده، فلا بد أن تكون منصوصا عليها حتى تأخذ صفة المرجعية المطلقة، ولو كان منصب الإمامة بالترشيح والاختيار لتنازع الناس عليها واختلفوا حولها وبالتالي ينتفي الغرض من وجودها.

ولأجل ذلك وقع الخلاف على الآخرين الذين أحلوا أنفسهم مكان الإمام من الخلفاء والحكام من بعدهم. ومن قال إن الأمة قد اجتمعت عليهم فالتاريخ والوقائع تكذب قوله، وإن مثل هذا القول الهدف منه تخدير الأجيال القادمة.

أما الجيل المعاصر لعملية اختيار هؤلاء الحكام فقد دب بينهم الخلاف حول مشروعيتهم وإجماع الأمة عليهم [2].

والعقل الذي يقول بأن الإمام الذي يلي أمر الأمة من بعد الرسول لا بد أن تتوافر فيه المؤهلات العلمية التي تؤهله لسد الفراغ الذي أحدثه غياب الرسول. هذا العقل يحكم بأن الذين حكموا الأمة بعد الرسول لم يكونوا يملكون من هذه المؤهلات شيئا. وذلك بقليل من النظر في سيرة هؤلاء الحكام ومواقفهم وممارساتهم.

---

[1] أنظر حق اليقين وكتب العقائد لدى الشيعة.

[2] أنظر لنا السيف والسياسة. وانظر السقيفة للمظفر.

ومن هنا يتبين لنا أن الإمامة منصب اختصت به فئة معينة كانت تملك هذه المؤهلات. وأن هذه الفئة لا بد أن تكون محل قبول ورضا المسلمين. فالنص على إمامتهم لأجل توافر هذه المؤهلات فيهم . توافر هذه الموهلات فيهم يجعلهم محل رضا وقبول المسلمين.

يقول الدكتور علي شريعتي: الإمامة لدى الشيعة هي استمرار لإمامة محمد - دون نبوته - والإمامة عندهم هي بمعنى القدرة أي النموذج السامي للمدرسة والمنهج والانسان - القدوة - كذلك بمعنى القائد أي تواصل إمامة محمد.

إن نبوة محمد ختمت به، أما إمامته فبدأت به وانتهت في عترته (آل البيت).

إن الشيعة ينكرون مبدأ الشورى والبيعة. ويعتقدون بدلا عنه بمبدأ الوصاية. أما السنة فينكرون مبدأ الوصاية ويستندون إلى الشورى في الخلافة، هذا الطرح التقليدي السائد. أما في نظري فلا يوجد تناقض بين المبدأين. ولا يمكن اعتبار أحدهما بدعة مصطنعة وغير إسلامية. إن الشورى والبيعة تعنيان الديمقراطية، وفي القرآن إشارات واضحة لصحة مبدأ الشورى.

لكن أي مؤرخ منصف لا يمكنه إنكار وصية الرسول لعلي عليه السلام. والوصاية هي ليست بالتعيين ولا بفرض القائد بطريقة فوقية. كما أنها ليست انتخابا أو وراثة، أو نتيجة لترشيح أحد من الناس. فالإمامة ليست هذه الصيغ السياسية.. لهذا تعتقد بأن الوصاية هي مبدأ بديهي بينما الشورى - أي البيعة وإجماع الناس - مبدأ إسلامي. إن الوصاية هي مبدأ استثنائي لظرف استثنائي، بينما الشورى والبيعة هما مبدآن طبيعيان ودائمان..

مبدأ الوصاية هو فوق مبدأ الشورى.

كان يجب أن تستمر الوصاية بعد موت الرسول، إلى أن تتحقق رسالة محمد في بناء الأمة، لكن فاجعة " السقيفة " غيرت مجرى ومصير التاريخ الإسلامي. فقد تم الاستناد لحق في إلغاء حق آخر.

لو حدثت " السقيفة " في عام ٢٥٠ هـ - فترة غيبة الإمام الثاني عشر - بدلا من العام الحادي عشر للهجرة لكان مسير التاريخ شيئا آخر. إلا أن الأمر حدث

على ذلك النحو: استندوا على الديمقراطية ومبدأ الشورى في وقت كانت المرحلة لا تزال هي مرحلة الوصاية. أي القيادة الثورية.

لقد أدى ذلك إلى ضياع الديمقراطية نفسها. والقضاء على مبدأ الشورى نفسه. بينما لو تم العمل بمبدأ الوصاية والقيادة الثورية بعد وفاة النبي لكنا قد وصلنا إلى مرحلة الشورى والديمقراطية بعد ذلك.

هكذا حرم الناس بعد وفاة النبي من القيادة الثورية – الوصاية والإمامة – ومن القيادة الديمقراطية – البيعة والشورى – وأدى ذلك إلى أن تتجه الأمور خلاف ما استهدفه الإسلام. فالخلافة الإسلامية المستندة للبيعة تحولت إلى سلطنة عربية وراثية. والإمامة بعد قرنين ونصف من الجهاد والشهادة – انتهت للغيبة وتغيرت فلسفة التاريخ. وأصبحت فلسفة الانتظار [1] .

إن فكرة الإمامة عند الشيعة لا تتناقض مع الشورى. فتعيين الإمام بالنص لا يعني الحجر على الشورى لأن الإمام لا يوحى إليه كما هو حال الرسول وهو لا يبلغ الأمة دينا جديدا وإنما يحافظ على الدين الذي ورثه من الرسول ويعبر عن صورته الحقيقية. هذه هي مهمته الأساسية التي لا ينازعه فيها أحد.

أما ما يتعلق بشؤون الناس وإدارة المجتمع فمجال الاجتهاد فيها مفتوح والشورى فيها واردة.

فليس هناك من ينكر أن الشورى كانت مطروحة في حياة الرسول المعصوم والرسول هو أعلى من الإمام.

وإذا كانت مهمة الإمام هي الحفاظ على الدين وإقامة الحجة على الناس بنصوصه، فإن من بين نصوصه ما يحض على الشورى.

فإذا كان الرسول ﷺ قد طبق الشورى في حياته، فيجب على الإمام أن يطبق الشورى، إلا أن السياسة حالت دون أن يقوم الإمام بمهمته في واقع المسلمين.

---

[1] هكذا تكلم علي شريعتي. ط. بيروت.

وفترة حكم الإمام علي جاءت بغير ترتيب، فهي فرضت عليه في ظل ظروف وأوضاع مهزوزة سياسيا وغير مستقرة اجتماعيا ومتقلبة اقتصاديا، فهو لم يختر لكونه إماما وإنما اختير لكونه حاكما.

لقد أرادت الأمة من الإمام علي أن يكون حاكما لا أن يكون إماما منصوصا عليه، ومن هنا كثر الخلاف عليه. وقد كانت الموروثات الفكرية والقبلية التي خلفها عصر الخلفاء الثلاثة قبله تحول دون بروزه كإمام.

ولو كانت الأمة قد تعاملت مع علي كإمام ما كان يمكن لها أن تعترف بمعاوية وتبرر جريمته بشق عصا الطاعة وتعتبره مجتهدا، كما بررت من قبل موقف عائشة التي تسبب خروجها في إراقة دماء آلاف المسلمين. وموقف الصحابة الذين رفضوا بيعته ثم هم بايعوا بعد ذلك معاوية وولده.

إن فترة حكم الإمام علي هي جزء من مهمته ودوره كإمام يقيم الحجة على الناس وهو مستمر في إقامة الحجة بعد وفاة الرسول. وليس الحكم إلا وسيلة لإظهار هذه الحجة وشيوعها وهو الأمر الذي افتقدت مقوماته في المدينة التي هيمنت عليها القبلية ودفع بالإمام إلى الانتقال إلى الكوفة لتكون مركزا لدعوته.

والإمام على رغم كون السلطة في يده فقد فتح حوارا مع عائشة وطلحة والزبير الذين خرجوا عليه في وقعة الجمل.

وفتح حوارا مع معاوية على الرغم من قناعته بأن الحوار معه لا يجدي وأنه ماض إلى تحقيق أطماعه على حساب الإسلام.

وفتح حوارا مع الخوارج وأرسل إليهم ابن عباس ليحاورهم رغم كونهم ليسوا أهل حوار ولا يفقهون سوى لغة واحدة هي لغة السيف والتمرد.

وإن مثل هذه الممارسات من قبل الإمام لهي تعد قمة العمل الديمقراطي في مواجهة أناس يشهرون في وجهه السيوف ويسعون لقتل الشورى.

فعائشة وحزبها خرجوا للدفاع عن مصالح قبلية متمثلة في عثمان.

والخوارج قطاع متحجر من المسلمين لا يفهم إلا السيف والنص على ظاهره.

ومعاوية يريدها مملكة لبني أمية.

*** إمامة علي:**

ترتكز قضية الإمامة على النص والعقل كما ذكرنا. وتطبيق هذين الأمرين يكون في الأساس على الإمام علي، فهو الذي تدور حوله جميع نصوص الإمامة. وبانطباق هذه النصوص عليه تنهض فكرة الإمامة باعتباره الإمام الأول من بعد الرسول فهو وصيه، والأئمة من بعده إنما يستمدون درجتهم منه.

وعلى قدر المكانة الشرعية للإمام علي تكون مكانة الأئمة التالين له، فمن ثم يتركز الحديث دائما حول نصية الإمامة على الإمام علي وحده.

وعندما تثبت بالنصوص إمامة علي تثبت بالتالي إمامة الآخرين، ومن جهة أخرى تبطل إمامة الآخرين من الخلفاء.

والشيعة عندما تعتقد أن عليا هو الإمام بعد رسول الله صلى الله عليه وآله إنما يقودها إلى هذا الاعتقاد النصوص، فالشيعة في الأصل تتعبد بالنصوص لا بأقوال الرجال.

وهي عندما تقول بتميز الإمام علي عن غيره وخصوصيته وكونه وصي الرسول تقول ذلك بحكم النصوص. فمسألة الإمامة مسألة مصيرية يرتبط بها مستقبل الأمة ووجودها لا مجال للاجتهاد فيها لأنها من مقررات الشرع الذي جاء لصالح الناس ولا يجوز أن يغفل قضية أساسية كالإمامة تقوم على أساسها مصالح الناس وأمنهم.

أما أهل السنة فالراجح في مذهبهم أقوال الرجال على النصوص، وهم قد قاموا بتأويل النصوص الواردة حول الإمامة وصرفها عن معناها الحقيقي وأجمعوا على أنها لا تختص بأحد بعينه وطبقوها على الحكام على ما سوف نبين.

وهم على حد قول العلامة الحلي قد خالفوا المعقول والمنقول:

أما المعقول فهي الأدلة على إمامة أمير المؤمنين عليه السلام من حيث العقل وهي من وجوه:

الأول شرط الإمام أن لا يسبق منه معصية. والمشايخ يقصد أبو بكر وعمر والصحابة قبل الإسلام كانوا يعبدون الأصنام فلا يكونون أئمة. فتعين علي لعدم الفارق.

الثاني: الإمام يجب أن يكون منصوصا عليه، وغير علي من الثلاثة ليس منصوصا عليه فلا يكون إماما.

الثالث: الإمام يجب أن يكون أفضل من رعيته، وغير علي لم يكن كذلك.

الرابع: الإمامة رئاسة عامة وإنما تستحق بالزهد والعلم والعبادة والشجاعة والإيمان وعلي هو الجامع لهذه الصفات على الوجه الأكمل الذي لم يلحقه به غيره.

أما المنقول فالقرآن والسنة المتواترة [1] .

ويقول السيد شبر: إن العقل السليم والفهم المستقيم يحيل على العزيز الحكيم والرسول الكريم مع كونه مبعوثا إلى كافة الأنام وشريعته باقية إلى يوم القيامة أن يهمل أمته مع نهاية رأفته وغاية شفقته بهم وعليهم، ويترك بينهم كتابا في غاية الإجمال ونهاية الإشكال له وجوه عديدة ومحامل يحمله كل منهم على هواه ورأيه، وأحاديث كذلك لم يظهر لهم منها إلا القليل وفيها مع ذلك المكذوب والمفترى والمحرف. ولا يعين لهذا الأمر العظيم رئيسا يعول في المشكلات عليه ويركن في سائر الأمور إليه. إن هذا مما يحيل العقل على رب العالمين وعلى سيد المرسلين.. وكيف يوجب الله تعالى على الإنسان الوصية والايصاء عند الموت لئلا يموت ميتة الجاهلية ولئلا يدع أطفاله ومتروكاته بغير قيم وولي وحافظ ولا يوجب على النبي صلى الله عليه وآله الايصاء والوصية مع أن رأفة الله

---

[1] نهج الحق وكشف الصدق. ط. بيروت.

بخلقه ورأفة النبي بأمته لا نسبة لها بذلك.. ولذا اعترف جمهور المخالفين بجريان عادة الله تعالى من آدم إلى خاتم الأنبياء أن لم يقض نبيا حتى عين له خليفة ووصيا. وجرت عادة نبينا أنه متى سافر عين خليفة في المدينة فكيف تخلفت هذه السنة بالنسبة إلى خاتم الأنبياء المرسل إلى هذه الأمة المرحومة بأن يهملها وبتركها سدى. هذا كله مع انقطاع الأنبياء والرسل وبقاء التكليف إلى يوم القيامة.. وأن مرتبة الإمامة كالنبوة، فكما لا يجوز للخلق تعيين نبي فكذا لا يجوز لهم تعيين إمام [1] .

إذن ما هي النصوص الدالة على إمامة علي؟

إن النصوص الدالة على إمامة علي ووجوب الإمامة وكونها أصلا من أصول الدين عند الشيعة أكثر من أن تحصى. وهي نصوص ليست حكرا على الشيعة وحدهم وإنما هي نصوص أهل السنة أيضا خاصة الأحاديث النبوية منها التي تذخر بها كتب السنن. إلا أن موقف أهل السنة أيضا من هذه النصوص يقوم على التأويل والتبرير بحيث تبعد دلالات هذه النصوص وأهدافها عن مراد الشيعة.

وسوف يظهر لنا هذا الأمر بوضوح ونحن نعرض النصوص الخاصة بالإمام علي في القرآن والأحاديث. ونبدأ بعرض النصوص القرآنية:

قوله تعالى: ﴿**إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون**﴾ المائدة / ٥٥.

فقد شرك الله سبحانه رسوله معه في الولاية وكذلك الذين آمنوا والمقصود بهم هنا الإمام علي لنزول الآية فيه [2] .

قوله تعالى: ﴿**يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك...**﴾ المائدة / ٦٧.

وهذا النص نزل على الرسول صلى الله عليه وآله في حجة الوداع حيث أمر بإبلاغ الأمة ولاية علي على ما أجمعت على ذلك الروايات [3] .

---

[1] حق اليقين، ج ١.

[2] أنظر كتب التفسير وأسباب النزول.

[3] أنظر المراجع السابقة وحديث غدير خم فيما بعد.

قوله تعالى: ﴿**قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى..**﴾ الشورى / **٢٣**.

وهذا النص يوجب على المؤمنين مودة قرابة الرسول، ولا شك أن وجوب مودتهم ينتج عنه وجوب طاعتهم كأئمة للهدى [١] .

قوله تعالى: ﴿**فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل إلى الله فنجعل لعنة الله على الكاذبين..**﴾.

فهذا النص يخص الإمام علي والحسن والحسين وفاطمة. فإن (أبناءنا) الحسن والحسين و (نساءنا) تعني فاطمة. وأنفسنا تعني علي. مما يدل على علو مكانة الإمام علي، ومساواته بالرسول الأكمل تعني كماله هو أيضا [٢] .

قوله تعالى: ﴿**إني جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتي..**﴾ البقرة / **١٤٢**.

ومن هذا النص يتبين لنا أن الإمامة غير الرسالة أو غير الرسول. فقد كان إبراهيم رسولا ثم جعله الله إماما. ثم جعل الإمامة في ذريته واستثنى الظالمين منهم ومن المعروف أن النبي صلى الله عليه وآله وعلي من ذرية إبراهيم وكلاهما لم يسجد لصنم [٣] .

قوله تعالى: ﴿**إنما أنت منذر ولكل قوم هاد..**﴾ الرعد / ٧.

فهذا النص يشير إلى دور الرسول ودور الإمام. فالرسول هو المنذر، والإمام هو الهادي. فالإنذار يقتضي المواجهة أي مواجهة الرسول لقومه وإبلاغه دعوته لهم وجها لوجه. أما الهداية فلا تقتضي المواجهة وهو دور الإمام الذي يكون سببا لهداية الأقوام التي تأتي بعد الرسول [٤] .

---

[١] أنظر المراجع السابقة ونهج الحق وحق اليقين وعلي في القرآن.

[٢] أنظر نهج الحق وحق اليقين وعلي في القرآن وأسباب النزول.

[٣] أنظر المراجع السابقة.

[٤] أنظر المراجع السابقة.

قولـه تعـالى: ﴿**والـــسابقون الـــسابقون * أولئـــك المقربـــون..**﴾ الواقعة / ١٠ – ١١.

ومن المعروف أن الإمام عليا هو سابق أمة محمد إلى الإسلام. وهذا السبق يعطيه ميزة خاصة ترفعه فوق الجميع [١].

قوله تعالى: ﴿**إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما.**﴾ الأحزاب / ٥٦.

إن الصلاة على الرسول تقتضي الصلاة على آل بيته كما في التشهد. وهذه دلالة قطعية على المكانة الشرعية للإمام علي على رأس آل البيت [٢].

قوله تعالى: ﴿.. **وصالح المؤمنين**﴾ التحريم / ٤.

إن المقصود بصالح المؤمنين هنا هو علي، فهو أفضل الصحابة وسيف الرسول وصهره وحامل علمه وصفيه [٣].

قوله تعالى: ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا**﴾ المائدة / ٣.

نزلت هذه الآية على الرسول في حجة الوداع وهو يخطب بماء قرب المدينة يسمى غدير خم معلنا ولاية علي. ومن المعروف أن الدين كان كاملا قبل نزول الآية كعقيدة ولم يكن كاملا كأحكام وقد ظلت الأحكام تتنزل بعد هذه الآية مما يدل على أن المقصود بكمال الدين شئ آخر وهو إمامة علي [٤].

قوله تعالى: ﴿**إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا**﴾.. الأحزاب / ٣٣. وهذا النص يفيد طهارة آل البيت طهارة تكوينية

---

[١] المراجع السابقة.

[٢] المراجع السابقة.

[٣] المراجع السابقة.

[٤] المراجع السابقة.. وانظر حديث غدير خم.

ليست مكتسبة. والرجس هو كل صور المعاصي والتجاوزات الأخلاقية وغيرها مما لم يثبت على الإمام علي منه شئ. فدل هذا على إمامته.

وقد ذكر الفقهاء أكثر من مئة آية نزلت في حق علي لا يتسع المجال لذكرها هنا ويمكن مراجعة ذلك في كتب التفسير [1].

*** النصوص النبوية:**

إن النصوص النبوية التي ذكرها الرسول صلى الله عليه وآله في الإمام علي أكثر من أن تحصى وهي تفوق النصوص الأخرى الواردة في الآخرين والتي هي من صنع السياسة في الأصل بهدف زعزعة مكانة الإمام. وقد امتدت يد السياسة إلى النصوص الواردة فيه وحاولت تضعيفها. وما عجزت عن هدمه منها بددت معناه وموهت عليه حتى يضلوا المسلمين عن حقيقة مكانة الإمام ودوره ورسالته التي تسلمها من الرسول.

ولا شك أن سيادة الخط الأموي المعادي لآل البيت والإمام علي بعد وقعة صفين - والذي تزعمه معاوية - قد عمل جاهدا - على ما هو ثابت ومعروف - على سب الإمام والطعن في آل البيت واختراع الروايات التي تضفي المشروعية عليه وعلى ممارساته ومواقفه وتحط من الخط الآخر خط آل البيت وتثير الشبهات من حوله. وقد أعانه على هذا كله الكثير ممن ينتسب إلى الإسلام من مدعي الصحبة والتابعين.

وأول النصوص النبوية قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لعلي: " أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي " [2].

وقوله ﷺ: " إني تركت فيكم ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي الثقلين وأحدهما أكبر من الآخر. كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض. وعترتي أهل بيتي. ألا وإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض " [3].

---

[1] أنظر المراجع السابقة. وكتب التفسير..

[2] البخاري كتاب فضائل الصحابة باب مناقب الإمام علي.

[3] رواه أبو داوود..

وفي رواية: " أيها الناس. إنما أنا بشر يوشك أن يأتيني رسول من ربي فأجيب. وإني تارك فيكم الثقلين. أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به. فحث على كتاب الله ورغب فيه. ثم قال: وأهل بيتي. أذكركم الله في أهل بيتي. أذكركم الله في أهل بيتي. أذكركم الله في أهل بيتي "[١].

وقول علي: عهد إلي النبي الأمي أن لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق[٢].

وقول الرسول ﷺ: " إني دافع الراية غدا إلى رجل يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله كرار غير فرار، لا يرجع حتى يفتح الله له. وأعطاها عليا ففتح الله على يديه[٣].

وقول الرسول ﷺ: "علي مني وأنا منه. ولا يؤدي عني إلا أنا أو علي "[٤].

وقول الرسول صلى الله عليه وآله: " اللهم وال من والاه وعاد من عاداه. وانصر من نصره. واخذل من خذله "[٥].

وقول الرسول ﷺ: " إن منكم من يقاتل على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله. فقال أبو بكر: أنا هو يا رسول الله؟ قال: لا. قال عمر: أنا هو يا رسول الله؟ قال: لا. ولكنه خاصف النعل وكان علي يخصف نعل رسول الله في الحجرة عند فاطمة "[٦].

وفي رواية أخرى: قال رسول الله ﷺ: " لتنتهن معشر قريش، أو ليبعثن الله عليكم رجلا مني امتحن الله قلبه للإيمان، يضرب أعناقكم على الدين. قيل يا رسول الله أبو بكر؟ قال: لا. قيل: عمر. قال: لا. ولكن خاصف النعل في الحجرة "[٧].

---

[١] مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل علي..

[٢] مسلم، كتاب الإيمان. باب حب الأنصار وعلي من الإيمان..

[٣] البخاري ومسلم كتاب فضائل الصحابة..

[٤] البخاري ومسند أحمد..

[٥] مسند أحمد..

[٦] الترمذي وأحمد..

[٧] المرجعين السابقين..

وقول الرسول ﷺ لعلي: " أنت مني وأنا منك "[1] .

وتروي عائشة أن النبي خرج غداة وعليه مرط مرحل من شعر أسود، فجاء الحسن بن فأدخله. ثم جاء الحسين فدخل معه ثم جاءت فاطمة فأدخلها، ثم جاء علي فأدخله ثم قال: ﴿**إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا**﴾..[2] .

ولما نزل قوله تعالى: ﴿**فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم..**﴾ دعا رسول الله ﷺ عليا وفاطمة والحسن والحسين. فقال اللهم هؤلاء أهلي..[3] .

وقال له أيضا: " أنت أخي في الدنيا والآخرة "[4] .

وقال: " من سب عليا فقد سبني "[5] .

*** عصمة الإمام:**

تنبع فكرة العصمة عند الشيعة من فكرة الوصية. فالرسول المعصوم لا يوصي إلا لمعصوم مثله. ومثلما مهمة الرسول تحتاج إلى عصمة كذلك مهمة الإمام التي هي امتداد لمهمته تحتاج لعصمة.

ولو لم يكن الإمام معصوما لتساوى مع بقية الناس، ولما كانت هناك حاجة لوصيته وهو في هذه الحالة لن ينجح في حفظ الدين وإقامة الحجة على الناس.

إن الإيمان بتميز الإمام " علي " على الآخرين سوف يقود إلى الإيمان بالوصية. والإيمان بالوصية سوف يقود إلى الإيمان بالعصمة.

ونظرا لكون أهل السنة لا يؤمنون بتميز الإمام " علي " على بقية الصحابة فمن ثم هم لا يؤمنون بالوصية وبالتالي يستهجنون فكرة العصمة.

---

[1] البخاري..

[2] مسلم وأحمد كتاب فضائل الصحابة باب فضائل علي..

[3] المرجع السابق..

[4] مسند أحمد..

[5] المرجع السابق..

يقول العلامة الحلي: ذهبت الإمامية إلى أن الأئمة كالأنبياء في وجوب عصمتهم عن جميع القبائح والفواحش. من الصغر إلى الموت عمدا أو سهوا، لأنهم حفظة الشرع والقوامون به حالهم في ذلك حال النبي ولأن الحاجة إلى الإمام إنما هي للانتصاف من المظلوم عن الظالم. ورفع الفساد وحسم مادة الفتن. وأن الإمام لطف يمنع القاهر من التعدي، ويحمل الناس على فعل الطاعات واجتناب المحرمات ويقيم الحدود والفرائض ويؤاخذ الفساق ويعزر من يستحق التعزير. فلو جازت عليه المعصية وصدرت عنه انتفت هذه الفوائد وافتقر إلى إمام آخر وتسلسل.. [1] .

إن العصمة ترتبط بنوع الدور والمهمة الملقاة على عاتق الإمام. ولما كان دور الإمام ومهمته تتطلب وجود مواصفات خاصة حتى يمكن القيام بها فمن ثم كانت العصمة ضرورة لا بد منها للإمام تدفع الجماهير إلى الثقة به والتلقي منه ولزوم الطاعة له وتحول دون منازعته من قبل الأدعياء.. يقول الشيخ جعفر السبحاني: إن الإجابة عن الأسئلة الشرعية على وجه الحق وتفسير القرآن على الصحيح وتفنيد الشبهات على وجه يطابق الواقع وصيانة الدين عن أي تحريف لا يحصل إلا بمن يعتصم بحبل العصمة ويكون قوله وفعله مميزين للحق والباطل.. نعم إن الإنسان الجليل ربما يملأ هذا الفراغ ولكن لا بصورة تامة جدا، ولأجل ذلك نرى أن الأمة افترقت في الأصول والفروع إلى فرق كثيرة يصعب تحديدها وتعدادها، فلأجل هذه الأمور لا محيص عن وجود إنسان كامل عارف بالشريعة، أصولها وفروعها، عالم بالقرآن واقف على الشبهات وكيفية الإجابة عنها، قائم على الصراط السوي ليرجع إليه من تقدم على الصراط ومن تأخر عنه. هذا يقتضي كون الإمام منصوبا من جانبه سبحانه معصوما بعصمته.. [2] .

إن تقصي حال الأمة من بعد وفاة الرسول ﷺ يظهر لنا ما يلي:

---

[1] أنظر نهج الحق وكشف الصدق..

[2] معالم النبوة في القرآن..

أولا: منحت الشريعة لكل الحكام - ومن بعدهم - وألزم الجميع بالسمع والطاعة لهم.

ثانيا: اخترعت الكثير من الأحاديث والروايات وتمت نسبتها إلى الرسول.

ثالثا: إن الصحابة والتابعين وتابعي التابعين باركوا هذا الوضع كما باركوا الحكام ودعوا الجماهير إلى طاعتهم.

رابعا: إن سيرة هؤلاء الحكام وسلوكهم ومواقفهم متناقضة مع الإسلام وتصطدم بقواعده.

خامسا: إن القرآن قد حرفت معانيه وأولت آياته بحيث تخدم أغراض القوى الحاكمة.

سادسا: إن الفقهاء ساروا في ركاب الحكام وأضفوا على ممارساتهم ومواقفهم الشرعية.

ومن يتبين لنا أن الإسلام قد أخضع للأهواء والسياسة من بعد الرسول. ومال الفقهاء نحو الحكام. وتفرقت الأمة بسبب هذا الإسلام وصارت شيعا. وهذا كله بسبب أن الذين تصدوا لحمله لم يصمدوا في وجه الباطل وانهاروا أمامه مما يدل على عدم صلاحيتهم للقيام بهذه المهمة. وليس من المعقول بل من المحال في حق الله سبحانه أن يترك الدين من بعد الرسول يتنازعه أهل الأهواء ويذهبون به مذاهب شتى مما يؤدي في النهاية إلى ضلال الأمة. وضلال الأمة يقتضي إرسال رسول جديد. وقد ختمت الرسالات بمحمد، إذن لا بد أن يكون هناك عاصم للأمة تتوافر به مؤهلات الرسول ليقوم بمهمته من بعد ه وفي مقدمة هذه المؤهلات العصمة.

إن ضرورة العصمة سوف تتضع لنا أكثر إذا ما اتجهنا بأبصارنا إلى الجانب الآخر الذي غيبته السياسة عن أعيننا وهو جانب آل البيت. بعد أن ألقينا الضوء على جانب الصحابة والتابعين والفقهاء والإسلام الذي يعرضونه

والمتمثل في مذهب أهل السنة. فإن إلقاء الضوء على هذا الجانب سوف يظهر لنا ما يلي:

أولا: إن أئمة آل البيت عليهم السلام تصدوا لمحاولات الانحراف بالإسلام وصدعوا بالحق في مواجهة الصحابة والتابعين والحكام.

ثانيا: إن أئمة آل البيت تصدوا لعملية اختراع الأحاديث ونسبتها للرسول والتزموا في مواجهة هذا الأمر بضرورة عرض الحديث على القرآن والعقل، فما وافق القرآن والعقل كان سليما وما خالفهما كان موضوعا.

ثالثا: إن آل البيت قادوا الثورات ضد الحكام وتصدوا لفسادهم وانحرافاتهم.

رابعا: إن أئمة آل البيت بداية من الإمام علي وحتى الإمام الحادي عشر ماتوا قتلا بأيدي الحكام.

إن أئمة آل البيت قد امتحنوا وابتلوا بلاء عظيما وتعرضوا لضغوط شديدة من قبل الحكام كي يسايروا الوضع القائم لكنهم صبروا وثبتوا ورفضوا التعايش مع الواقع المنحرف وإضفاء الشرعية على الحكام.

ولا شك أنه بعد استعراض موقف الجانبين:

إلا أنه في النهاية معصوم بدرجة ما ليست كاملة. إذ أنه لا بد أن تبدر منه بعض الهفوات ولا بد أن يرتكب بعض المعاصي.

أما الإمام فقدرته على عصمة نفسه أكبر من ذلك بحكم كونه تربية بيت النبوة. هذا على المستوى الذاتي الذي أهله إلى العصمة التكوينية كعصمة الرسل غير أنها أقل منها درجة. وبما أن الرسول معصوم ومما ينطق عن الهوى، فعندما يختار وصية فإن هذا الاختيار يكون بوحي من قبل الله سبحانه يقتضي أن تكون عصمة المختار عصمة تكوينية أيضا.

وعلى المستوى الفردي العادي يمكن للمرء أن يقوم بتربية ولده تربية دقيقة يبذل فيها قصارى جهده في تقويمه وإصلاحه وعزله عن المؤثرات وعوامل

الانحراف فينشأ الولد معصوما بدرجة كبيرة بحيث يصبح مثلا يحتذى به في الخلق والسلوك السوي المستقيم.

وإذا كان هذا على مستوى الأفراد فكيف يكون الأمر على مستوى الأنبياء؟

إذا الفرد العادي يستطيع أن يوصل ولده إلى مستوى عال من الأدب والخلق فإلى أي مدى يمكن أن يوصل النبي صلى الله عليه وآله الإمام عليا عليه السلام وهو الذي رباه وصنعه على يده وأعده ليكون إماما..؟

ونظرا لكون أهل السنة ينظرون لمسألة العصمة نظرة مبتورة ومنقوصة كما ذكرنا فإنهم ينظرون بعين الشك إلى مسألة عصمة الإمام عند الشيعة. أو بصورة أخرى إذا كان أهل السنة لا يعتقدون بعصمة الرسل عصمة كلية فهل يعتقدون بعصمة الإمام..!

وهم يرتكزون في هجومهم على الشيعة دائما على فكرة العصمة وفكرة الغيبة التي صوف نعرض لها فيما بعد. كما نعتبر كثير من المعاصرين المعتدلين من أهل الفقه والثقافة إن هاتين الفكرتين هما نقطة الضعف في الفكر الشيعي.

ويتهم البعض الشيعة بالتناقض لتبنيها العقل الذي نبذه أهل السنة ثم تبنيها فكرة العصمة والغيبة في آن واحد، وهما فكرتان نبذهما أهل السنة على الرغم من أنهم لا يعطون للعقل المساحة التي تعطيها له الشيعة..

ومثل هذه التهم إنما توجه للشيعة على غير علم بطبيعة العقيدة الشيعية وأصولها المستمدة من أئمة آل البيت.

ومن العسير هضم فكرة العصمة أو فكرة الغيبة على أي باحث دون هضم فكرة الإمامة التي تتميز بها الشيعة عما هاتان الفكرتان سوى نتيجتين للإمامة ومن الصعب فهم النتائج دون فهم المقدمات.

❊ موقف الصحابة والتابعين والفقهاء بعد الرسول.

❊ وموقف آل البيت.

وصورة الإسلام الذي يقدمه كل من الجانبين للناس.. سوف يتبين لنا أن جانب آل البيت لا بد وأن يكون معصوما. فإن الثبات في مواجهة الفتن، والانتصار على الهوى هو أعلى درجات العصمة. وهو ما يبدو من سلوك أئمة آل البيت ومواقفهم ولا يبدو من سلوك ومواقف الجانب الآخر.

ولا يتصور من هذا الطرح أن الشيعة يقدمون الأئمة على الرسل أو حتى يساوونهم بهم كما يشيع ذلك خصومهم.. فإن الإمام إنما يتلقى مهمته من الرسول الذي أوصى به فكيف يكون الوصي أعلى من الموصى. والإمام علي نال مكانته من الرسول صلى الله عليه وآله وهو ينتسب إليه بحكم القرابة فهو إمام آل بيت الرسول من بعده. والرسول وهو على قيد الحياة جمع بين الرسالة والإمامة كما جمعها إبراهيم عليه السلام من قبله. وبعد وفاته انتهى دور الرسالة وبقي دور الإمامة متمثلا في الإمام علي. إذن الإمام علي استمد قداسته من الرسول، فكيف يتقدم عليه؟

وكيف بعد هذا يقال إن الشيعة يعتقدون أن عليا أحق بالرسالة من محمد وأن جبريل أخطأ في الرسالة وبدلا من أن يهبط على علي هبط على محمد وهي مقولة تتردد كثيرا على ألسنة الناس حتى يومنا هذا..

وعلى هذا الأساس يمكن القول بأن عصمة الإمام أقل من عصمة الرسول، لأن دور الإمام أقل من دور الرسول، وهو مكمل له إلا أنها وإن كانت درجتها أقل من الرسول فهي أعلى من مستوى البشر بدرجات باعتبار أن كل إنسان إنما هو معصوم بدرجة ما.

إن المؤمن المداوم على الصلوات مثلا هو معصوم في حدود هذا الفعل، فهو يملك القدرة على الاختيار بين المداومة على الصلوات وبين المداومة على المسكرات مثلا. واختياره الصلوات يعني عصمته من الانحراف نحو المسكرات. أما الذي اختار المسكرات وترك الصلوات فهو غير معصوم.

والمرء من الممكن أن يتفوه بأي شئ، من الممكن أن يسب ويشتم، من الممكن أن ينطق بكلمة الكفر. فإذا ملك لسانه عن أن يتكلم مثل هذا الكلام فهو معصوم اللسان.

والفتاة التي تصبر محتسبة حتى ترزق بزوج صالح هي معصومة. أما الفتاة التي مالت بها شهوتها وانحرفت فهي غير معصومة.

إن كلا منا من الممكن أن يكون معصوما ضمن حدود وإطار معين.

من الممكن أن يعصم لسانه عن الكذب.

من الممكن أن يعصم فرجه عن الزنا.

والمقدمة عند الشيعة تحتمها النصوص، والنتيجة لا بد أن تكون شرعية أيضا، أي أن الإمامة مسألة شرعية والعصمة والغيبة مسألتان شرعيتان كذلك.

وإذا كنا قد عرضنا لقضية العصمة من الجانب العقلي فيما مضى فإن الأمر يحتم الآن أن نعرض للقضية من الجانب الشرعي.

في مقدمة النصوص القرآنية التي يعتمد عليها الشيعة في إثبات عصمة الإمام قوله تعالى لنبيه إبراهيم: ﴿**إني جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين**﴾ البقرة / ١٢٤.

يقول الطبرسي: استدل أصحابنا بهذه الآية على أن الإمام لا يكون معصوما عن القبائح لأن الله سبحانه نفى أن ينال عهده – الذي هو الإمامة – ظالم. ومن ليس بمعصوم فقد يكون ظالما إما لنفسه وإما لغيره [١].

ويقول السيد محسن الأمين: قوله تعالى خطابا لإبراهيم: ﴿**إني جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين**﴾ غير المعصوم ظالم لنفسه فلا ينال عند الإمامة الذي هو من الله تعالى. وأنه يجب أن يكون أفضل أهل زمانه وأكملهم لأن تقديم المفضول على الفاضل قبيح.. [٢].

وهذا النص يشير إلى أن سلالات الأنبياء فيها المحسن والمسئ والعادل والظالم والفاجر والتقي. وآل البيت إنما هم امتداد لذرية إبراهيم عليه السلام لكنهم

---

[١] مجمع البيان في تفسير القرآن، ج ١..

[٢] أعيان الشيعة..

غير معصومين على وجه العموم إنما المعصوم منهم طائفة محددة بالنصوص هم الأئمة الاثنا عشر أولهم الإمام علي وآخرهم الإمام المهدي المنتظر عليه السلام .

أما النص الثاني من نصوص العصمة فهو قوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم**﴾ النساء / ٥٩.

يقول الشيخ الوائلي: إن أولي الأمر الواجب طاعتهم يجب أن تكون أوامرهم موافقة لا حكام الله تعالى لتجب لهم هذه الطاعة. ولا يتسنى هذا إلا بعصمتهم إذ لو وقع الخطأ منهم لوجب الإنكار عليهم وذلك ينافي أمر الله بالطاعة لهم.. [١] .

وقول السيد الزنجاني: إن الإمام حافظ للشرع فيجب أن يكون معصوما وإنه لو وقع من الإمام الخطأ لوجب الإنكار عليه وذلك يضاد أمر الطاعة له بقوله تعالى: ﴿**أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم**﴾ وأيضا أنه لو وقعت منه المعصية لزم نقض الغرض من نصب الإمام والتالي باطل، فالمقدم مثله بيان الشرطية أن الغرض من إمامته انقياد الأمة له وامتثال أوامره واتباعه فيما يفعله. فلو وقعت المعصية منه لم يجب شئ أقل من ذلك وهو مناف لنصبه.

الدليل الثالث: إنه لو وقعت من الإمام المعصية لزم أن يكون أقل درجة من العوام لأن عقله أشد ومعرفته بالله تعالى وعقابه وثوابه أكثر فلو وقعت منه المعصية كان أقل حالا من الرعية وكل ذلك باطل قطعا فيجب أن يكون الإمام معصوما.. [٢] .

ويقول السيد شبر: قوله تعالى: ﴿**أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم**﴾ دل على وجوب إطاعة أولي الأمر كإطاعة الرسول. ولهذا لم يفصل بينهما بالفعل لكمال الاتحاد والمجانسة بخلاف إطاعة الله وإطاعة الرسول. إذ لما كان بين الخالق والمخلوق كمال المباينة فصل بالفعل. ومن المعلوم أن الله سبحانه لا يأمر المؤمنين - لا سيما الصلحاء العلماء الفضلاء - بإطاعة كل ذي أمر وحكم لأن فيهم الفساق والظلمة ومن يأمر بمعصية الله تعالى، فيجب أن

[١] هوية التشيع ط. بيروت.

[٢] نهاية الفلسفة الإسلامية..

يكون أولو الأمر الذين أمر الله بطاعتهم مثل النبي صلى الله عليه وآله في عدم صدور الخطأ والنسيان والكذب والمعاصي. ومثل هذا لا يكون إلا من قبل الله تعالى العالم بالسرائر كما في النبي صلى الله عليه وآله.. [1] .

ويروى عن الباقر والصادق عليهما السلام أن أولي الأمر في الآية هم الأئمة من آل محمد، أوجب الله طاعتهم بالاطلاق كما أوجب طاعته وطاعة رسوله ولا يجوز أن يوجب الله طاعة أحد على الإطلاق إلا من ثبتت عصمته وعلم أن باطنه كظاهره وأمن منه الغلط والأمر القبيح، وليس ذلك بحاصل في الأمراء ولا العلماء – كما يفسر النص أهل السنة – سواهم جل الله عن أن يأمر بطاعة من يعصيه أو بالانقياد للمختلفين في القول والفعل لأنه محال أن يطاع المختلفون كما أنه محال أن يجتمع ما اختلفوا فيه. ومما يدل على ذلك أيضا أن الله تعالى لم يقرن طاعة أولي الأمر بطاعة رسوله كما قرن طاعة رسوله بطاعته إلا وأولو الأمر فوق الخلق جميعا كما أن الرسول فوق أولي الأمر وسائر الخلق، وهذه صفة أئمة الهدى من آل محمد صلى الله عليه وآله الذين ثبتت إمامتهم وعصمتهم واتفقت الأمة على رتبتهم وعدالتهم.. [2] .

إن النص يخاطب المجتمع المؤمن المتقيد بطاعة الله وطاعة رسوله وهذا التقيد بوجب طاعة من يلتزم بطاعة الله ورسوله من أولي الأمر وإلا أصبح النص معدوم القيمة. ولو جازت طاعة الله ورسوله من أولي الأمر والفاسقين منهم لجاز التفلت من طاعة الله وطاعة رسوله وعدم التقيد بها. إذ أن الحاكم المنحرف الفاسد لن يتقيد بطاعة الله وطاعة رسوله، وبالتالي سوف يجر الأمة إلى التفلت من طاعة الله ورسوله وهو ما حدث في تاريخ هؤلاء الحكام الذين دانت لهم الأمة بالسمع والطاعة بأحاديث مخترعة تتناقض مع النص القرآني الذي نحن بصدده. والذين حلوا محل الأئمة الأطهار المقصودين بقوله تعالى: ﴿**وأولي الأمر منكم**﴾..

---

[1] حق اليقين في أصول الدين، ج ٢..

[2] المرجع السابق..

والنص الثالث: هو قوله تعالى: ﴿**إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا..**﴾ الأحزاب / ٣٣.

يقول الشيخ السبحاني: استدلت الشيعة الإمامية عن بكرة أبيها بهذه الآية على عصمة آل البيت الذين نزلت هذه الآية في حقهم. وأن الإرادة المقصودة من النص إرادة تكوينية لا تشريعية، بمعنى أن إرادته التكوينية التي تعلقت بتكوين الأشياء في عالم الوجود تعلقت أيضا بإذهاب الرجس عن أهل البيت وتطهيرهم من كل رجس وقذر ومن كل عمل يستنفر منه [١].

يقول الشيخ فرج الله الحسني: دلالة الآية على عصمة الخمسة الرسول وعلي وفاطمة والحسن والحسين لأنها صدرت بأداة الحصر وهي كلمة " إنما "، وتعلق إرادته تعالى بالتطهير وبإذهاب الرجس وهو فعله تعالى يدل على أن الإرادة تكوينية على ما ثبت في محله ومتعلق التطهير وهو " الرجس " مطلق محلى بألف ولام الجنس. فالآية الشريفة تعلن نفي مما هو الرجس بنحو العام الاستيعابي المجموعي عن أهل البيت المذكورين فيها.. [٢].

ويقول الشيخ الوائلي: معنى ذهاب الرجس نفي كل ذنب وخطأ عنهم، والإرادة هنا تكوينية لا تشريعية لوضوح أن التشريعية مرادة لكل الناس [٣].

ويقول الطبرسي: استدلت الشيعة على اختصاص الآية بهؤلاء الخمسة عليهم السلام بأن قالوا أن لفظة " إنما " محققة لما أثبت بعدها نافية لما لم يثبت، فإن قول القائل إنما لك عندي درهم وإنما في الدار زيد يقتضي أنه ليس عنده سوى الدرهم وليس في الدار سوى زيد. وإذا تقرر هذا فلا تخلو الإرادة في الآية من أن تكون في الإرادة المحضة أو الإرادة التي يتبعها التطهير وإذهاب الرجس. ولا يجوز الوجه الأول لأن الله تعالى قد أراد من كل مكلف هذه الإرادة المطلقة، فلا اختصاص لها بأهل البيت دون سائر الخلق، ولأن هذا

---

[١] معالم النبوة..

[٢] المرجع السابق..

[٣] هوية التشيع..

القول يقتضي المدح والتعظيم لهم بغير شك وشبهة ولا مدح في الإرادة المجردة، فثبت الوجه الثاني وفي ثبوته ثبوت عصمة المعنيين بالآية من جميع القبائح. وقد علمنا أن من عدا من ذكرنا من أهل البيت غير مقطوع على عصمته فثبت أن الآية مختصة بهم لبطلان تعلقها بغيرهم، ومتى قيل إن صدور الآية وما بعدها في الأزواج فالقول فيه إن هذا لا ينكره من عرف عادة الفصحاء في كلامهم فإنهم يذهبون من خطاب إلى غيره ويعودون إليه، والقرآن من ذلك مملوء وكذلك كلام العرب وأشعارهم.. [1] .

ونظرا لدلالة نص التطهير القطعية ومعناه الظاهر المحدد بآل البيت لم يجد أهل السنة في مواجهته سوى التسلح بالتعويم أي إطلاق النص على نساء النبي صلى الله عليه وآله وآل البيت بشكل عام حسب تعريفهم العائم له على ما سوف نبين. إلا أنهم فاتهم عدة نقاط هامة تتعلق بالنص المذكور:

الأولى: لغوية وقد ألقينا الضوء عليها من أقوال فقهاء الشيعة حول الآية.

الثانية: تتعلق بالسياق فهم يعتبرون السياق العام للنص يخاطب نساء النبي إلا أن المعروف أن السياق ليس بحجة لأن ترتيب الآيات ليس توقيفيا على الأرجح، ولا هناك من النصوص القرآنية ما يقتضي سياقه اختلال المعنى على الظاهر مثل قوله تعالى: ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا**﴾ فإن الآيات التالية لهذه الآية في سورة المائدة آيات أحكام، وإذا اعتبرنا السياق حجة فيجب أن تكون هذه الآيات سابقة لآية كمال الدين.

الثالثة: إن نساء النبي ذكرن بالذم في نفس السورة وفي سورة التحريم وعلى لسان الرسول في أحاديث كثيرة وهذا يتناقض مع طهارتهن ويدل على أنهن لسن مقصودات بآية التطهير.

[1] مجمع البيان تفسير سورة الأحزاب..

الرابعة: إن هناك روايات وردت على لسان الرسول تخصص الآية وتحصرها في حدود الخمسة، وتعرف آل البيت في حدود علي وفاطمة والحسن والحسين دون غيرهم وعلى رأس هذه الروايات حديث الكساء..[1] .

وبالإضافة إلى هذه النصوص القرآنية هناك حديث وارد عن الرسول صلى الله عليه وآله يفيد ثبوت العصمة لآل البيت..

وهذا النص النبوي هو حديث الثقلين الذي ذكرناه سابقا في نصوص الإمامة. فهذا النص قد قرن الكتاب بالعترة الطاهرة (كتاب الله وعترتي) وربط العترة بالكتاب دليل على عصمة العترة أئمة آل البيت.

فما دام الكتاب معصوما فلا بد أن تكون العترة المقرونة به معصومة أيضا، إذ ليس من المقبول عقلا أن يربط الرسول بالقرآن فئة غير جديرة بهذا الارتباط وليست على مستواه. فلا بد أن تكون هذه الفئة تتوافر بها مؤهلات حفظ الكتاب من بعد الرسول وإبلاغه للناس على الوجه الأكمل دون تحريف أو تأويل أو ميل للباطل أو القبلية أو الهوى أو الحكام، وهذا الدور في ذاته يتطلب عصمة.

ومثل هذا النص يشير إلى أن العترة هي وارثة الكتاب من بعد الرسول والمعبر الحقيقي عن الإسلام مما يوجب إمامتهم ويوجب بالتالي عصمتهم.

وهذا ينفي فكرة الإمامة عند أهل السنة ويبطل خلافة الثلاثة من بعد الرسول.

كما ينفي من جانب آخر ما قيل حول جمع القرآن من قبل أبو بكر فالرسول قد أورث الكتاب كاملا لعترته ممثلة في رأس العترة الإمام علي ولا يعقل أن يتركه مبعثرا هنا وهناك مهددا بالفقد والضياع والنسيان، ولو صح ما يعتقده أهل السنة من أفضلية أبو بكر على الأمة وعلى الإمام علي، لترك الرسول القرآن لديه أو لدى عمر أو لدى عثمان وعم جميعهم مقدمون على الإمام عندهم. لكن الثلاثة كما هو معروف لم يكونوا من حفظة القرآن ولا من كتبته مما يدل على أن هناك طرفا آخر ورث الكتاب عن الرسول غير هؤلاء، تتوافر لديه مقومات حمل هذه

[1] أنظر باب الرجال فصل آل البيت..

التبعية ويتحلى بمؤهلات ليست في هؤلاء من التقوى والعلم والشجاعة تعينه على القيام بهذه المهمة من بعد الرسول.. صاحب هذه المؤهلات هو الإمام علي. ومهمته هذه هي امتداد لمهمة الرسول ومكملة لها مما يفرض أن يكون معصوما هو ومن يتسلم المهمة من بعد أئمة آل البيت..

*** غيبة الإمام:**

يؤمن أهل السنة والشيعة بالمهدي المنتظر. غير أن الفارق كبير بين الاتجاهين حول الموقف من المهدي..

فشخصية المهدي عند أهل السنة تختلف اختلافا كبيرا عن شخصيته عند الشيعة..

المهدي عند السنة رجل في علم الغيب ليس معروفا لأحد. ربما يكون قد ولد وربما لم يولد بعد، يصلحه الله في يوم وليلة.

والمهدي عند الشيعة هو الإمام الثاني عشر الخاتم لسلسلة الأئمة ابن الإمام الحادي عشر وقد ولد عام ٢٥٥ هـ واختفى من عام ٢٦٠ هـ إلى عام ٣٢٩ هـ فيما سمي بالغيبة الصغرى ثم غاب بعد ذلك غيبته الكبرى.

المهدي عند السنة مجهول الشخصية من الممكن أن يتقمص شخصية أي مدع. وآخر صور الادعاء في الوسط السني ظهرت عام ٧٩ م عندما احتل الحرم المكي مجموعة من شباب التيار السلفي معلنين ظهور المهدي وقد باءت حركتهم بالفشل.

أما عند الشيعة فالمهدي شخصية معروفة شاهدها الكثير من المعاصرين قبل الاختفاء كما كان على صلة بشيعته طوال فترة الغيبة الصغرى عن طريق السفراء الأربعة الذين كانوا حلقة الوصل بين الشيعة والإمام[١] .

المهدي عند الشيعة هو م ح م د بن الحسن بن علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام

وعقيدة الانتظار عند الشيعة عقيدة إيجابية دافعة نحو التغيير والبناء، فالمؤمن

---

[١] أنظر أعيان الشيعة وموسوعة الإمام المهدي وتاريخ الغيبة الصغرى ط. بيروت..

الذي يعيش في عصر غيبة الإمام إنما يهيئ النفس ويعدها في حالة ترقب واستعداد لظهور الإمام ليكون من جنده وينال شرف الجهاد تحت لوائه من أجل إعلاء كلمة الله وتحطيم عروش المستكبرين في الأرض. فمن ثم نرى الشيعة يبتهلون إلى الله في صلواتهم على الدوام داعينه سبحانه أن يعجل بظهوره ليضع حدا للظلم والشرك والفساد الذي ساد البلاد والعباد.

ومثل عقيدة الانتظار هذه أن تشكل عامل تعبئة دائمة للمسلم المؤمن بعقيدة الإمامة تجعل منه قوة صدامية في مواجهة الباطل والظلم والعدوان حتى قبل ظهور الإمام. ولولا عقيدة الإمامة ما نجحت الثورة الإسلامية في إيران.

أما أهل السنة فلا عقيدة المهدي أدنى تأثير على سلوكهم ومواقفهم تجاه الواقع والأحداث، وذلك يعود إلى غموض شخصية المهدي وافتقاد فكرة الإمامة بصورتها الشرعية الصحيحة، مما جعل من قضية المهدي قضية هامشية عندهم تظل في طي النسيان حتى يظهر من يفجرها.

ولقد شكلت حادثة الحرم المكي التي تزعمها جهيمان العتيبي والتي أعلنت ظهور المهدي عام ٧٩، شكلت مفاجأة كبيرة للمسلمين السنة في كل مكان، وقد انجذب نحو هذه الحركة الكثير من شباب الحركة الإسلامية في مصر والجزيرة واليمن والكويت وغيرها الذين فوجئوا بظهور المهدي. وبعضهم كان قد رآه في المنام ثم بعد أن فشلت هذه الحركة وقتل المهدي المزعوم اختفت فكرة المهدي من واقع المسلمين وغابت عن الأذهان في انتظار من يحييها بإعلان " مهدي " جديد.

إن فكرة الإمامة المائعة عند أهل السنة والتي دفعت بهم إلى جعل الحكام أئمة، طاعتهم واجبة وإن جاروا وفسقوا، قتلت في نفوس المسلمين روح مقاومة الظلم والفساد والتمرد على الواقع الفاسد. وقتلت بالتالي في نفوسهم عقيدة انتظار المهدي المخلص الذي سوف يقضي على الظلم والفساد ويقيم دولة العدل والأمان والرخاء. وكان لا بد من قتل هذه العقيدة والتعتيم عليها لأن اعتناقها يشكل تهديدا مباشرا للقوى الحاكمة.

ولعل البعض يقول على الرغم من ذلك: إن اعتقاد أهل السنة في المهدي هو أقرب إلى العقل والواقع من اعتقاد الشيعة الذين ينتظرون إماما غاب منذ أكثر من ألف عام وهو على قيد الحياة.

والذين يطرحون مثل هذا التصور إنما يغيب عليهم استيعاب قضية الإمامة عند الشيعة. فهم ينظرون إلى قضية المهدي المنتظر نظرة مجردة معزولة عن قضيتها الأم قضية الإمامة. فإن المهدي هو خاتم سلسلة الأئمة التي بدأت بالإمام علي وغيبته هي نتيجة حتمية لحركة هؤلاء الأئمة.

فإذا أهل السنة والشيعة كلاهما يقر بأن الرسول أبلغ الأمة أن هناك اثني عشر إماما يأتون من بعده، فهؤلاء الأئمة لم يظهر منهم سوى أحد عشر إماما عند الشيعة أما الثاني عشر فلم تتح له فرصة الظهور بسب تربص الحكام وبطشهم واضطر إلى الاختفاء إلى أجل يعلمه الله.

وبما أن هذا الإمام من سلسلة آل البيت أبناء فاطمة ووالده الإمام الحادي عشر كان موجودا فلا بد لولده أن يكون موجودا. إذ لا يعقل أن يظهر الإمام الثاني عشر منفصلا عن أبيه بعدة قرون. نحن هنا أمام عدة احتمالات:

الأول: أن الإمام الحادي عشر مات ولم ينجب وبالتالي يكون الإمام الثاني عشر سوف يظهر من سلسلة أخرى غير سلسلة آل البيت.

الثاني: أن يكون الإمام الثاني عشر قد ظهر ومات.

الثالث: أن يكون الإمام الثاني عشر قد ظهر واختفى.

الاحتمال الثالث هو الراجح فلم يثبت تاريخيا أن الإمام الحادي عشر مات ولم يعقب كما يحاول البعض من أهل السنة أن يشكك في ذلك [1].

والثابت تاريخيا أيضا أن الإمام الثاني عشر اختفى بعد ولادته بخمس سنوات فهو ولد دون أن يؤدي دوره ويعلن حجته.

---

[1] أنظر منهاج السنة لابن تيمية. والمراجع السابقة..

وقضية طول العمر قضية ليست مرفوضة من الجانب الشرعي كما أنها ليست مرفوضة من الجانب العقلي والعلمي.

فالقرآن يقص علينا أن عمر نوح بلغ أكثر من ألف عام فهو قد مكث يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عاما سوى عمره [1].

وأطال الله في أعمار أهل الكهف، ولبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعا [2].

ومن عهد ذي القرنين ويأجوج ومأجوج على قيد الحياة في انتظار سقوط السد النحاسي الذي يعزلهم عن العالم.. [3].

وهناك الدابة التي حدثنا عنها القرآن التي تخرج من الأرض تكلم الناس وهي من معجزات آخر الزمان [4].

وكذلك هناك الخضر الذي يعتقد الجمهور ببقائه حيا كما تشهد بذلك الآية وهو معمر على جميع الأقوال [5].

وعيسى نبي الله الذي تم رفعه من الأرض وينتظر نزوله في آخر الزمان حسبما تنص الروايات [6].

وتنص الأحاديث على وجود الدجال من زمن الرسول حيا وأنه سوف يظهر في آخر الزمان ويواجه المهدي [7].

---

[1] أنظر سورة العنكبوت..

[2] أنظر سورة الكهف..

[3] أنظر السورة السابقة..

[4] أنظر سورة النمل..

[5] أنظر تفسير سورة الكهف في كتب التفاسير وانظر في تمييز الصحابة لابن حجر ج ١، حرف الخاء ترجمة الخضر..

[6] أنظر سورة النساء في كتب التفسير وأحاديث آخر الزمان في كتب السنن..

[7] أنظر أبواب الفتن في كتب السنن وخبر تميم الدارمي في مسلم..

فإذا كان الله سبحانه قد أطال أعمار أهل الكهف ثلاثة قرون لمجرد إحداث معجزة تقام بها الحجة على قومهم. وأطال في أعمار يأجوج ومأجوج وهم قوم أشرار سوف يفسدون في الأرض. وأطال في عمر الخضر وهو فرد واحد ليست له دعوة عامة وليس هناك من رسالة يبلغها للناس. وأحيا الدابة وهي معجزة فردية. ورفع عيسى ليكون حجة على قومه. وأطال في عمر الدجال لينشر الشر في آخر الزمان. أفلا يكون من الأولى إطالة عمر الرجل الذي سوف يواجه الشر وينشر الخير ويقيم العدل وهو يحمل على كاهله مسؤولية كبرى ودعوة عامة للناس أجمعين مسلمين وغير مسلمين هي امتداد لدعوة الرسول صلى الله عليه وآله ومكملة لها في عصر يغيب فيه الإسلام ويغترب عن الناس وتصبح الحاجة ماسة إلى ظهور إمام تتوافر به مؤهلات خاصة تعينه على أداء دوره ورسالته دون تأثر بفتن العصر ومغرياته.

ونحن في واقعنا المعاصر نشاهد أناسا من المعمرين تجاوزت أعمارهم المائة عام بعشرات السنين ولا نجد أي حكمة لإطالة أعمارهم إلى هذا الحد، فليسوا هم بأصحاب علم أو دعوة تنتفع الناس بها وليسوا هم بقادة تحتاجهم شعوبهم.

فلماذا يطيل الله في أعمار هؤلاء؟

إنه ليس هناك من جواب لهذا السؤال سوى أن المعمرين هؤلاء برهان ساطع للناس أن الله سبحانه الذي أطال في أعمار هؤلاء دون فائدة واضحة أو هدف اجتماعي أو سياسي من الأولى أن يطيل في عمر إمام سوف يقود البشرية ويحي الملة وينصر المستضعفين ويقضي عل المستكبرين ويملأ الأرض قسطا وعدلا كما ملئت ظلما وجورا.

وقضية صغر سن الإمام المهدي هي من صور الابتلاء والتمحيص للمؤمنين ومع ذلك فهي قضية لا تصطدم بروح الشرع فقد أوتي يحيى عليه السلام الحكمة صبيا وجعل عيسى في المهد نبيا، فحمل الدعوة والحكمة في مثل هذه السن المبكرة أمر قد تكرر حدوه من قبل.

وما يثار عن الانتفاع بغيبته يعود سببه إلى عدم الوعي بدور الإمام وماهية حركته، فالإمام حجة على الناس وممثل لخط الرسول خط آل البيت الذي يعبر عن الصورة الحقيقية للإسلام. فمن عاصره انتفع به انتفاعا مباشرا ومن لم يعاصره انتفع به انتفاعا غير مباشر أي الانتفاع بخطه ودعوته.

فالإمام كالرسول هو الحاضر الغائب في واقع المؤمنين. حاضر بعلمه ودعوته غائب بجسده وهيئته.

إن المؤمن بغيبة الإمام ينتفع به على الدوام، ففضلا عن كونه يعيش حالة تعبئة معنوية دائمة متسلحا بالتقوى والوعي والقوة المادية. هو يسير في ظل الإمام فيعصم نفسه عن الانحراف إلى الباطل ويحصنها في مواجهة الظلم والفساد بعكس المسلم الهائم على وجهه تتجاذبه الفرق والاتجاهات المتناحرة فيميل إلى هذه الفرقة تارة وهذا الاتجاه تارة ويعتزل الواقع تارة أخرى.

والمتأمل في واقع الحركة الإسلامية اليوم يكتشف مدى حالة الحيرة والتيه التي يعيشها الشباب المسلم بين التيارات الإسلامية المختلفة، تلك الحيرة التي تؤدي به في أغلب الأحيان إلى الكفر بهذه التيارات جميعها. وما سبب ذلك إلا فقدان فكرة الإمامة من نفوس هؤلاء الشباب الذين لو كان لهم تعلق بإمام وإن كان غائبا عنهم لاستقامت أفكارهم واستقامت حركتهم.

وقول الرسول صلى الله عليه وآله: (من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية [1] .

فكون الإمام يعد فيصلا بين الإسلام والجاهلية فهذا يعني عصمته، فأداة معرفة الحق هي جزء من الحق. فالإمام المعصوم سوف يوصلنا إلى الحق المعصوم. أما أدعياء الإمامة فلا يوصلون إلا إلى الباطل.

ومعرفة الإمام في ذاتها هي وسيلة للنجاة من السقوط في الجاهلية التي هي نقيض الإسلام. وهي لا تعني بالضرورة معايشة الإمام أو رؤيته رأي العين.

إنما تعني معرفة خطه وطريقه. فما دام المسلم قد تعرف على خط الإمام وسار

---

[1] رواه أبو داوود وانظر مسند أحمد..

على طريقه فقد نجا من الجاهلية حتى وإن لم ير الإمام. فإن الهدف هو معرفة الإمام وليس رؤية شخصه. ومعرفة الإمام تعني معرفة الحق.

ولعل هذا هو المقصود من قول الرسول صلى الله عليه وآله: " من فارق لجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه " [1].

وفي رواية أخرى: " فقد مات ميتة جاهلية " [2].

أو هو المقصود من قوله لحذيفة: " الزم جماعة المسلمين وإمامهم " [3].

فإن الجماعة المقصودة هنا هي جماعة الإمام المعصوم وليس جماعة الحكام الذين يعبرون عن الصورة الزائفة للإسلام.

ولما كانت الأمة قد انحرفت عن الإمامة فقد انحرفت بالتالي الجماعة ولما استبدلت الإمام بالخلفاء والحكام استبدلت بالتالي جماعة المسلمين الحقة بدول ومجتمعات اعتبر الخروج عن دائرتها خروجا عن دائرة الإسلام. مما قاد الأمة إلى مرحلة الانحطاط الخلقي والاجتماعي والعقائدي مما يوجب ظهور مصلح يقود الأمة ويبعثها من جديد تحت راية الإسلام الحقة التي طواها الحكام وأحلوا مكانها رايات الجاهلية الزائفة.

وهذا هو دور الإمام الغائب أن يعمل على سد هذا الفراغ الكبير الذي أحدثه غياب الأمة عن الإسلام وتبدد صورته الحقيقية. فليست مهمة هذا الإمام تنحصر في الدائرة الاجتماعية أو الاقتصادية، إنما مهمته مهمة عقائدية في المقام الأول، ولعل حالة الانحراف التي كانت سائدة في زمن ولادة الإمام المهدي لم تكن تقتضي أن يتحرك لمواجهتها كما هو حال الأئمة الذين سبقوه. واقتضت حكمة الله أن يدخر هذا الإمام لعصر آخر تكون الحاجة ماسة لظهوره فيه. كما أن ظهوره في عصر هو غريب عنه سوف يكون له أثره الفعال في إنجاح مهمته.

---

[1] أنظر مسلم والترمذي والنسائي..

[2] أنظر المراجع السابقة..

[3] أنظر البخاري ومسلم..

إذ أن تأثير العصر عليه وتأثره به سوف يكون معدوما. مما يجعل صدامه معه أكثر فعالية لا مجال فيه للمهادنة أو التراجع.

إن ضغوط الواقع الدولي لن يكون لها أدنى تأثير على حركة الإمام المهدي لأنه سوف يكون متحررا من هذه الضغوط بحكم كونه ليس من أهل هذا العصر، وهذا من دلائل عصمته. إذ لو كان من أهل هذا الزمان لتأثر به لكون ضغوطه شديدة ومؤثراته أشد. وهو زمان تختلف مقوماته وأوضاعه عن الأزمان الماضية اختلافا كبيرا. كما أن طبيعة الصراع فيه تحتاج إلى قدرات خاصة تفرض العصمة في الإمام الذي سوف يتصدى للمواجهة وحمل راية التغيير في هذا الزمان.

الفصل الرابع

الرجال

تمهيد

هل الحق يعرف بالرجال أم يعرف الرجال بالحق؟

أو السؤال بصيغة أخرى: هل الرجال فوق النصوص، أم النصوص فوق الرجال؟

إن الإجابة على هذا السؤال تكشف لنا جوهر الخلاف بين السنة والشيعة.

ذلك الخلاف الذي بدأ من بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله عندما انحاز قطاع من المؤمنين للإمام علي عليه السلام وانحاز القطاع الأكبر لأبي بكر. فمنذ هذه الفترة ظهر بين المسلمين خطان تفرعت عنهما قضايا ومسائل مواقف واجتهادات [1].

وما نحاول عرضه في هذا الباب هو مدى موقف كل من الخطين من النصوص وموقف النصوص منهما؟

هل كانت النصوص في صف أبي بكر أم في صف علي عليه السلام...؟

هل الذين ساروا على خط أبي بكر اهتدوا إلى ذلك بالنصوص أم حكموا الرجال؟

وهل الذين ساروا على خط علي اهتدوا إلى ذلك بالنصوص أم بشخص علي؟

إن قضية الرجال تعد من أخطر القضايا التي واجهت الملل والنحل على مر الزمان وهي القضية الرئيسية التي تسببت في ضياع بني إسرائيل وأتباع عيسى عليما السلام من بعدهم.

يقول سبحانه: ﴿**اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله**﴾ التوبة ٣١.

الأحبار هم علماء اليهود. والرهبان هم عباد النصارى وكلاهما قد جعلا مصدر التحليل والتحريم، أي تم رفعهم فوق النصوص وأصبحوا هم مصدرها.

---

[1] الخطان هما خط آل البيت. وخط الصحابة أو ما عرف فيما بعد بخط الشيعة وخط السنة. انظر لنا السيف والسياسة.

ومثل هذا النص القرآني إنما يحذر أمة محمد من الوقوع في شرك الرجال واتخاذهم أربابا من دون الله.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: هل وقعت أمة محمد ﷺ في شرك الرجال أم لا؟

يقول الشاطبي: إن تحكيم الرجال من غير التفات إلى كونهم وسائل للحكم الشرعي المطلوب شرعا ضلال. وما توفيقي إلا بالله وإن الحجة القاطعة والحاكم الأعلى هو الشرع لا غيره. وإن مذهب أصحاب رسول الله ﷺ ومن رأى سيرهم والنقل عنهم وطالع أحوالهم علم ذلك علما يقينا [1].

إلا أن هذا الموقف النظري لأهل السنة ليس هناك ما يعضده عمليا على ما سوف نبين من خلال استعراضنا لموقف كل من الشيعة والسنة من الرجال ومن النصوص.

وقد حددنا دائرة الرجال في هذا الباب في محيطين اثنين هما:

- محيط الصحابة.
- محيط آل البيت.

وما نهدف إليه هو محاولة إثبات أن خط الصحابة هو خط الرجال.

وخط آل البيت هو خط النصوص.

[1] الاعتصام للشاطبي، ج ٢ / ٣٥٥ ط. القاهرة.

الصحابة عند أهل السنة

يقول البخاري: من صحب النبي أو رآه من المسلمين فهو من أصحابه [1].

ويعلق حجر قائلا: يعني أن اسم صحبة النبي ﷺ مستحق لمن صحبه أقل ما يطلق عليه اسم صحبة لغة وإن كان العرف يخص ذلك ببعض الملازمة. ويطلق أيضا على من رآه رؤية ولو عن بعد. وهذا الذي ذكره البخاري هو الراجح إلا أنه هل يشترط في الرائي أن يكون بحيث يميز ما رآه أم يكتفي بمجرد حصول الرؤية؟ محل نظرهم ومنهم من بالغ فكان لا يعد في الصحابة إلا من صحب الصحبة العرفية وكذلك روي عن سعيد بن المسيب أنه كان لا يعد من أقام مع النبي صلى الله عليه وآله سنة فصاعدا أو غزا معه غزوة فصاعدا. والعمل على خلاف هذا القول لأنهم اتفقوا على عد جمع جم من الصحابة لم يجتمعوا بالنبي صلى الله عليه وآله إلا في حجة الوداع. ومن اشترط الصحبة العرفية أخرج من له رؤية أو من اجتمع به لكن فارقه عن قرب. ومنهم من اشترط في ذلك أن يكون حين اجتماعه به بالغا وهو مردود أيضا لأنه أخرج مثل الحسن بن علي عليه السلام ونحوه من أحداث الصحابة.

والذي جزم به البخاري هو قول أحمد والجمهور من المحدثين ويرد على التعريف من صحبه أو رآه مؤمنا به ثم ارتد بعد ذلك ولم يعد إلى الإسلام فإنه ليس صحابيا اتفاقا فينبغي أن يزاد فيه - أي في قول البخاري - " ومات على ذلك ". فلو ارتد ثم عاد إلى الإسلام لكنه لم يره ثانيا بعد عوده فالصحيح أنه معدود في الصحابة لإطباق المحدثين على عد الأشعث بن قيس ونحوه ممن وقع له ذلك وإخراجهم أحاديثهم في المسانيد. أما الجن فالراجح دخولهم لأن النبي بعث إليهم قطعا وهم مكلفون فيهم العصاة والطائعون فمن عرف اسمه منهم لا ينبغي التردد في ذكره في الصحابة. وأما الملائكة فيتوقف عدهم فيهم على ثبوت بعثته إليهم فإن فيه خلافا بين الأصوليين حتى نقل بعضهم الإجماع

---

[1] البخاري كتاب فضائل أصحاب النبي.

على ثبوته وعكس بعضهم، وهذا كله فيمن رآه في قيد الحياة الدنيوية أما من رآه بعد موته وقبل دفنه فالراجح أنه ليس بصحابي [١] .

وقد نقل ابن حجر قول شيخ البخاري علي بن المديني: من صحب النبي صلى الله عليه وسلم أو رآه ساعة من نهار فهو من أصحاب النبي [٢] .

والقاضي الباقلاني: إن الصحبة لا يوصف بها إلا من كثرت صحبته واتصل لقاؤه ولا يجري هذا لوصف على من لقي النبي ساعة ومشى معه خطأ أو سمع منه حديثا [٣] .

ويقول الغزالي: اعلم أن للناس في الصحابة والخلفاء إسرافا في أطراف.

فمن مبالغ في الثناء حتى يدعي العصمة للأئمة، ومنهم متهجم على الطعن يطلق اللسان في ذمة الصحابة. فلا تكونن من الفريقين واسلك طريق الاقتصاد في الاعتقاد. واعلم أن كتاب الله تعالى مشتمل على الثناء على المهاجرين والأنصار وتواترت الأخبار بتزكية النبي صلى الله عليه وسلم إياهم. فينبغي أن تستعمل هذا الاعتقاد في حقهم ولا تسئ الظن بهم [٤] .

ويقول ابن حجر: وأصح ما وقفت عليه من ذلك أن الصحابي من لقي النبي صلى الله عليه وسلم مؤمنا به ومات على الإسلام فيدخل فيمن لقيه من طالت مجالسته له أو قصرت، ومن روى عنه أو لم يرو، من غزا معه أو لم يغز، ومن رآه رؤية ولو لم يجالسه ومن لم يره لعارض كالعمى. ويدخل في قولنا مؤمنا به كل مكلف من الجن والإنس. واتفق أهل السنة على أن الجميع عدول ولم يخالف في ذلك إلا شذوذ من المبتدعة [٥] .

---

[١] فتح الباري: ج ٧ / ٤ وما بعدها.

[٢] المرجع السابق.

[٣] الكفاية، ص ٥١.

[٤] الاقتصاد في الاعتقاد. ط. القاهرة.

[٥] الإصابة في تمييز الصحابة: ج ١ / ٧. ويذكر أن ابن حجر يعتبر الأطفال ممن مات النبي وهم دون سن التمييز صحابة. ويقول إن ذكر أولئك في الصحابة إنما هو على سبيل الالحاق لغلبة الظن على أنه رآهم. وقال ابن حزم: الصحابة كلهم من أهل الجنة قطعا.

ويقول ابن الأثير: والصحابة يشاركون سائر الرواة في جميع ذلك إلا في الجرح والتعديل فإنهم كلهم عدول لا يتطرق إليهم الجرح لأن الله عز وجل زكاهم وعدلهم وذلك مشهور لا نحتاج لذكره [1].

ويقول ابن عبد البر: فهم خير القرون وخير أمة أخرجت للناس ثبتت عدالة جميعهم بثناء الله عز وجل عليهم وثناء رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أعدل ممن ارتضاه الله بصحبة نبيه ونصرته ولا تزكية أفضل من ذلك ولا تعديل أكمل منها. قال تعالى: ﴿**محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم**﴾ الآية [2].

ويقول الطحاوي: ونحب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا نفرط في حب أحد منهم. ولا نتبرأ من أحد منهم ونبغض من يبغضهم وبغير الحق يذكرهم، ولا نذكرهم إلا بخير وحبهم دين وإيمان وإحسان وبغضهم كفر ونفاق وطغيان [3].

ويقول ابن تيمية: ومن أصول أهل السنة والجماعة سلامة قلوبهم وألسنتهم لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم. ويقبلون ما جاء في الكتاب والسنة والإجماع من فضائلهم ومراتبهم [4].

ويقول السفاريني: والذي أجمع عليه أهل السنة والجماعة أنه يجب على كل واحد تزكية جميع الصحابة بإثبات العدالة لهم والكف عن الطعن فيهم والثناء عليهم. والاعتقاد بنزاهتهم وأنهم أفضل جميع الأمة بعد نبيهم. هذا مذهب كافة الأمة ومن عليه المعول من الأئمة [5].

ويقول ابن الصلاح: للصحابة بأسرهم خصيصة وهي أنه لا يسأل عن

---

[1] أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج ١، ط. القاهرة.

[2] الإستيعاب في معرفة الأصحاب بهامش الإصابة.

[3] شرح الطحاوية في العقيدة السلفية.

[4] العقيدة الواسطية شرح خليل هراس. ط. الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة.

[5] الدرة المضيئة وشرحها / عقيدة سفاريني: ج ٢ / ٣٣٨.

عدالة أحد منهم. بل ذلك أمر مفروغ منه لكونهم على الإطلاق معدلين بنصوص الكتاب والسنة والإجماع [١].

ويفسر أهل السنة المقصود بالعدالة بقولهم: تفصيله أن يكون مسلما بالغا عاقلا سالما من أسباب الفسق وخوارم المروءة [٢].

ويقول ابن حجر: والمراد بالعدل ملكة تحمله على ملازمة التقوى والمروءة والمراد بالتقوى اجتناب الأعمال السيئة من شركة أو فسق أو بدعة[٣].

وقال ابن عابدين: العدل من يجتنب الكبائر كلها حتى لو ارتكب كبيرة تسقط عدالته وفي الصغائر العبرة بغلبه أو الإصرار على الصغيرة فتصير كبيرة.

وتعود إليه عدالته إذا تاب [٤].

وروى أبو عروة الزبيري من ولد الزبير: كنا عند مالك بن أنس فذكروا رجلا ينتقص من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأ مالك هذه الآية ﴿**محمد رسول الله والذين معه**﴾ حتى بلغ ﴿**يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار**﴾ فقال مالك: من أصبح من الناس في قلبه غيظ على أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد أصابته هذه الآية [٥].

وقال القرطبي: لقد أحسن مالك في مقالته وأصاب في تأويله فمن نقص واحدا منهم أو طعن عليه في روايته فقد رد على الله رب العالمين وأبطل شرائع المسلمين[٦]

ويروى عن الرسول صلى الله عليه وسلم: (إن الله اختار أصحابي على العالمين سوى النبيين والمرسلين واختار لي من أصحابي أربعة - يعني أبا بكر وعمر وعثمان وعليا - فجعلهم أصحابي) [٧].

---

[١] علوم الحديث، ص ٢٦٤.

[٢] المرجع السابق.

[٣] شرح نخبة الفكر. وقال مثله النووي في التقريب، والسيوطي في تدريب الراوي.

[٤] الدر المختار، كتاب الشهادة.

[٥] الجامع لأحكام القرآن، ج ١٦ / ٢٩٦. ط. القاهرة.

[٦] المرجع السابق.

[٧] رواه البزار عن جابر مرفوعا صحيحا.

وقال الآمدي في الأحكام: اتفق الجمهور من الأئمة على عدالة الصحابة، وقال قوم: حكمهم في العدالة حكم من بعدهم في لزوم البحث عن عدالته عند الرواية.

ويقول القرطبي: فالصحابة كلهم عدول. أولياء الله تعالى وأصفياؤه وخيرته من خلقه بعد أنبيائه ورسله، هذا مذهب أهل السنة والذي عليه الجماعة من أئمة هذه الأمة. وقد ذهبت شرذمة لا مبالاة بهم إلى أن حال الصحابة كحال غيرهم فيلزم البحث عن عدالتهم.

ومنهم من فرق بين حالهم في بداءة الأمر. فقال: إنهم كانوا على العدالة إذ ذاك ثم تغيرت بهم الأحوال فظهرت فيهم الحروب وسفك الدماء فلا بد من البحث. وذا مردود ولا يجوز أن ينسب إلى أحد من الصحابة خطأ مقطوع به وقد تعبدنا بالكف عما شجر بينهم وألا نذكرهم إلا بأحسن الذكر لحرمة الصحبة ولنهي النبي صلى الله عليه وسلم عن سبهم وأن الله غفر لهم وأخبر بالرضا عنهم.

ومن أصحابنا من قال: إن سبيل ما جرت بين الصحابة من المنازعات كسبيل ما جرى بين إخوة يوسف مع يوسف. ثم إنهم لم يخرجوا بذلك عن حد الولاية والنبوة فكذلك الأمر فيما جرى بين الصحابة، وقد سئل الحسن البصري عن قتالهم فقال: قتال شهده أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وغبنا وعلموا وجهلنا واجتمعوا فاتبعنا. واختلفوا فوقفنا [1] .

وقد استند أهل السنة في رؤيتهم هذه إلى عدة نصوص من القرآن والأحاديث منها قوله تعالى: ﴿**كنتم خير أمة أخرجت للناس**﴾ آل عمران / ١١٠.

وقوله: ﴿**وكذلك جعلناكم أمة وسطا**﴾ البقرة / ١٤٣.

وقوله: ﴿**لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم**﴾ الفتح / ١٨.

[1] الجامع لأحكام القرآن، ج ١٦ / ٢٩٩ / ٣٢٢.

وقولـه: ﴿**والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعـوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه**﴾ التوبة / ١٠٠.

وقوله تعالى: ﴿**يا أيها النبي حسبك الله ومـن اتبعـك مـن المـؤمنين**﴾ الأنفال / ٦٤.

وقوله تعالى: ﴿**للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأمـوالهم يبتغون فضمن الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الـصادقون**﴾ الحشر / ٨.

ومن النصوص النبوية:

قول الرسول صلى الله عليه وسلم: (خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم) [١] .

وقوله: (لا تسبوا أصحابي فإن أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصفه) [٢] .

وقوله: (الله الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضا بعدي) [٣] .

وقوله: (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ) [٤] .

ومثل ما يقال حول الصحابة عند أهل السنة يقال مثله عن أمهات المؤمنين زوجات النبي. ومثلما جعلوا أفضل الصحابة أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي. جعلوا الأضواء مركزة على عائشة من دون بقية أزواج النبي صلى الله عليه وسلم واعتبروها حاملة علم الرسول [٥] .

---

[١] البخاري ومسلم.

[٢] البخاري ومسلم وأبو داوود والترمذي.

[٣] الترمذي.

[٤] البخاري.

[٥] أنظر لنا السيف والسياسة. وفقه الهزيمة.

ولأجل هذه النظرية القدسية التي ينظر بها أهل السنة للصحابة وهذا التنزيه المطلق لهم اعتبروهم مصدرا من مصادر التلقي وقدموهم على النصوص بل أخضعوا النصوص لهم.

ومثال ذلك اجتهادات عمر على النصوص وإخضاعها لفهمه وحصرها في رأيه [1].

ومثال ذلك أيضا النصوص الواردة في ردتهم وفسقهم وبغيهم فهذه النصوص قد تم تأويلها وتطويعها بحيث لا تمس الصحابة ولا تشكك فيهم ولا تهز صورتهم [2].

ومن هنا تحولت أقوال الصحابة وممارساتهم إلى نصوص تتعبد بها الأمة خاصة مواقف ابن عمر وأقواله [3].

---

[1] أنظر النص والاجتهاد وفقه الهزيمة وسوف نلقي الضوء على هذا الأمر عند الحديث عن موقف الشيعة من الصحابة.

[2] أنظر مفاهيم القرآن، ج ٥، الفصل الثالث وشبهات حول الشيعة وفقه الهزيمة.

ويظهر أن القوم تناسوا النصوص الواردة في القرآن والتي تذم الصحابة مثل قوله تعالى: (لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين * إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون * ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة) التوبة / ٤٤ – ٤٦.

وقوله تعالى: (قل أنفقوا طوعا أو كرها فلن يتقبل منكم إنكم كنتم قوما فاسقين) التوبة.

وقوله: (ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون) التوبة.

وقوله: (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم) الحجرات.

وذلك غير الثلاثة الذين خلفوا وأصحاب المسجد الضرار وأصحاب الإفك وغيرهم كثير ذكرهم القرآن وجميعهم من الصحابة شاهدوا الرسول وعاصروه ومع ذلك حكم عليهم القرآن بالفسق والنفاق والجبن والفرار من الحرب.

وفي الأحاديث يروي البخاري قول الرسول صلى الله عليه وآله: إنكم لتحشرون حفاة عراة وإن أناسا من أصحابي يؤخذ بهم ذات الشمال فأقول: أصحابي، أصحابي، فيقول: إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم فأقول كما قال العبد الصالح: (وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم). وهناك عدة روايات رواها البخاري حول ردة الصحابة وهي معروفة بأحاديث الحوض.

[3] يعتبر ابن عمر ركنا من أركان مذهب أهل السنة وقد ركزت الأضواء عليه من دون بقية الصحابة لمواقفه الموالية للحكام والمعادية لآل البيت. فقد بايع معاوية ويزيد والحجاج ولم يبايع الإمام

ولقد ساد في واقع الأمة هذا الرأي الذي تبنته جماعة أهل السنة حول الصحابة بينما ضرب الرأي الآخر ونبذ وهو من داخل الجماعة، بعد أن دعم الحكام هذا الرأي لكونه يخدم مصالحهم ويتيح لهم فرصة استثمار كثير ممن يدخل ضمن هذا التعريف ممن لا يستحقون درجة الصحبة ليروي باسم الرسول صلى الله عليه وسلم الروايات التي تضفي المشروعية على سياساتهم وممارساتهم وأنظمتهم وتفرض على الجماهير طاعتهم [1] .

وعلى هذا الأساس طغى الرجال على النصوص وأصبح الحق يعرف بهم لا يعرف بالنصوص واعتبر القوم المساس بهم مساسا بالنصوص.

من هذا اعتبرت قضية الصحابة عند أهل السنة قضية بالغة الحساسية فقد ارتبط بها الدين كله وأي محاولة للطعن فيهم تعتبر طعنا في الدين.

عليا. وصلى وراء الحجاج ومعه أنس بن مالك ومن هنا اخترعت قاعدة جواز الصلاة وراء كل بر وفاجر. كذلك تحولت نصوص عائشة وأبي هريرة ومواقف كل منهما إلى قواعد فقهية تتعبد بها الأمة. انظر لنا فقه الهزيمة فصل الرجال. وانظر أحاديث عائشة للسيد مرتضى العسكري. وأبو هريرة للسيد شرف الدين وأبي رية.

[1] أنظر لنا فقه الهزيمة فصل أوهام. والسيف والسياسة.

الصحابة عند الشيعة

يشكل موقف الشيعة من الصحابة استفزازا كبيرا لأهل السنة، حيث أن الشيعة لا تعطي لهذه المسألة أهمية كبيرة وتعتبرها مسألة عادية ينطبق عليها ما ينطبق على المسلمين. أي أنها لا تميز الصحابة ذلك التمييز الذي يميزه أهل السنة بحيث يرفعونهم فوق المسلمين. وتعتقد أن فيهم المسئ والمصلح والطائع والعاصي والمؤمن والمنافق والتقي والشقي والصدوق والكذوب.

إلا أن هذا لا ينفي أن هناك صحابة على درجة عالية من التقوى والالتزام بنهج الرسول والاخلاص لدعوته تعتقد فيهم الشيعة وتجلهم وتقبل روايتهم عن الرسول مثل عمار بن ياسر وسلمان الفارسي والمقداد وأبو ذر الغفاري وحذيفة بن اليمان وغيرهم.

وفكرة عدالة الصحابة مرفوضة عند الشيعة بصورتها العمومية التي يتبناها أهل السنة كما أن التعريف العائم الذي يتبنونه حول الصحابة مرفوض أيضا.

يقول الأستاذ عباس الموسوي: إن قضية الصحابة هي إحدى القضايا الهامة التي اتخذ فيها الخط الشيعي رأيا معتدلا لا إفراط فيه ولا تفريط. لم يشذ بمسلكه ذاك عن الطريق السوي أو ينفرد وحده بهذا الرأي، بل هناك من المسلمين من غير الشيعة من تبنى رأيهم في الصحابة دون أن تأخذه في الله لومة لائم سيرا وراء الحق واقتفاء للدليل والبرهان [1] .

ويقول السيد محسن الأمين: حكم الصحابة في العدالة حكم غيرهم ولا يتحتم الحكم بها بمجرد الصحبة وهي لقاء النبي ﷺ مؤمنا به ومات على الإسلام - على ما قال ابن حجر أنه أصح ما وقف عليه في تعريف الصحابي - وإن ذلك ليس كافيا في ثبوت العدالة بعد الاتفاق على عدم العصمة المانعة من صدور الذنب، فمن علمنا عدالته حكمنا بها وقبلنا روايته ولزمنا له من التعظيم

---

[1] شبهات حول الشيعة ط. بيروت.

والتوقير بسبب شرف الصحبة ونصرة الإسلام والجهاد في سبيل الله ما هو أهله، ومن علمنا منه خلاف ذلك لم تقبل روايته أمثال مروان بن الحكم والمغيرة بن شعبة والوليد بن عقبة وبسر بن أرطأة وبعض بني أمية وأعوانهم ومن جهلنا حاله في العدالة توقفنا في قبول روايته [1].

ويقول الشيخ السبحاني: ولا يخفى أن التوسع في مفهوم الصحابي على الوجه الذي عرفته في كلماتهم - أهل السنة - مما لا تساعده اللغة والعرف العام فلا تصدق على من ليس له حظ إلا الرؤية عن بعيد أو سماع الكلام أو المكالمة أو المحادثة فترة يسيرة أو الإقامة معه زمنا قليلا. وأظن أن في هذا التبسيط والتوسع غاية سياسية. فأرادوا بهذا التبسيط صرف النصوص الواردة عن ردة ثلة من الصحابة إلى الأعراب وأهل البوادي الذين لم يكن لهم حظ من الصحبة إلا اللقاء القصير بينما هذه النصوص راجعة إلى الذين كانوا مع النبي ليلا ونهارا، صباحا ومساءا [2].

ويقول الموسوي: إن هؤلاء الصحابة قد أعطوا من الحصانة ما لا يجوز معه أن يذكروا إلا بالتقدير والتعظيم والمدح والثناء. ولا يجوز أن يقترب أحد من ساحتهم بأية علامة استفهام أو سؤال عن تصرف يشعر منه أنه يحط من كرامة أحدهم أو يمس عدالته. هؤلاء الصحابة قد أعطاهم إخواننا السنة ميزة زائدة على جميع المسلمين. إنها ميزة العدالة المطلقة لكل من اتصف أنه صحابي مهما عمل من الموبقات وارتكب من الجرائم والمخازي. إن الصحبة قد هدمت كل شائنة وغفرت كل جرم فلا يجوز في المنطق أن تقول لماذا؟ لمن اتصف بالصحبة أو لمن حمل اسم الصحبة إنها اسم لانسان مبرأ من جميع الذنوب معدل بصبغة اللحظة التي اكتسبها أو الحديث الذي سمعه من النبي صلى الله عليه وآله. ثم إنه بعد إعطائهم هذه العدالة ترتبت أمور وأعطيت لهم امتيازات لم تعط لأحد من الناس.

---

[1] أعيان الشيعة، ج ١ ق ٢.

[2] مفاهيم القرآن، ج ٥.

فقد ترتب على القول بعدالتهم أمور منها:

١ - عدم جواز البحث عن حالهم فإذا وصلت الرواية إلى أحدهم انكسر القلم وخرس المنطق فلا يجري عليهم قانون الجرح والتعديل.

٢ - حمل كل ما صدر عنهم من هفوات وعثرات ومذلات ومخالفات على الاجتهاد، فإنه أحسن لجميع المصائب والويلات.

٣ - من يجرح أحدهم فهو خارج عن الدين زنديق يريد أن يجرح الشهود ليبطل الكتاب والسنة لأنهم هم الذين حملوها إلينا [١].

وليس فقط موقف الشيعة المتشدد هذا تجاه الصحابة هو الذي يستفز أهل السنة ويدفعهم إلى الهجوم عليها والطعن فيها، بل إن مما يستفز أهل السنة أكثر الخلفاء الثلاثة أبي بكر وعمر وعثمان ولا تستثنيهم من موقفها بل تركز موقفها عليهم. فالخلفاء الثلاثة في نظر الشيعة يحملون القدر الأكبر من الانحراف الذي حدث بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله. وهم إن كانوا يعدلون بعض الصحابة فقد استثنوا الخلفاء من هذا التعديل بل قدموا هؤلاء الصحابة عليهم. فعمار وأبو ذر وسلمان وحذيفة والمقداد وجابر بن عبد الله وبلال وغيرهم مقدمون على أبي بكر وعمر وعثمان. كما يعتقدون أن محاولة رفع الخلفاء الثلاثة وتقديسهم إنما هي من صنع السياسة بهدف ضرب الإمام علي وخط أهل البيت عليهم السلام [٢].

ونفس الموقف على أمهات المؤمنين، فالشيعة لا تعدل عائشة ولا حفصة وتقدم عليهما السيدة خديجة وأم سلمة. وتعتقد أن رفع عائشة وتقديسها إنما هو غرض سياسي الهدف منه تحجيم دور السيدة خديجة في حركة الدعوة وتقليص حجم السيدة فاطمة عليها السلام ومكانتها الشرعية [٣].

---

[١] شبهات حول الشيعة.

[٢] أنظر معالم المدرستين ج ١، للسيد مرتضى العسكري، وانظر لنا السيف والسياسة، وانظر الفصل القادم.

[٣] أنظر المراجع السابق ذكرها.

وإذا كان أهل السنة يعتبرون أن الطعن في الصحابة طعن في الكتاب والسنة وهم بهذا يشككون في عقائد الشيعة التي لا تعترف بفكرة العدالة. فإن هذه الحجة باطلة عند الشيعة حيث أنهم يعتبرون أن مصدر تلقي الكتاب والسنة ينحصر في آل البيت وليس في الصحابة. ومقياس عدالة الصحابي وعدم عدالته إنما يتحدد بموقفه من آل البيت.

فإن والاهم كان عدلا. وإن عاداهم كان مذموما متروكا.

ومن المعروف أن معظم الصحابة وفي مقدمتهم الخلفاء الثلاثة قد حادوا عن نهج أهل البيت وانحازوا للقبلية والعصبية والهوى بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله. فمن ثم فإن الشيعة لا تقر بعدالة هذه الكثرة وترفض أتباعها والنقل عنها. وتقر بعدالة القلة القليلة منهم التي والت آل البيت وسارت على نهجهم [1].

إن مفهوم العدالة بصورته المطلقة إنما يتحقق في آل البيت وحدهم لكونهم مصدر التلقي ولا يجوز أن ينطبق بحال على أناس محل شك وسيرتهم وممارساتهم ومواقفهم تدفع إلى عدم الثقة فيهم.

وعندما نجزم بأن مصدر تلقي الكتاب والسنة ينحصر في دائرة الصحابة - كما يقول أهل السنة وهم على ما نعرف من الخلاف والتجاوز والإقتتال. فإن هذا التصور سوف يقودنا بالتالي إلى الشك فيما نتلقاه منهم.

وما دمنا نؤمن بعصمة الكتاب فإن الإيمان يجب أن يقودنا إلى عصمة مصدر التلقي. فهذه هي النتيجة الطبيعية لهذا الإيمان. وهي نتيجة تقودنا إلى الثقة في هذا المصدر.

وهذا الأمر يتبين لنا بوضوح عندما نلقي نظرة على جانب أهل السنة وما تلقوه من الصحابة. فقد تلقوا كتابا محرفا في معانيه وأحاديث مخترعة ومنسوبة للرسول. ولقد سارت الأمة طوال القرون السابقة على ما تلقته من الصحابة مما

---

[1] أنظر الحديث عند الشيعة وانظر الفصل القادم.

هو واضح فيه غلبة أقوال الرجال على النصوص، وتدخل السياسة والحكام في صياغة شكل الإسلام.

والخلاصة أن السنة مجبورون على تبني قضية العدالة وإلا نقضوا الكتاب والسنة، بينما الشيعة ينقضون فكرة العدالة لاعتقادهم أن آل البيت هم مصدر تلقي الكتاب والسنة.

فإما عدالة الصحابة وإما عدالة آل البيت.

ولا يمكن لأي من الخطين أن يسود إلا على حساب الآخر. وهو ما حدث. فقد ساد خط الصحابة من بعد وفاة الرسول وباد خط آل البيت.

ومنذ ذلك الحين ظهرت صورة مختلفة عن صورة الإسلام الذي يحمله آل البيت والذي لم تتح له فرصة البروز والسيادة.



آل البيت عند أهل السنة

يقف علماء أهل السنة في حيرة أمام النصوص الواردة في آل البيت. وحيرتهم هذه إنما يعود سببها إلى ما يلي:

- كثرة هذه النصوص وتواترها وصراحتها.
- ضغوط السياسة والحكام.
- التزامهم بعدالة الصحابة.

إن التزام أهل السنة بطاعة الحكام وعدم الخروج عليهم مع تبنيهم قضية عدالة الصحابة والتزامهم باالإجماع على ذلك يفرض عليهم الوقوف موقفا سلبيا في مواجهة النصوص الواردة في آل البيت على كثرتها أو بمعنى آخر يفرض عليهم تأويل هذه النصوص بما لا يصطدم بقضية عدالة الصحابة ويثير الناس على الحكام.

إذ أن أئمة آل البيت هم الأئمة الحقيقيون للمسلمين كما أنهم أيضا هم العدول الحقيقيون الواجب اتباعهم في أمر الدين والسياسة.

من هنا يتبين لنا مدى حساسية مسألة آل البيت عند أهل السنة فهم يرفضون المساس برؤيتهم تجاه هذه المسألة كما يرفضون المساس بمسألة الصحابة.

فكلتا المسألتين مبنية على الأخرى ومرتبطة بها فإن تنازل أهل السنة عن رؤيتهم تجاه أهل البيت فسوف يتبع هذا الموقف تنازل عن عدالة جميع الصحابة وبالتالي سقوط مذهبهم مما يهدد القوى الحاكمة التي تتحصن بهذا المذهب.

فما هي رؤية أهل السنة في آل البيت؟

يقول القرطبي: اختلف أهل العلم في أهل البيت. من هم؟

فقال عطاء وعكرمة وابن عباس: هم زوجاته خاصة. لا رجل معهن.

وذهبوا إلى أن البيت أريد به مساكن النبي صلى الله عليه وآله لقوله تعالى: ﴿**واذكرن ما يتلى في بيوتكن**﴾.

وقال الثعلبي: هم بنو هاشم. فهذا يدل على أن البيت يراد به بيت النسب فيكون العباس وأعمامه وبنو أعمامه منهم.

وقال الزجاج: يراد به نساء النبي صلى الله عليه وسلم. وقيل: يراد به نساؤه وأهله الذين هم أهل بيته [1].

ويقول شارح العقيدة الواسطية: أهل بيته صلى الله عليه وسلم من تحرم عليهم الصدقة وهم آل علي وآل جعفر وآل عقيل وآل العباس وكلهم من بني هاشم ويلحق بهم بنو عبد المطلب.

وقوله هذا إنما يؤكد قول الآخرين الذين ذهبوا إلى أن أهل البيت قريش كلهم.

ويقول القرطبي: إن الآية ﴿**إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت**﴾ عامة في جميع أهل البيت من الأزواج وغيرهم [2].

ويتجه معظم أهل السنة إلى تفسير أهل البيت المشار إليهم في قوله تعالى: ﴿**إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا**﴾ على أنهم أزواج النبي، وذلك ما يدل عليه سياق الكلام [3].

وهناك اتجاه في أهل السنة يفسر أهل البيت على أنهم علي وفاطمة والحسن والحسين خاصة، ويحتج هذا الاتجاه بأن الآية المذكورة ذكرت الميم في قوله (ويطهركم) ولو كان للنساء لكان (عنكن ويطهركن) وهو اتجاه فرقة منهم الكلبي [4].

يقول القرطبي: ولا اعتبار بقول الكلبي وأشباهه فإنه توجد له أشياء في هذا التفسير ما لو كان في زمن السلف الصالح لمنعوه من ذلك وحجروا عليه[5].

---

[1] الجامع لأحكام القرآن، ج ١٤ / تفسير سورة الأحزاب.

[2] المرجع السابق.

[3] المرجع السابق.

[4] المرجع السابق.

[5] المرجع السابق.

واستدل أهل السنة على أزواج الأنبياء من أهل البيت بقوله تعالى:

﴿**ورحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد**﴾ هود / ٧٣.

واعتبروا عائشة وغيرها من جملة أهل بيت النبي ﷺ ممن قال الله فيهم:

﴿**ويطهركم وتطهيرا**﴾[١] .

وأخرج مسلم وأحمد عن زيد بن الأرقم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ألا وإني تارك فيكم ثقلين أحدهما: كتاب الله عز وجل، وهو حبل الله الذي من اتبعه كان على الهدى ومن تركه كان على الضلالة وعترتي أهل بيتي).

فقلنا: من أهل بيته نساؤه؟

قال وأيم الله إن المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر فيطلقها فترجع إلى أبيها وقومها. أهل بيته أصله وعصبته الذين حرموا الصدقة بعده.

ومثل هذا الاتجاه الذي يفسر آل البيت بأنهم علي وفاطمة والحسن والحسين من أهل السنة إنما اتجاه منبوذ تم ضربه كما ضرب الرأي الآخر في مسألة الصحابة وفي مسألة طاعة الحكام[٢] .

ويقف أهل السنة من الأحاديث الواردة في آل البيت موقف التأويل الذي يدفع المعنى المراد من هذه الأحاديث بحيث يتفق مع وجهتهم في آل البيت وبحيث يتفق مع تفسيرهم لآية التطهير. ويعتبرون ما ذكرته هذه الأحاديث مجرد فضائل الهدف منها دفع المسلمين لتوقير آل البيت واحترامهم وحبهم كما يوقر ويحترم الصحابة ولا تعطي هذه الأحاديث لأهل البيت أية ميزة تميزهم عن الآخرين بل من الممكن أن يكون الصحابة أفضل منهم على ما هو واضح في كتب العقائد من ترتيب الأفضلية بين الخلفاء، وجعل الإمام علي في المرتبة الرابعة بعد أبي بكر وعمر وعثمان. حتى إنهم ساووه بمعاوية، كما رفعوا عائشة فوق فاطمة .

---

[١] المرجع السابق، ج ٩ تفسير سورة هود.

[٢] لا تجد لهذه الآراء في الكتب المنتشرة في واقع السلف والخلف. ومثل هذه الآراء توجد في الكتب غير المشهورة والتي لم تسلط عليها الأضواء.

من هنا وضع أهل السنة آل البيت في المرتبة الثانية بعد الصحابة واعتبروا أن أي ميل لآل البيت وتقديمهم على الصحابة يعتبر بدعة وانحرافا عن العقيدة الصحيحة، عقيدة السلف كما حدث الشافعي [١] .

وتبدو قضية تأويل النصوص النبوية الواردة في آل البيت عند أهل السنة ومحاولتهم تطويع النص لأغراض سياسية تبدو بوضوح في مواجهة قول الرسول ﷺ: (إن هذا الأمر لا ينقضي حتى يمضي فيهم اثنا عشر خليفة)[٢] .

وقوله: " لا يزال أمر الناس ماضيا ما وليهم اثنا عشر رجلا " [٣] .

وقوله: " لا يزال الإسلام عزيزا إلى اثني عشر خليفة " [٤] .

وقوله: " لا يزال الدين قائما حتى تقوم الساعة أو يكون عليكم اثنا عشر خليفة " [٥] .

وقوله: " لا يزال هذا الدين عزيزا منيعا إلى اثني عشر خليفة " [٦] .

ينقل ابن حجر عن المهلب قوله لم ألق أحدا يقطع في هذا الحديث – يعني بشئ معين – فقوم قالوا يكونون بتوالي إمارتهم. وقوم قالوا يكونون في زمن واحد كلهم يدعي الإمارة قال والذي على الظن أنه صلى الله عليه وسلم أخبر بأعاجيب تكون بعده من الفتن حتى يفترق الناس في وقت واحد على اثني عشر أميرا.

قال ولو أراد غير هذا لقال يكون اثنا عشر أميرا يفعلون كذا. فلما أعراهم من الخبر عرفنا أنه أراد أنهم يكونون في زمن واحد. ويعلق ابن حجر على

---

[١] اتهم الشافعي بالميل إلى الشيعة ووصموه بالرفض لكونه أظهر ميلا لآل البيت، وقد كتب قصيدة طويلة في مدح آل البيت. أنظر ديوان الشافعي..

[٢] مسلم كتاب الإمارة.

[٣] مسلم كتاب الإمارة.

[٤] مسلم كتاب الإمارة.

[٥] مسلم كتاب الإمارة.

[٦] مسلم كتاب الإمارة.

الجملة الأخيرة من كلام المهلب قائلا: وهو كلام من لم يقف على شئ من طرق الحديث غير الرواية التي وقعت في البخاري هكذا مختصرة (يكون اثنا عشر أميرا). وقد عرفت من الروايات التي ذكرتها من عند مسلم وغيره أنه ذكر الصفة التي تختص بولايتهم وهي كون الإسلام عزيزا منيعا. ويقول القاضي عياض: توجه على هذا العدد سؤالان أحدهما أنه يعارضه ظاهر قول الرسول صلى الله عليه وسلم: الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثم يكون ملكا. لأن الثلاثين سنة لم يكن فيها إلا الخلفاء الأربعة وأيام الحسن بن علي عليه السلام. والثاني أنه ولي الخلافة أكثر من هذا العدد. والجواب عن الأول أنه أراد في حديث الخلافة بعدي خلافة النبوة. ولم يقيد في حديث الاثني عشر بذلك. وعن الثاني أنه لم يقل لا يلي إلا اثنا عشر وإنما قال يكون اثنا عشر وقد ولي هذا العدد ولا يمنع ذلك الزيادة عليهم. وهذا إن جعل اللفظ واقعا على كل من ولي وإلا فيحتمل أن يكون المراد من يستحق الخلافة من أئمة العدل وقد مضى منهم الخلفاء الأربعة ولا بد من تمام العدة قبل قيام الساعة.

وينقل ابن حجر: وقد قيل إنهم يكونون في زمن واحد يفترق الناس عليهم. ويحتمل أن يكون المراد أن يكون الاثنا عشر في مدة عزة الخلافة وقوة الإسلام واستقامة أموره والاجتماع على من يقوم بالخلافة [1].

ويقول ابن الجوزي في كشف المشكل قد أطلت البحث عن معنى هذا الحديث وتطلبت مظانه وسألت عنه فلم أقع على المقصود به لأن ألفاظه مختلفة ولا أشك أن التخليط فيها من الرواة. فأما الوجه الأول فإنه أشار - أي الرسول - إلى ما يكون بعده وبعد أصحابه وأن حكم أصحابه مرتبط بحكمه فأخبر عن الولايات الواقعة بعدهم. فكأنه أشار بذلك إلى عدد الخلفاء من بني أمية وأول بني أمية يزيد بن معاوية وآخرهم مروان الحمار وعدتهم ثلاثة عشر. ولا يعد عثمان ومعاوية ولا ابن الزبير لكونهم صحابة. فإذا أسقطنا منهم مروان بن

[1] فتح الباري، ج ١٣، كتاب الأحكام.

الحكم للاختلاف في صحبته. أو لأنه كان متغلبا بعد أن اجتمع الناس على عبد الله بن الزبير صحت العدة [١] .

وينقل ابن حجر أنه يحتمل أن يكون الاثنا عشر بعد المهدي الذي يخرج في آخر الزمان أو يكون المراد وجود اثني عشر خليفة في جميع مدة الإسلام إلى يوم القيامة يعملون بالحق وإن لم تتوال أيامهم [٢] .

ويقول ابن حجر إن المراد بالاجتماع انقيادهم لبيعة الخليفة. والذي وقع أن الناس اجتمعوا على أبي بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي إلى أن وقع أمر الحكمين في صفين فسمي معاوية يومئذ بالخلافة. ثم اجتمع الناس على معاوية عند صلح الحسن. ثم اجتمعوا على ولده يزيد ولم ينتظم للحسين أمر بل قتل قبل ذلك. ثم لما مات يزيد وقع الاختلاف إلى أن اجتمعوا على عبد الملك بن مروان بعد قتل الزبير. ثم اجتمعوا على أولاده الأربعة الوليد ثم سليمان ثم يزيد ثم هشام وتخلل بين سليمان ويزيد عمر بن عبد العزيز فهؤلاء سبعة بعد الخلفاء الراشدين. والثاني عشر هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك اجتمع عليه الناس لما مات عمه هشام فولي نحو أربع سنين، ثم قاموا عليه فقتلوه وانتشرت الفتن وتغيرت الأحوال من يومئذ ولم يتفق أن يجتمع الناس على خليفة بعد ذلك [٣]

يقول شارح الطحاوية: والاثنا عشر: الخلفاء الراشدون الأربعة ومعاوية وابنه يزيد وعبد الملك بن مروان وأولاده الأربعة وبينهم عمر بن عبد العزيز. ثم أخذ الأمر في الإنحلال [٤] .

ويقول السيوطي وعلى هذا فقد وجد من الاثني عشر خليفة الخلفاء الأربعة والحسن ومعاوية وابن الزبير وعمر بن عبد العزيز. هؤلاء ثمانية ويحتمل أن يضم إليهم المهتدي من العباسيين لأنه فيهم كعمر بن عبد العزيز في بني

---

[١] نقلا عن المرجع السابق.

[٢] المرجع السابق.

[٣] المرجع السابق.

[٤] شرح الطحاوية تحقيق أحمد شاكر ط. القاهرة ص ٤٢٠.

أمية. وكذلك لما أوتيه من العدل وبقي الاثنان المنتظران أحدهما المهدي لأنه من آل بيت محمد صلى الله عليه وآله [1] .

ويقول النووي وقيل إن معناه أنهم يكونون في عصر واحد يتبع كل واحد منهم طائفة. قال القاضي ولا يبعد أن يكون هذا قد وجد إذا تتبعت التواريخ فقد كان بالأندلس وحدها منهم في عصر واحد بعد أربعمائة وثلاثين سنة ثلاثة كلهم يدعيها ويلقب بها وكان حينئذ في مصر آخر وكان خليفة الجماعة العباسية ببغداد سوى من كان يدعي ذلك في ذلك الوقت في أقطار الأرض[2] .

ونخرج من تفسيرات أهل السنة لحديث الأئمة الاثنا عشر بالنتائج التالية:

أولا: إن هناك اختلافا وتخبطا واضحا في تحديد الأئمة والخلفاء المقصودين من الحديث.

ثانيا إن فقهاء أهل السنة حصروا تفسير الحديث في حدود بني أمية.

ثالثا: إن بصمة السياسة واضحة في تفسيرات النص.

رابعا: إن هذه التفسيرات قد أغفلت ذكر المهدي.

خامسا: تبدو الحيرة الواضحة في تفسير السيوطي الذي ذكر أحد عشر خليفة وليذكر الثاني عشر.

سادسا: أن تحديد الخليفة المقصود تم على أساس اجتماع الناس عليه وليس على أساس اختيار المسلمين الحر له فالناس اجتمعت على معاوية ويزيد وبني أمية بالسيف وليس بالشورى وحتى الذين سبقوهم من الخلفاء لم يجتمع الناس عليهم بالشورى مما يشير إلى أن النص أخضع للسياسة ولعقيدة أهل السنة التي تقر بالسمع والطاعة للمتغلب على السلطة بالسيف فهم دائما مع الغالب وإن كان فاسدا وغلبته تعني إجتماع الناس عليه وهذا تفسير يبدو فيه الاضطراب والتخبط إذ أن حكام العصر العباسي تنطبق عليهم نفس الحالة ومع ذلك أغفلوا ذكرهم

---

[1] تاريخ الخلفاء للسيوطي / المقدمة.

[2] مسلم شرح النووي / كتاب الإمارة.

من هنا رفض صاحب العقيدة الطحاوية إثارة أية شكوك حول هذه التفسيرات بقوله وعند الرافضة أن أمر الأمة لم يزل في أيام هؤلاء فاسدا يتولى عليهم الظالمون والمعتدون بل المنافقون والكافرون وأهل الحق أذل من اليهود وقولهم ظاهر البطلان بل لم يزل الإسلام عزيزا في ازدياد في أيام هؤلاء [1] .

ويرفض أهل السنة رفضا قاطعا تحويل نص الأئمة الاثني عشر ناحية آل البيت، بل جميع رواياتهم حول هذا النص جاءت بلفظ خليفة وليست بلفظ إمام، وهذا الرفض إنما هو نابع من الأساس من موقفهم العقائدي من آل البيت، إلا أنهم على كل حال لم يعطونا جوابا يريح عقولنا حول مراد النص [2].

إن المتتبع لسيرة الخلفاء من أبي بكر وحتى آخر خلفاء بني أمية الذين قصدهم أهل السنة بتفسير النص لا يجد من سيرتهم ما يتفق مع ظاهر النص ويكفي في ذلك سيرة بني أمية ومواقفهم وممارساتهم التي تصطدم بقواعد الإسلام وأصوله [3] .

فهل يعقل إن يبشر الرسول بأناس يفسدون في الأرض باسم الإسلام ثم يربط عزة الإسلام بهم؟

هل يمكن أن يبشر الرسول بمعاوية ويزيد وأولاد عبد الملك.

إن العقل يقول إن المقصود بالاثني عشر فئة أخرى تتميز بالطهارة والنقاء، وأن دورها ليس مجرد الحكم في ذاته وإنما التعبير الحقيقي عن الإسلام.

---

[1] شرح الطحاوية.

[2] هناك شكوك حول استعمال لفظ " خليفة " على لسان الرسول صلى الله عليه وآله. والراجح أن هذا اللفظ اخترع بعد عصر الرسول ليحل محل لفظ " إمام ". والهدف من ذلك هو صرف أنظار المسلمين عن مراد النصوص الخاصة بأئمة آل البيت والتي تم ربطها بالحكام.

[3] أنظر تاريخ الخلفاء وكتب التاريخ. ولا يقتصر الأمر هنا على سيرة خلفاء الرسول وبني أمية بالطبع إنما يشتمل أيضا سيرة بني العباس وبني أيوب والمماليك والعثمانيين وملوك الأندلس وغيرهم ممن تسلط على المسلمين. فجميع هؤلاء سيرتهم واحدة وخطهم واحد وهو تطويع الإسلام لأنظمتهم ومحاربة خط آل البيت والبطش بشيعته. مستمدين الدعم الشرعي من فقهاء أهل السنة وشيوخ الإسلام الذين ينعمون عليهم بالمناصب ليباركوهم ويبرروا مواقفهم وممارساتهم ويدعوا المسلمين إلى السمع والطاعة لهم .

آل البيت عند الشيعة

إن آل البيت في تعريف الشيعة هم فئة محدودة من نسل الرسول ﷺ خصتهم الروايات الواردة على لسانه وقصدهم النص القرآني (آية التطهير) وهم علي وفاطمة والحسن والحسين ثم تسعة آخرون من نسل الحسين.

وهذه الفئة هي المقصودة بالعصمة لارتباطها بدورها ورسالتها بعد الرسول وليس كل من ينتسب لآل البيت يعتبر معصوما كما قد يتصور بعض السطحيين ممن ليس لهم دراية بالرؤية الشرعية لآل البيت..

وهذه الرؤية ليست من اختلاق الشيعة إنما تفرضها النصوص الواردة في آل البيت، وفي نصوص أكثر من أن تحصى موهت عليها السياسة وصرفتها عن المدلول الحقيقي الذي ترمي إليه وقد عرضنا لجزء من هذه النصوص في باب الإمامة.

إن المسألة عند الشيعة هي مسألة نصوص وليست مسألة رجال فالنصوص هي التي تعطي الخاصية للإمام علي.

والنصوص هي التي توجب التلقي والاتباع لآل البيت..

وأمام النصوص ليس هناك مجال للاختيار فإما الاتباع وإما الانحراف.

من هنا فإن الشيعة عندما يتخذون ذلك الموقف المتشدد من الصحابة ومن خصوم آل البيت عموما، إنما يتخذون هذا الموقف على أساس النصوص.

على أساس أن خصوم آل البيت انحرفوا عن النصوص وليس عن الرجال.

ومسألة تقديس آل البيت من قبل الشيعة وحتى عموم المسلمين إنما هي نابعة من النصوص التي جعلت لهم خصوصية وميزة ترفعهم فوق جميع الناس تلك الخصوصية التي دفعت بجماهير السنة إلى تخطي حواجز السياسة وقيود الخلفاء والاتجاه بعواطفها ومشاعرها نحوهم. فعلى الرغم من محاولات

التأويل والتحريف للنصوص الواردة فيهم غزت حقيقتهم القلوب وشع نورهم بين الدروب وبرزت مكانتهم ساطعة كالشمس لتتلاشى أمامها كل خيوط الظلام[1]

من هنا فإن ملامح آل البيت عند الشيعة تتحدد لنا من خلال ما يلي:

إنهم معصومون.

إنهم لا يقاس بهم أحد.

إنهم اثنا عشر إماما.

فبخصوص العصمة فهي أداة لازمة للقيام بمهمتهم بعد الرسول كما بينا سابقا.

إما كونهم لا يقاس بهم أحد فذلك لما لهم من مكانة تجعل الناس يقاسون بهم ولا يقاسون هم بأحد. ويقتدي الناس بهم ولا يقتدون بأحد. ويتعلم الناس منهم ولا يتعلمون من أحد[2] .

أما كونهم اثني عشر فهذا ما حددته النصوص الواردة عند الطرفين. وإن كان أهل السنة يطبقون هذه النصوص على الحكام ولم يقض ذلك على حيرتهم في تحديد الاثني عشر كما بينا فإن الشيعة يطبقون هذه النصوص على أئمة آل البيت المحددين بالاسم والمشهورين في الأمة محل رضا وقبول وعشق الجميع.

فمن ثم لا أثر للحيرة عندهم في هذا الأمر خاصة أن هناك الكثير من النصوص الواردة على لسان النبي ﷺ لدى السنة ولديهم تحدد أسماء هؤلاء الأئمة.

---

[1] حاول معاوية وأولاده من بعده تشويه آل البيت وطمس هويتهم والقضاء على وجودهم وفرض سب الإمام علي على المنابر حتى جاء عمر بن عبد العزيز فرفع السب ووضع مكانه قوله تعالى: (إن الله يأمر بالعدل والاحسان) ثم استمرت هذه السياسة بعد مصرع عمر حتى زالت دولة بني أمية ومجئ بني العباس الذين انتهجوا في مواجهة آل البيت نهجا أشد عدواة وشراسة. وعلى الرغم من ذلك بقيت مكانة آل البيت في قلوب الجماهير وظهرت الطرق الصوفية لتعبر عن هذا الحب الجارف لآل البيت الذي يعكس قداستهم ومكانتهم.

[2] أنظر ينابيع المودة للقندوزي. ونور الأبصار للشبلنجي. والصواعق المحرقة لابن حجر الهيتمي. وقد ورد هذا اللفظ على لساني ابن عمر وابن حنبل.

وأول هؤلاء الأئمة هو الإمام علي باعتباره وصي الرسول وحامل لواء الإسلام من بعده. وهو الوحيد من بين صحابة الرسول الذي حمل لقب إمام.

ولم نسمع أنه قيل الإمام أبو بكر أو الإمام عمر وأنما قيل الإمام علي وعلى لسان أهل السنة قبل أن يكون على لسان الشيعة [1] .

وثاني هؤلاء الأئمة هو الحسن بن علي [2] .

وثالث الأئمة هو الحسين بن علي [3] .

ورابع الأئمة هو علي بن الحسين المشهور بزين العابدين والإمام السجاد [4].

وخامسهم هو محمد بن علي الباقر [5] .

وسادسهم هو جعفر بن محمد الصادق [6] .

---

[1] أنظر علي والوصية لنجم الدين العسكري ط. بيروت. ومناقب الإمام علي لابن المغازلي. وخصائص الإمام علي للنسائي. ونهج البلاغة. وعلي سيد العرب والعجم. ونهج الحق وكشف الصدق. وانظر لنا موسوعة آل البيت. ومكانة الإمام علي ومقامه لا يحتاج إلى كلام.

[2] التفت الأمة حول الإمام بعد مصرع الإمام علي. ثم قرر الصلح مع معاوية حقنا لدماء المسلمين على شرط أن يعود الأمر إليه بعد وفاة معاوية. لكن معاوية أخل بالاتفاق وغدر بالحسن وسلط عليه من دس له السم في الطعام ثم أعلن ولده يزيد وليا للعهد.

[3] تصدى الإمام الحسين ليزيد وأعلن الخروج عليه وعبأ الأمة للجهاد من أجل القضاء على بني أمية وتحرير المسلمين من أغلالهم. إلا أنه سقط شهيدا في كربلاء عام ٦١ هـ بعد أن تخلت الأمة عنه ليسطر بدمائه الطاهرة أروع ملحمة جهادية في التاريخ.

[4] الإمام زين العابدين من بين الذين أنجاهم الله من مذبحة كربلاء وكان صغيرا. ولقب بالسجاد لكثرة سجوده. وهو صاحب الأدعية الشهيرة التي كانت سلاحه في مواجهة إرهاب بني أمية والتي طبعت فيما بعد تحت اسم الصحيفة السجادية. توفي في المدينة.

[5] سمي الباقر لأنه تبقر في العلم أي توسع فيه وبلغ علمه الآفاق وتلقى منه آلاف الفقهاء والمريدين.

وكان كثير الصدقات. وعاصره كثير من الصحابة والتابعين وتلقوا عنه ورووا على لسانه آلاف الأحاديث. وأنشدت فيه الأشعار، توفي في المدينة.

[6] كان الإمام الصادق معاصرا للمنصور العباسي وقد تمكن من استثمار فترة الانفتاح في بداية العصر العباسي وأعلن دعوة آل البيت ولقن علومهم للمسلمين فكثر أتباع آل البيت.

وسابعهم هو موسى بن جعفر الكاظم [1] .

وثامنهم هو علي بن موسى الرضا [2] .

وتاسعهم هو محمد بن علي الجواد [3] .

وعاشرهم هو علي بن محمد الهادي [4] .

والحادي عشر هو الحسن بن علي العسكري [5] .

والثاني عشر هو محمد بن الحسن المهدي [6] .

ويتصور البعض أن الشيعة برزت مع الصادق لذا سميت بالشيعة الجعفرية. والحق أن الشيعة موجودة قبله، وكذلك علوم آل البيت وأئمتهم. وكل ما في الأمر أن الصادق هو أول إمام برز بالتشيع على ساحة الواقع. انظر جعفر الصادق للشيخ أبو زهرة وعبد الحليم الجندي.

[1] والإمام موسى الكاظم كان معاصرا لهارون الرشيد ومات في الحبس.

[2] الإمام الرضا كان معاصرا للمأمون الذي جعله وليا لعهده كسبا لشعبيته ومكانته في نفوس المسلمين. ثم انقلب عليه ونقم منه. توفي بخراسان.

[3] الإمام الجواد ورث عن أبيه العلم والرأفة والرحمة وكان من الموصوفين بالسخاء ولذلك لقب بالجواد. توفي ببغداد.

[4] والإمام الهادي كان فقيها متعبدا ورث العلم والسخاء عن والده. نقله المتوكل العباسي من المدينة إلى " سر من رأى " بالعراق وكانت تسمى بالعسكر وأسكنه فيها فعرف بالعسكري وذلك خوفا من نفوذه وتأثيره على أهل المدينة.

[5] والإمام الحسن العسكري كان على سيرة والده وأجداده (ذرية بعضها من بعض) وهو والد الإمام المهدي وتوفي بسر من رأى (سامراء).

[6] الإمام محمد بن الحسن هو الإمام المنتظر الغائب الحاضر. الذي اختفى من وجه الطغيان في انتظار ميقات ربه لينطلق رافعا لواء الحرية والعدل والرخاء لتنعم البشرية في ظل الإسلام بالأمن والسلام بعد ذهاب الطواغيت إلى غير رجعة.

ويمكن تتبع سيرة الأئمة الاثني عشر في كثير من المراجع منها: سيرة الأئمة الاثني عشر لهاشم معروف الحسني. والأئمة الاثنا عشر دراسة تحليلية لعادل الأديب.

وإرشادات الحيدري. والأنوار البهية للقمي. وقادتنا كيف نعرفهم. وحركة آل البيت وأعيان الشيعة.

وبدراسة سيرة الأئمة الاثني عشر يتبين لنا مدى الفارق والبون الشاسع بينهم وبين أولئك الحكام الذين أحلهم أهل السنة مكانهم.

أئمة أهل البيت يمثلون الطهارة والنقاء والرحمة والعدل.

والحكام يمثلون التجبر والقهر والظلم.

ولقد كان لهؤلاء الأئمة وجودهم الفاعل في مجتمعاتهم، وكانت تهفو إليهم قلوب الجماهير المسلمة في كل مكان مما أقلق حكام زمانهم فأخذوا يحيكون المؤامرات للتخلص منهم عن طريق القتل بصورة لا تثير الناس وهي القتل بالسم.

ولم يكن هؤلاء الأئمة الذين هم أبناء الرسول محل خلاف أحد من المسلمين حتى فقهاء أهل السنة كانوا يكنون لهم كل تقدير واحترام وإجلال وقد تتلمذ أبو حنيفة على الإمام الصادق مدة عامين وله قولة مشهورة لولا السنتان لهلك النعمان كما تتلمذ على يديه مالك والشافعي وكثير من فقهاء السنة.

وقد روى الصادق آلاف الأحاديث عن جده صلى الله عليه وآله ولم ينقل منها في كتب أهل السنة إلا القليل [1].

أئمة أهل البيت يمثلون الإسلام بصورته النقية الصافية.

والحكام يمثلون مصالحهم ويتسترون بإسلام زائف مشوش.

أئمة أهل البيت أبناء الرسول تخرجوا في مدرسة النبوة

والحكام أبناء الطغاة والسفاحين تخرجوا في مدرسة الشيطان.

فأي هؤلاء أحق أن يتبع؟

وأي هؤلاء قصدهم الرسول صلى الله عليه وآله

[1] لم يرو لجعفر الصادق وكذلك مسلم رغم كونهما من المعاصرين لأئمة آل البيت. انظر التعب الجميل على أهل الجرح والتعديل ط. القاهرة انظر ميزان الاعتدال للذهبي وتهذيب التهذيب لابن حجر. وتذكرة الحفاظ للذهبي..

خاتمة / منهج التوحيد

هل قضية الوحدة الإسلامية بين السنة والشيعة لا تزال مطروحة؟

وهل دعمت الثورة الإسلامية في إيران قضية الوحدة أم تسببت في ضعفها؟

إن تتبع تاريخ دعوة الوحدة الإسلامية يكشف لنا أن السياسة تسببت في تعويق هذه الدعوة بل وفي قتلها كما يكشف لنا إن ظهور المد الوهابي ورسوخه بين التيارات الإسلامية المعاصرة قد أسهم إلى حد كبير في ضرب هذه الدعوة وإجهاضها .

والحديث عن دور السياسة في واقع دعوة التوحيد يأخذنا بلا شك إلى الحديث عن الدور الوهابي.

فقد ارتبطت السياسة بالوهابية. وارتبطت الوهابية بالسياسة.

وحين برزت دعوة التوحيد في فترة الاربعينيات بمصر نصرها رجال الأزهر وكثير من المفكرين والهيئات الإسلامية وعلى رأسها جماعة الإخوان المسلمين.

واستمرت دعوة التوحيد تسير بخطى آمنة مطمئنة طوال فترة الخمسينيات وفترة الستينيات إلى أن جاءت فترة السبعينيات ودخلت التيارات الإسلامية الحقبة النفطية وسقطت في قبضة الأخطبوط الوهابي السعودي.

عند ذلك بدأت حملات الهجوم والتشكيك تشن على دار التقريب في مصر والتي كانت تضم الكثير من الرموز الإسلامية البارزة في تلك الفترة على رأسها الشيخ محمد الغزالي والشيخ الباقوري والشيخ الشعراوي وكثير من رجال الأزهر[1] .

[1] أنظر لنا كتاب الحركة الإسلامية في مصر. وكتاب الشيعة في مصر وكتاب فقهاء النفط.

ولقد قادت حملة الهجوم في تلك الفترة مجلة الاعتصام، الأداة الاعلامية الرئيسية للخط السعودي الوهابي في مصر، ثم تبعتها مجلة التوحيد الناطقة بلسان جماعة أنصار السنة أضخم صرح وهابي في مصر.[1]

وقد قامت مجلة الاعتصام بتحريض مفتي مصر السابق محمد حسين مخلوف على الشيعة ودار التقريب، وكان أن قام المفتي بتوجيه رسالة شديدة اللهجة للشيخ الشعراوي وكان وزيرا للأوقاف وقتها يدعوه فيها إلى محاربة الشيعة والخروج على جماعة التقريب مشككا في دور الشيخ القمي الطرف الشيعي فيها، طاعنا في عقائد الشيعة مثيرا الشبهات حولها.

وكان مما جاء بهذه الرسالة: وبعد فقد هال الناس ما نشرته الصحف بما دار بينكم وبين داعية الشيعة الإمامية من الحديث والآراء. ومعلوم على ما أجمع عليه أهل السنة بشأن الإمامة. وأن ما ذهب إليه الشيعة الإمامية من الإمامة بعد الرسول صلى الله عليه وسلم لعلي بن أبي طالب ثم لمن يليه إلى الإمام الثاني عشر باطل في القول وزور. كما أنه معلوم لفضيلتكم ما قام به هذا الداعية من إنشاء (جماعة التقريب) وإنشاء مجلة لها بمصر وانطواء الشيخ شلتوت لها مع نفر من المنحرفين عن أهل السنة والجماعة، وما حرص عليه من وجوب تدريس مذهب الشيعة الإمامية بالأزهر أسوة بالمذاهب الأربعة، وما تبع ذلك من أقوال وأعمال. معلوم لفضيلتكم أن بلادنا مذ حماها الله من التشيع الضال وأقام أهلها على مذهب السنة والجماعة، ينصحون بكتاب الله وسنن الرسول وينقلون السنن عن الرواة الأمناء. لذا نقول إن الشيعة الإمامية مبطلة في مزاعمها بشأن الخلافة وفي حكمها بجواز نكاح المتعة مخالفة لما ثبت في السنن من بطلانه ونقول إنهم مسلمون ولكن مبطلون في مخالفة أهل ألسنة والجماعة. وإنما أريد إكرام الضيف لكن لا حساب أهل السنة والجماعة ولا على حساب نشر مذهب التشيع الإمامي وغير الإمامي في بلادنا التي برأها الله من الضلال والابتداع في الدين. ومن الخير لكم بل من الواجب عليكم

---

[1] أنظر المراجع السابقة..

بعد كل هذا أن تبين للناس رأيكم في التشيع عامة. والتشيع الإمامي خاصة، وأنكم لا زلتم نصير أهل السنة والجماعة قولا وعملا والله تعالى يوفقك.

وأخشى ما أخشاه أن يستغل الشيعة الإمامية موقفكم للدعوة إلى نحلتهم ويقولوا إن إماما من أئمة المسلمين قد انضم إلى مذهبهم، وهو الداعية المعروف الشيخ الشعراوي، أعاذك الله من ذلك [1]

ومن الواضح من لغة الرسالة أنها تنفيرية لا تقريبية. لغة تعكس منطق الاستعلاء والقيمومة على الآخرين الذي تعتمده فرقة أهل السنة قديما وحديثا في مواجهة المخالفين لها. لغة تفوح منها رائحة الخط الوهابي النفطي المعاصر.

ومثل هذه اللغة من شأنها أن تزيد الصف الإسلامي تصدعا وتقضي على أمل المسلمين في الوحدة والوقوف صفا واحدا في مواجهة أعداء الإسلام.

وما استمر أهل السنة في مخاطبة الآخرين بمنطق الفرقة الناجية فلن يكون هناك تقارب مع الشيعة وإن محاولات التقريب التي تبذل من قبل الشيعة سوف يكون مآلها الفشل وهذا ما يشهد به الواقع [2] .

إن المتأمل في جوهر الخلاف بين السنة والشيعة يجد أن هذا الخلاف يكمن في كم من الروايات اعتمدها الطرف السني وبنى على أساسها موقفه من الآخرين.

وعلى رأس هذه الروايات قول الرسول ﷺ: (ألا وإن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملة وإن هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين: ثنتان وسبعون في النار. وواحدة في الجنة وهي الجماعة)[3] . وفي رواية أخرى: (كلهم في النار إلا ملة واحدة ما أنا عليه وأصحابي) [4] .

[1] مجلة الاعتصام عدد ٩ مايو عام ٧٧ وانظر نص الرسالة في كتاب الشيعة في مصر..

[2] أنظر كتاب الشيعة في مصر..

[3] رواه الترمذي وابن ماجه..

[4] المراجع السابقة..

وقول الرسول ﷺ: (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق.

لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله) [1].

مثل هذه الروايات هي التي تدعم موقف القيمومة و الاستعلاء لدى أهل السنة الذين اعتبروا هذه الروايات اختصت بهم وتعنيهم بالاسم [2].

إن مثل هذه الروايات لا تفتح الباب للتسامح الفكري بل تفتح باب الشقاق الدائم بين أهل السنة والأطراف الأخرى.

إلا أن مثل هذا التصور يجب أن يعاد فيه النظر من قبل أهل السنة المعاصرين حيث أنهم قد تحولوا إلى جماعات متفرقة تكفر بعضها بعضا وتستحل بعضها بعضا. وقد كانوا في السابق جماعة واحدة نظرا لكونها مدعومة من قبل نظام حاكم واحد وهو النظام العباسي.

وبعد سقوط العباسيين تفرق أهل السنة لتفرق دويلات الإسلام وكثرة الحكام الذين كان لكل منهم فئة تناصره من أهل السنة. حتى جاء الأيوبيون فاستطاعوا أن يوحدوا أهل السنة إلى حد ما بفضل اتساع الرقعة التي كانوا يسيطرون عليها من بلاد المسلمين وتبعهم بعد ذلك المماليك.

ثم جاء العثمانيون ليعيدوا وحدة أهل السنة ويبتدعوا منصب شيخ الإسلام السني. ثم بعد سقوط العثمانيين تفرق أهل السنة مرة أخرى حتى جاء الوهابيون وحاولوا توحيدهم تحت راية أهل سعود إلا أنهم فشلوا لكونهم لا يمثلون سوى تيار واحد من تيارات أهل السنة وهو التيار الحنبلي وتيار ابن تيمية الذي تفرخ منه والذي تم نبذه ومحاربته من قبل الأطراف الأخرى داخل أهل السنة.

فإذا كان أهل السنة يعتبرون أنفسهم الفرقة الناجية والطائفة المنصورة فأين في الفرقة التي ينطبق عليها مفهوم النصر والنجاة من بين فرقهم؟

---

[1] البخاري ومسلم..

[2] أنظر لنا كتاب فقه الهزيمة فصل الفرقة الناجية. وكتاب الخدعة..

هل السلف هم الطائفة المنصورة والناجية؟ أم الخلف؟

أم أصحاب المذاهب الأربعة؟

أم اﻻالماتريدية؟

أم الوهابيون في الوقت الحاضر؟

وأي طائفة من طوائف الوهابيين؟

هل هي طائفة ابن باز وابن عثيمين والجزائري فقهاء آل سعود؟

أم الجماعات السلفية التي تناهضهم وتكفرهم؟

أم الجماعات الإسلامية الأخرى المستقلة عنهم؟

لقد كثرت رايات أهل السنة في هذا الزمان حتى أنهم عندما اجتمعوا لقتال عدو واحد وهو شيوعيو أفغانستان. ورفعوا أكثر من عشر راية في مواجهته. ثم في النهاية بعد دحر العدو أصبحوا يقاتلون بعضهم بعضا.

فأين هم أهل السنة في هذا الزمان الذين ندعوهم للوحدة مع الشيعة؟

لقد قامت علاقات وثيقة بين الأزهر ومن قبل جماعة الإخوان وبين جماعة التقريب في مصر. ثم بترت هذه العلاقات فجأة بعد قيام الثورة الإسلامية واندلاع الحرب العراقية الايرانية.

فلا جماعة الإخوان ولا الأزهر استطاعا أن يقاوما ضغط الحكومات والمد النفطي الوهابي.

فكلا من هذين التيارين له حساباته الخاصة التي يرتهن على أساسها وجوده ومستقبله. تلك الحسابات التي تصطدم بالوحدة الإسلامية [١] .

وليس هذا هو السبب المباشر في فشل التقارب بين الشيعة وبين هذين التيارين. إنما السبب المباشر يعود إلى كونهما لا يمثلان سوى كيانهما، فهما ليسا سوى قطاعين من قطاعات أهل السنة.

---

[١] أنظر لنا فقهاء النفط والحركة الإسلامية.

والشيعة إذا أرادت التقريب وتوحيد جهود المسلمين فيجب عليها أن تتقرب إلى كل قطاعات أهل السنة. فلن ينجح التقريب بالاعتماد على طائفة واحدة من طوائفهم.

فيجب على الشيعة أن تتقرب إلى الأزهر.

ويجب على الشيعة أن تتقرب إلى الإخوان المسلمين.

ويجب على الشيعة أن تتقرب إلى السلفيين.

ويجب على الشيعة أن تتقرب إلى الصوفية.

الفهرس

***